



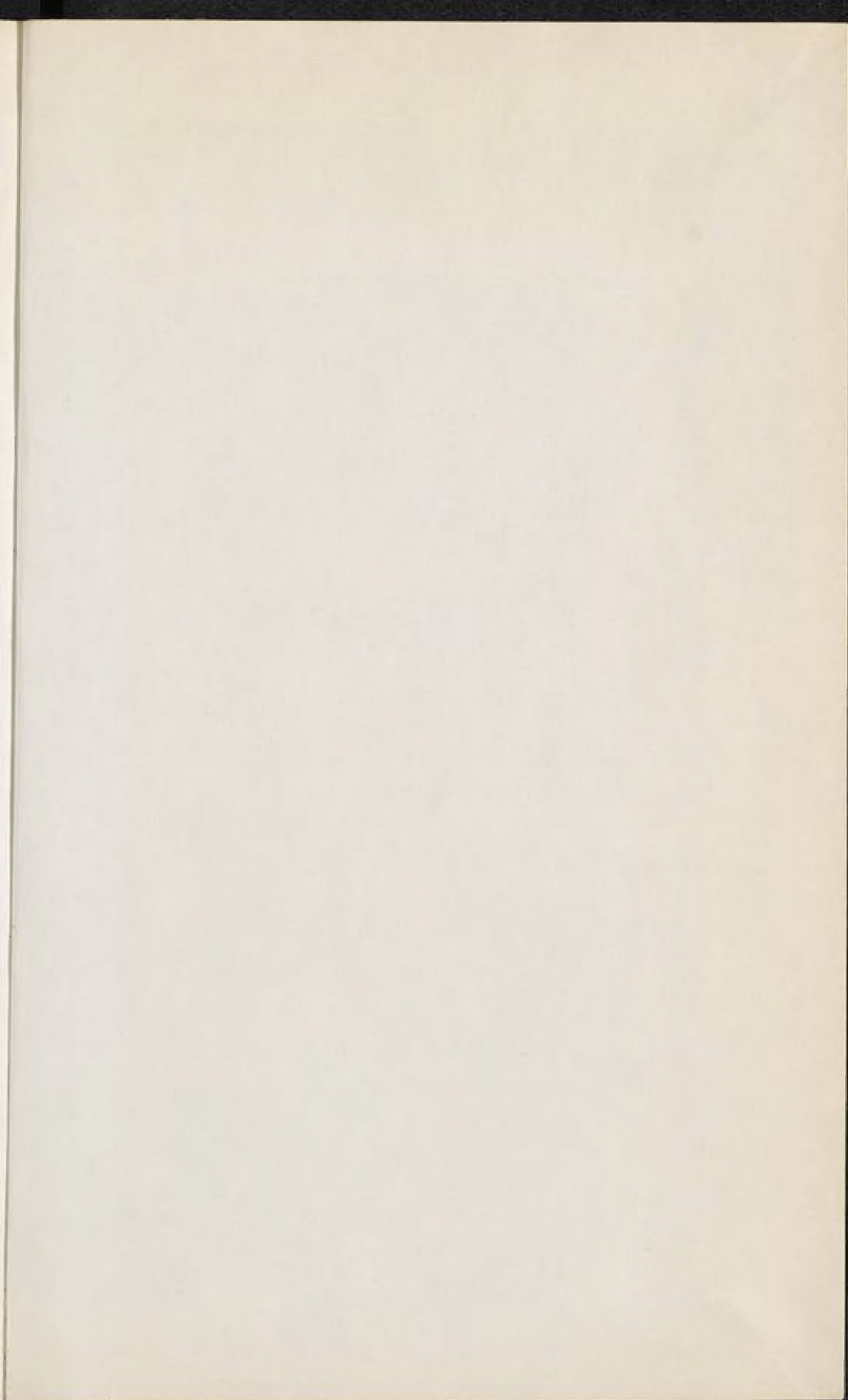
3 1142 00297 0617

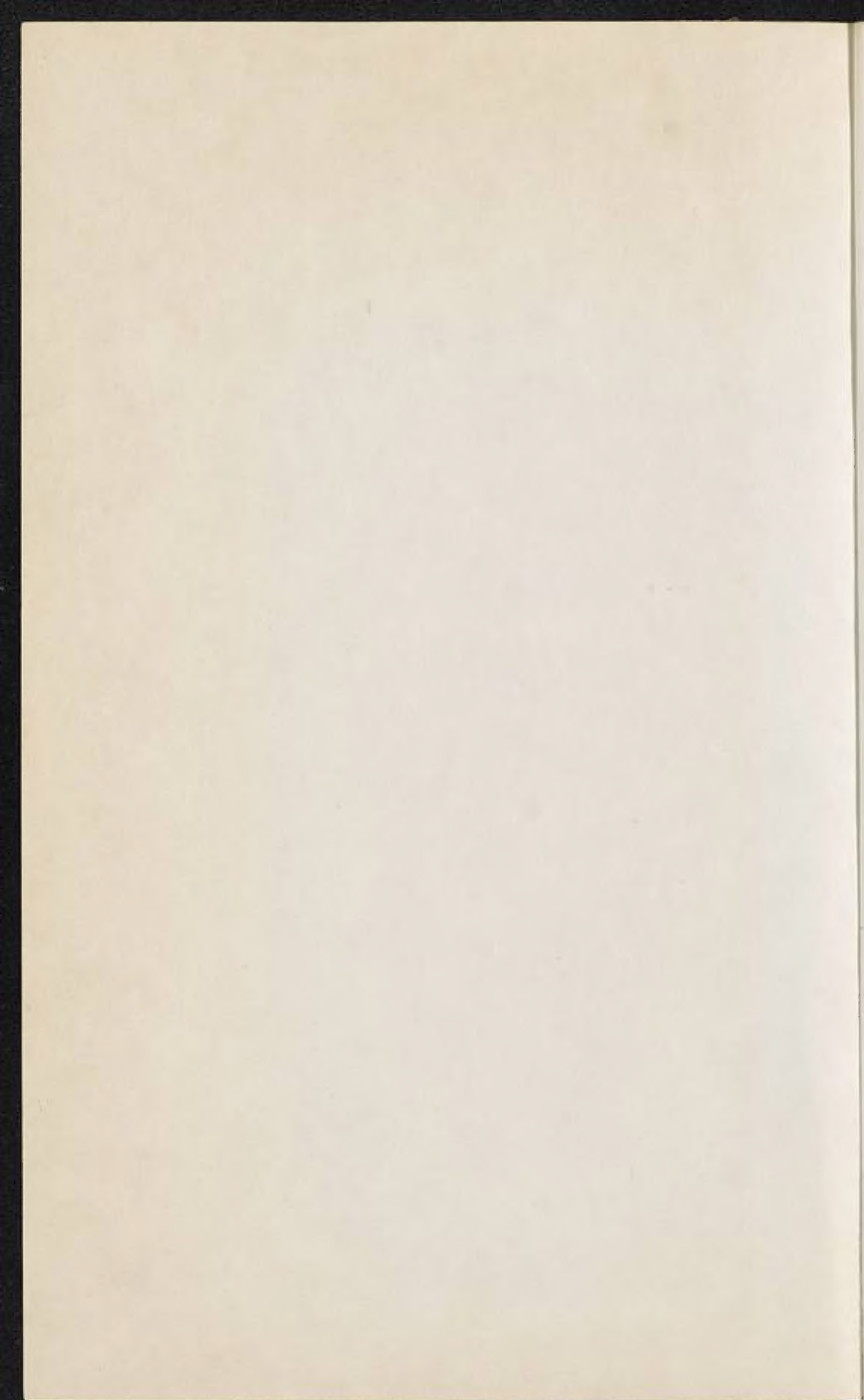


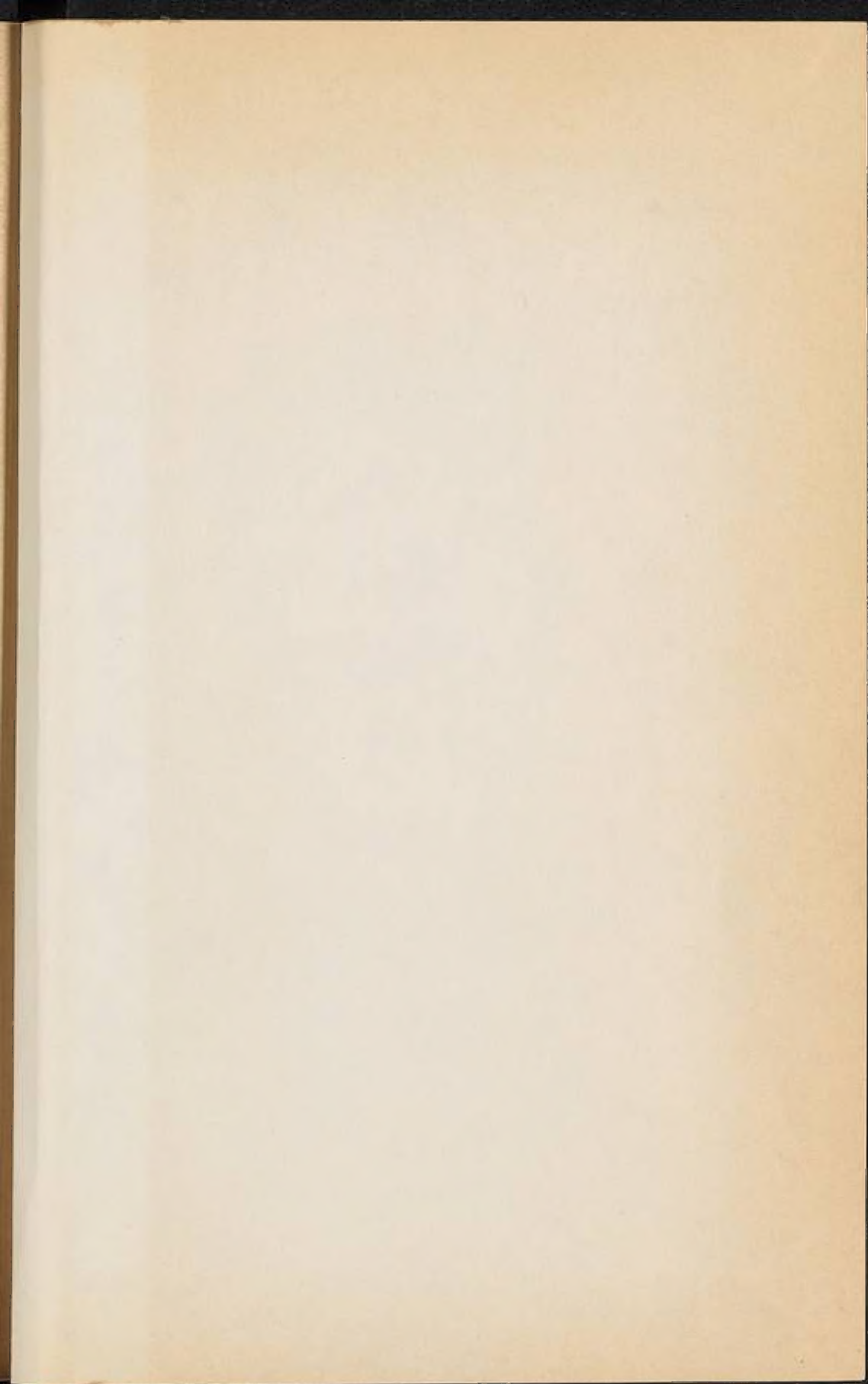
New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
<p>Bobst Library APR 10 1996 CIRCULATION</p> <p>SEP 29 REC'D</p>	<p>Bobst Library JUN 18 1999 CIRCULATION</p>	<p>DUE DATE JUL 22 2003 Bobst Library Circulation</p>
<p>DUE DATE MAR 29 2009 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>	<p>RETURNED MAR 08 2005 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>	<p>RETURNED JUL 08 2007 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>
<p>RETURNED SEP 21 2007 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>	<p>RETURNED SEP 15 2012 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>	<p>DUE DATE MAY 08 2008 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>
<p>BOBST LIBRARY</p>		<p>DUE DATE FEB 2 2009 BOBST LIBRARY CIRCULATION</p>

DATE DUE







قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب للمدارس الثانوية

حارث علي بن هشام

أو

فترة من الزمن

لمنشئة

محمد الموليحي

الطبعة السابعة مع الرحلة الثانية

كان النبي عليه الصلاة والسلام
بمزج ولا يقول إلا حقاً

حقوق الطبع محفوظة

منع الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



**Elmer Holmes
Bobst Library**



**New York
University**

al-Muwaylihi, Maḥammad
/ Ḥadīth 'Isā ibn Ḥishām,
قررت وزارة المعارف تدرس هذا الكتاب للمدارس الثانوية

حَدِيثُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

أَوْ

فَتْرَةٌ مِنَ الزَّمَنِ

لَمُنَشَأُهُ

مُحَمَّدُ الْمُوَيْلِحِيُّ

الطبعة السابعة مع الرحلة الثانية

كأن النبي عليه الصلاة والسلام
يخرج ولا يقول إلا حقا

حقوق الطبع محفوظة

منشور الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

PJ

7850

.u9

, H3

1947

C.2



N.D.F. CLSI

published first at 1898

ترجمة حياة المرحوم

السيد محمد المويلحي بك

السيد محمد المويلحي بك

السيد محمد المويلحي بك ابن السيد ابراهيم بك^(١) ابن السيد عبد الخالق بن السيد ابراهيم بك بن السيد أحمد بن السيد الشريف الأمير مصطفى وكيل المويلح ، ابن الشريف محمد الوكيل بن العارف بالله عبد المنعم بن السيد محمد بن السيد محمد أبي السرور بن الأستاذ القطب أبيض الوجه بن الأستاذ شيخ الإسلام أبي الحسن المعز بن الأستاذ عبد الرحمن جلال الدين^(٢) بن السيد عبد الملك بن السيد يرحم بن السيد محمد بن السيد حسان بن السيد سليمان بن السيد محمد بن السيد عبد الملك بن السيد حسن المكعوف ابن سيدنا الحسن المثلث بن سيدنا الحسن الثاني بن سيدنا الحسن السبط عليه السلام ابن السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فأسرة المويلحي تمتد نسبها إلى الصادق الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى الصديق أبي بكر رضي الله عنه ، وهذا النسب الشريف ثابت ثبوتاً لا يحتمل الشك إذ أنه يرجع إلى أحكام قضائية شرعية ، لا إلى مجرد الإثبات الإداري المشهور في مصر .

والمويلحي نسبة إلى المويلح ، وهو ثغر في شبه جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر وكان تابعاً لمصر في عهد علي بك الكبير ، وظل هكذا إلى سنة ١٨٩٢ ، حيث ضم إلى ولاية الحجاز .

(١) ولد عام ١٢٦٢ هـ ، وتوفي عام ١٣٢٣ (١٩٠٦) وهو في الثانية والستين من عمره ، وستحدث عن تاريخ حياته في كتابه « موسى بن عيسى » الذي سينشر قريباً إن شاء الله .

(٢) السيد عبد الرحمن جلال الدين : هو ابن السيدة فاطمة الكبرى بنت السيد أحمد الكبرى ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن السيد محمد بن السيد عوض بن السيد عبد الخالق بن السيد عبد المنعم بن السيد يحيى بن السيد حسن بن السيد موسى بن السيد يحيى بن السيد نجم ابن السيد عيسى بن السيد داود بن السيد محمد بن سيدنا أبو طلحة بن سيدنا عبد الله ابن سيدنا عبد الرحمن الصحابي ابن سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

ولقد شيد فيه الأمير السيد مصطفى قلعة ، لا تزال باقية إلى الآن ، ولها دفاتر محفوظة في الحزن التركي بدار المحفوظات العمومية المصرية ، وتوجد لدى أسرة المويلحي حجة القليك الخاصة بهذه القلعة ، وهي بتمقيعات أعضاء الشرع الشريف المكون — إذ ذاك — من عامر أفندي القاضي والأمير على أغا كفتخدا للرحوم الأمير خليل بك والأمير حسن أغا سردار طائفة « گوكليان »^(١) وغيرهم من الأمراء والحكام ومشايخ العرب .

ولقد جاء بهذه الحجة — بعد الديباجة — : « حضر بمجلس الشرع المشار إليه أعلاه بين يدي مولانا الأفندي المومي إليه (عامر أفندي القاضي) فخر الأكابر والأعيان السيد الشريف الأمير مصطفى أغا بن المرحوم محمد أغا المويلحي . . . إلى أن ذكر « وصرف عليها من ماله وصلب حاله ٦١٧٧٣ نصف فضة » وتم تحرير هذه الحجة في ١٨ محرم ١١٨٦ هـ

هذا وقد انقسمت أسرة المويلحي إلى قسمين ، قدم أحدهما مصر واستوطنها ، وظل الآخر في المويلح .

وأول من وفد إلى مصر السيد أحمد^(٢) — وبعد أن تعاون المغفور له رأس الأسرة المالكة الكريمة محمد علي باشا على قمع ثورة الوهابيين — أقام بالقاهرة ، وأسس بيتاً تجارياً لصناعة الحرير ، وقد بنى بالسيدة رابية البكرية ابنة الشيخ خليل البكري فأعقب السيد ابراهيم ، وكان سر تجار مصر بعد مقتل السيد المحروقي ، وكان مولعاً بالأدب ، فبلغت شهرته إلى حبيب أفندي كفتخدا المغفور له محمد علي باشا ، فأنخذه كاتب سره ، ورزق السيد ابراهيم بالسيد عبد الخالق ، الذي أنجب السيد ابراهيم — الكاتب العظيم والسياسي القدير — والسيد عبد السلام ، الذي لقب « بغيرابو » مصر .

ولد السيد محمد في سنة ١٨٥٨ في حجر والديه وظل جده السيد عبد الخالق ، وهو يومئذ صاحب أكبر بيت تجاري في الشرق ، فنشأ ممزراً ، لا مدلاً كأبناء الأسر الكبيرة ،

(١) ينطق : جوتوليان وهو لفظ تركي معناه : متطوعون .

(٢) توفي بالقاهرة في يوم الاثنين من ذي القعدة سنة ١٢٢٩ هـ .

وقد عني والده بتربيته فبعث به وهو في سن التاسعة إلى مدرسة الخرنفش ، وكانت تسمى
 إذ ذاك « بالمدرسة الكبيرة » ، فكان يتخلف أحياناً عن الذهاب إلى المدرسة ، فيستأجر
 رئيسها Hedefonsus « الديفونسوس » والده ويطلب إليه أن يشتد عليه قليلاً ، حتى
 لا يهجر المدرسة لأقل انحراف في صحته أو توعك في مزاجه ، لأنه يتفرس فيه النباهة وحدة
 الذكاء ؛ ولقد كان — رغم تخافه — متفوقاً على أقرانه في اللغة الفرنسية ، إذ كان يقضى
 الأيام التي يلزم البيت فيها دائماً على المطالعة والمذاكرة تحت إشراف والده ، وظل يتابع
 دروسه في المدرسة تارة وينقطع عنها طوراً ، حتى بلغ الخامسة عشرة ، فأثر والده أن يتلقى
 دروسه العالية في البيت ، كما كانت المادة عند الأمر الكبيرة وقتئذ ، فاختار له
 أحمد اسماعيل بك ناظر مدرسة الألسن « دار المعلمين العليا » لتعليم اللغة الفرنسية ،
 والشيخ أحمد قطة العدوي رئيس مصححي المطبعة الأميرية لدراسة اللغة العربية وآدابها .
 ولما حيل بين الخديو إسماعيل وبين العرش عام ١٨٧٩ وسافر إلى إيطاليا ، حيث
 أقام في قصر الفافوريتا « La Favorita » بليفورنو « Livorno » بعث إلى المرحوم
 إبراهيم بك يستقدمه إليه ، ليكون سكرتيراً خاصاً له ، فاجب الدعوة ، واستعفى من منصبه
 في مصر ولحق بسموه .



ظل السيد محمد بعد ذلك تحت رعاية عمه السيد عبد السلام باشا . فاختار له
 إبراهيم اللقاني بك ليأخذ عنه العلم والأدب وليصحبه معه إلى حيث يليق بأمثاله من مجالس
 العلماء وأندية الأدباء .

وفي ٥ أبريل سنة ١٨٨٢ التحق بخدمة الحكومة المصرية في منصب بوزارة الحقانية ،
 ثم حدثت مذبحة الاسكندرية في ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فسافر عبد السلام باشا إلى الشام
 في بوليه ، وبقي محمد بك منفرداً في مصر ، فانضم إلى الثوار مع السيد حسن موسى العقاد
 وأستاذه إبراهيم اللقاني بك ، وأرسل إليه والده بضع نسخ مطبوعة على الحجر من رسالة
 عنوانها « اللجنة تحت ظلال السيوف » ليوزعها على زعماء الثورة العربية ، حتى يزدادوا

حماسة وحمية ، وحسبك أنها كانت بقلم إبراهيم ، الذى كان يعرف مواضع الهوى من النفوس ، وكان يستطيع أن يقود الجمهور بقله الفذ البايغ ؛ فضبطت بعض نسخ هذه الرسالة عند محمد بك ، وألقى القبض عليه ، وطالب عثمان باشا ناظر الضبطية إحالته إلى مجلس عسكرى ، فتدخل بطرس غالى باشا وكيل الخفانية فى ذلك العهد ، وحال بينه وبين المحاكمة ، بدعى أنه لا تجوز محاكمة شاب قاصر غاب عنه عمه وأبوه ، وأسفر هذا التدخل عن مجازاته إدارياً وفصله من وظيفته ، فسافر إلى والده فى إيطاليا ، وكان يجاوره فى المسكن فى امبورنو بحام إيطالى ، وكان صديقاً لإبراهيم بك ، فتخرج عليه السيد محمد فى اللغتين الإيطالية والفرنسية ، وألم عبادى اللغة اللاتينية ، وظل فى أوربا ثلاث سنين قضاهما بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وتبنى له مصادقة اسكندر دوماس الابن وكثير من أدباء وعظماء الغربيين فى ذلك العهد .

هذا وقد اشترك ، وهو فى باريس ، مع والده والسيد جمال الدين الأفغانى فى تحرير « مرآة الشرق » .

ثم سافر المرحوم السيد إبراهيم بك إلى لوندرا ، وظل هناك إلى أواخر سنة ١٨٨٥ ، حيث لحق به بحله محمد بك ، وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يقرب إليه إبراهيم بك ، ليأمن من نفثات قلمه ، فأرسل إليه أغويان باشا ناظر الخاصة السلطانية ليستقدمه إلى الأستانة بواسطة قسطنطين باشا سفير تركيا فى لوندرا ، فخشى إبراهيم أن يكون فى الأمر دسيسة ، لأنه لم يكن يتوقع عفو السلطان عنه بهذه السرعة ، فكلف السيد محمد بالسفر إلى الأستانة ليستطلع جلية الأمر ، فنفذ مشيئة والده وأرسل إليه كتاباً يطمئنه فيه من ناحية السلطان . فسافر إبراهيم إلى الأستانة وكتب إلى السلطان كتاباً يشكر له فيه عفو عنه ويهتذر عن تأخره عن المشول بين يديه ، فقبل معذرتة وأكرمه السلطان ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف الأعلى (انجمن المعارف) .

وفى الأستانة وجد محمد بك نفسه بين مكاتب مكتظة بأنفس الكتب ومختلف الآثار ، الشرقية والغربية فكان كثير التردد عليها ، وعلم منيف باشا ناظر المعارف وصديق والده

برغبته في حب الاطلاع على مؤلفات أدباء الشرق والغرب وعلمائهما ، فأعطاه « إذناً » بالتردد على مكتبة « الفانح » ليطالع على ماتحتويه من كتب قيمة ، فكان شغله الشاغل الاطلاع والدرس ، وتمكن أثناء ذلك من نسخ رسالة الغفران ورسائل الجاسط في تربية الصبي وديوان ابن الرومي ، ومختارات ونقف من الأدبين العربي والعربي بين قصص وحكم وأمثال ونوادر ، وقد عنى رحمه الله بتدوينها في سجلات كبيرة وما زالت موجودة في مكتبته إلى اليوم .

وفي سنة ١٨٨٦ اشترك مع عبد الله أفندي المنيرة في تحرير جريدة « المنبه » وكانت تصدر مرتين في الأسبوع .

ثم عاد إلى مصر عام ١٨٨٧ ، واشترك مع عارف بك المرديني في تحرير جريدة « القاهرة الحرة » اليومية ، وظل يكتب فيها حتى وقفها صاحبها لسفره إلى الآستانة بناء على دعوة من السلطان عبد الحميد .

ثم تابع مقالاته في مختلف الصحف المصرية ، فنشر في المقطم سلسلة مقالات تحت عنوان « الحرية المعتدلة ملاك السعادة » بتوقيع « مصري ببلدته عليم » وكان المقطم يقدمها بقوله « هذه مقالة بقلم من إذا عدت أعيان مصر كان في أوائلها ، وإذا عدت أرباب الأقلام كان أعظم فطاحلها » .

وفي سنة ١٨٩٢ وفد إلى مصر سلطان جوهور ، فاختار محمد بك ليقدمه إلى السلطان ، بواسطة والده ، فسافر معه إلى الآستانة ، وأنعم عليه السلطان بالنيشان الثاني المجيدي .

وفي سنة ١٨٩٥ عاد والده من الآستانة وعين محمد بك معاون إدارة مديرية القليوبية ثم مأموراً لمركز البرلس ، ولكنه مل الخدمة الحكومية ، فاعتزلها في أوائل عام ١٨٩٨ .

وفي ١٤ إبريل سنة ١٨٩٨ أصدر إبراهيم بك جريدة « مصباح الشرق » ، فاشترك مع والده في تحريرها ، ثم نشر في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، « فترة من الزمن » ، أو حديث عيسى بن هشام « بإضاء » م « وهو أول حرف من اسمه ، وظل يتابع نشره ، حتى سافر

في ١٠ من شهر يونيو سنة ١٩٠٠ إلى إنجلترا في معية الخديو السابق عباس باشا الثاني لزيارة ملكة الإنجليز، فأرسل إلى والده وصف هذه الزيارة فنشرها في مصباح الشرق بالعدد رقم ١١٢ المؤرخ في ١٢ يولية سنة ١٩٠٠، ثم زار معرض باريس ونشر أول رسالة في وصفه بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٠. وكان والده إبراهيم ينشر بمصباح الشرق في ذلك العهد كتابه «مرآة العالم»، أو حديث موسى بن عصام «بامضاء (١)» وهو أول حروف اسمه. وظل محمد بك يوالى الكتابة في تلك الصحيفة مع والده حتى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٣ حيث وقف والده إصدارها بعد أن وصل إلى القرض المطلوب منها، إلا أن محمداً لم ينقطع عن موالاة الصحف برسائله حتى عام ١٩١٠. وفي سنة ١٩٠٦ أنعم عليه الخديو عباس باشا برتبة المتمايز.

وفي ١٥ مايو سنة ١٩١٠ عينه الخديو مديراً لإدارة الأوقاف، وظل في هذه الوظيفة إلى سنة ١٩١٥ حيث استقال وأثر العزلة وكان قد تخير لها من رجال الأدب والبيان من بين تلامذته ومريديه طائفة عاونته أصدق المعاونة على رفع شأن اللغة العربية فسيا بمستوى الكتابة في ذلك الحين إلى درجة رفيعة ونذكر من بينهم المرحومين: الأستاذ عبدالعزيز البشري وعبد الحليم المصري والأساتذة عباس محمود العقاد وأحمد الكاشف ومحمد مصطفى الماخي. وخلف من تلامذته من انتفعوا بأثاره واهتدوا بهديه ولا يزالون يذكرون عهده بخير ما يذكرون به مصلح حكيم.

وفي ديسمبر سنة ١٩٢١ نشر بجريدة الأهرام مقالاً ذكر فيه سبب عزله، ورحب بالتحاد الأحزاب في مصر لما في الاتحاد من عزة للشرق.

وفي ١٩٢٥ طلب إليه صاحب جريدة مشهورة في مصر أن يكتب لجريدته مقالين في الشهر، على أن يقتيد بلون معين من الكتابة والسياسة، لقاء أجر قدره ثمانون جنيهاً، فأجابه بقوله: «قلم المويلحي لا يباع».

وفي عام ١٩٢٧ قررت وزارة المعارف «حديث عيسى بن هشام» للمطالعة في مدارسها الثانوية، ولقد جاء بتقريرها ما نصه: «حديث عيسى بن هشام إذا دخل في المطالعة لطلبة المدارس الثانوية أفادهم أجل فائدة من ناحية ما يأخذهم به من بلاغة الكلام، وسلامة

القول ، والصيغ الطريفة التي تناولت كثيراً من الأسباب الدائرة بين الناس ، وهو ما يهوز
جميع الكتب التي وضعت في عصور متقدمة ، إلى ما يفسح في ملكاتهم ، ويطلبهم على
دقة الملاحظة ، وقوة التعبير ، وتدير ألوان الاحتجاج لطرفي الموضوع الواحد . «
وفي ٢٩ من رمضان سنة ١٣٤٨ (آخر فبراير سنة ١٩٣٠) توفي رحمه الله ، تاركا آخر
مؤلف له كان قد انتهى من تأليفه قبيل وفاته بأسابيع وأسماء : « رسائل في الأخلاق ،
أوعلاج النفس » فتولت وزارة المعارف طبعه في المطبعة الأميرية بحروف مشكلة وقررت
المطالبة في مدارسها الثانوية عام ١٩٣٢ م .

ولقد رثاه شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم بك أبيات ثلاثة قالها ارتجالاً وقت
خروج النعش :

غاب الأديب أديب مصر واختفى فلتبكه الأقلام أو تنقصا
لحقى على تلك الأنامل في البلى كم سطرت حكما وهزت مرهفا
مات المولى الحى الحسان ولم يمض حتى غزا « عيسى » العقول وثقفا
وأبنته أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقي بك بقصيدة طويلة مطلعها :
كاتب محسن البيان صناعه استخف العقول حيناً يراعه
ابن مصر وإنما كل أرض تنطق الضاد مهدد ورباعه
ومنها :

علم في البيان وابن لواء أخذ الشرق حقبة إبداعه
حسبه السحر من تراث أبيه إن تولت قصوره وضياعه
إنما السحر والبلاغة والحكمة بيت كلاها مصراع

هذا ونحن كانت صلتى بصاحب الترجمة تحول بينى وبين التنويه بمكانته وبجهوده في
الحياة لحسبه ما ترك للأدب من تراث وما خلقت له آثاره الأدبية من شهرة تشهد له
بالزعامة القلمية في عصره وأضعه من جبهة كتاب الشرق والغرب في صف حملة لواء
الكتابة الثرية في ذلك العهد .

وإلى القراء بعض ما كتبه مسيو « هنري بيرز » المستشرق الفرنسي الشهير^(١) وأحد كتّاب الأدب الفرنسي البارزين عن المويلحي وكتابه « حديث عيسى بن هشام » ننقله إلى العربية فيما يلي :

« إن حديث عيسى بن هشام يعد في ظليمة الكتب المؤلفة في الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعي ، ويمكننا أن نعتبره بحق مثالا لنهضة الأدب العربي في الشرق . وقبل أن نتعرض لتحليل موضوعات هذا الكتاب ، يجب أن نتكلم أولاً عن حياة المويلحيين الأب والابن إذ أن عبقرية الثاني قد تجلت مستمدة منها من حنكة الأول وخبرته السياسية ونشاطه التجاري وقوته الفكرية والأدبية . وبعد أن أفاض الكاتب في ترجمته للمويلحيين الكبير والصغير قال : « إن المويلحي الصغير كان مثل أبيه شديد الرغبة في الاطلاع على الأدبين الفرنسي والإنجليزي وربما نزعته نفسه إلى اللاتيني واليوناني أيضاً . وما من شك في أن حديث عيسى بن هشام كان العامل الأول في بناء صرح النهضة الحديثة للغة العربية وأن سلاسة افته تعيد إلى الذاكرة أسلوب الكتابة الفنية لجونكور والإنشاء الخيالي لهوبسيمان^(٢) . ولقد صور المويلحي الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية بقلم جري وصراحة واضحة وإخلاص بلغ حد القسوة في تصوير الحقائق الواقعة تصويراً دقيقاً أذكرنا كتابة بلزاك وفلوبير^(٣) » .

« ومع أن كتاب المويلحي قد مضى عليه أكثر من خمس وثلاثين سنة فإنه ما زال في مجموعه كأنه ولید اليوم يصف الحياة الحاضرة في أسلوب يدخل السرور على النفس ويبعث في القارئ روح الميل إلى تتبع حوادثه دون سأم ولا ملل » .

(١) Henri Peréz المستشرق الفرنسي وعضو المعهد الفرنسي بدمشق . وقد نشر بحثه هذا

Bulletin d'Etudes Orientales.

في مجلة

Tome X, 1943-1944-Beyrouth, 1944= P.P. 101-118

Huysmans, Goncourt (٢)

Flaubert, Balzac (٣)

« ومما هو جدير بالذكر هنا أن نقد المويلحي لمعادات وأخلاق معاصريه قد سابر الأيام والسنين فلم يقف أثره في الإصلاح عند زمان أو مكان معين ، بل تجاوز المصر الذي كتب فيه والمجتمع المصري الذي أوقف المؤلف كتابه على تقدمه — إلى مكان آخر ومجتمع آخر — فقد نقل أحد رجال الإصلاح من علماء شمال إفريقيا فصولاً كاملة من حديث عيسى بن هشام ضمنها كتاباً له في البدعة أسماء (الرحلة المراكشية) واتخذ من كتابه هذا أداة لنقد المجتمع الإسلامي في بلاد المغرب وتوجيهه إلى طريق الإصلاح ، غير أن الأديب المراكشي — وهو محمد بن محمد ابن عبد الله الموقت — لم يرم يدعوه إلى نسبة تلك الفصول من حديث عيسى إلى كاتبها ، ذلك لأن كتاب الأديب المصري غنى شهرته في العالم العربي وقوة أسلوبه الإنشائي الممتاز ، عن التقوية باسم مؤلفه « محمد بك المويلحي » .

ولقد أشار الكاتب الفرنسي في هذا المقام إلى طائفة من الكتب الأدبية لكثير من كتاب الأدب في مصر والشام وبلاد المغرب وقال إن هؤلاء حاولوا أن يحذوا حذو المويلحي في كتاباتهم وأن يسابقوه في هذا المضمار ، و بعد أن وازن بين أساليبهم وطريقتهم في النقد وما امتاز به المويلحي من نهج وأسلوب ، لم يتردد في الحكم عليهم بأنهم قد أخفقوا جميعاً في محاولتهم ، بل عجزوا آخر الأمر عن إدراك غايتهم في هذه الحيلة . ولقد ختم الأديب الفرنسي بحثه قائلاً : « يعذر أن ينسج كاتب على منوال حديث عيسى بن هشام أو أن يصل إلى سمو أسلوبه مقلد ، فقد بلغ المثل الأعلى للإنشاء الوصفى ودقة تصوير المجتمع ولقد بزغ نوره في فجر النهضة الحديثة للأدب العربي فمحت آيته مختلف المقامات الأدبية وهدى لنوره الرجعيين القدامى من كتاب الأدب ، واسترشد بسناه المجددون من الأدباء فسلكوا من بعده الطريق المعبد إلى المستقبل المشرق » .

إبراهيم المويلحي

خفيد المويلحي الكبير

وابن شقيق صاحب الترجمة

يناير سنة ١٩٤٧

إهداء الكتاب

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم ، عند نشرها ، بإهداءها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيف العاجز يهدي هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه : من أديب يجد فيه طرقاتاً من الأدب ، وحكيم يري فيه لمحة من الحكمة ، وعالم يبصر فيه شذرة من العلم ، ولغوى يصادف فيه أثراً من الفصاحة ، وشاعر يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال .

وأهديه إلى أرواح المرحومين : الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللغوى الشنقيطى ، والشاعر البارودى ، أولئك الذين أنعم الله عليهم ، وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت بهديهم .



وأهدى هذه الرسالة ، التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة ، إلى جماعة أهل الفضل والأدب ، لما تضمنته من الحث على طلب العلم وأدب النفس ، ولحسن أسلوبها فى كتب المودات . وهى لا تزال عندى إماماً يهدينى ، ونوراً أستضيء به . فأردت أن أشاركهم فى هذه الذخيرة التى يحق الضن بها والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة ، وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين فى اقتناء الرسائل التى تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ، ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ، ويبدلون فى سبيل ذلك من الأموال والمساعى ما لا يُقدّر ، فإنى أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدّون بها ، ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله .

جبرِ مفضل

تقبلك شئون الحال یشرع مصدر الجبر من حسنها
 وخوضك فنون کلا ب ی ر ی م قد علفت بک اما لها
 ولس بعدی الکرامی الله عجزه وکف يومئذ العجز
 ولقد عشت اللطیفة الهویة مصرکة اخرم وندتونی منی
 فاستدبرکما وأبرم بیا بیت من کلبانه والحق رصرا
 حتی تدون کلمة الحق می کفیا ولکن کالدین غنم انفسهم
 ابرامنا وبقیم مطنون الا هواة شقایها وحسوا انهم کسبون
 صفا ویصلون امرا وکن عزالقی دوی نفعک ولا تقف غیرک
 الا عفا عنک عجبک لانهیة للفیضة وندک لکلا ولا توقف للفران
 ورافت بفرینک می منی اویا بهی غیرک وسمی جمال هوئی کلبی لکها

حبيبي الناضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الخرجة من حسرتها ، وخوضك في
فنون الآداب يريح قلوباً علقّت بك آمالها . وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز^(١) ولك
يومئذ التحدي . ولقد تمثلت اللطيفة الموسوية في مصر كرامة أخرى ، وهذا توفيق
من الله تعالى . فاشدد أزرها ، وأجرم بما أوتيت من الكياسة والخلق أمرها ، حتى
تكون كلمة الحق هي العليا . ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها ،
وساقطهم الظنون إلى مهواة شقاقها ، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا ، ويصلحون أمراً .
وكن عوناً للحق ولو على نفسك ، ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عجبك .
لا نهاية للفضيلة ، ولا حد للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بقرينك السامية
أولى بها من غيرك ، والسلام ما

صالح المربع الحسيني الأفعاني

(١) الإرهاص : الحارق للعادة الذي يظهر من الشيء قبل أن يبعث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الواحد العدل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي القرشي الأبطحي التهامي المسكي المديني وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام — وإن كان في نفسه موضوعاً على نسق التخيل والتصوير ، فهو حقيقة متبرجة في ثوب خيال ، لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم ، وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها ، والفضائل التي يجب التزامها

وهذه الطبعة الرابعة ، بعد نفاذ الطبعة الثالثة ، نهدناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من إصلاح مواضع النقص والإهمال ، ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال ، وبن الله التوفيق لكل حال ، والتسديد في كل مقال وفعال .

محمد المولى العتيبي

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام - قال : رأيت في المنام ، كأنني في صحراء « الإمام » ، أمشي بين القبور والرجام^(١) ، في ليلة زهراء قراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء^(٢) ، فيكاد في سنا نورها ينظم الدر ثاقبه ، ويرقب الدر راقبه . وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور . وفوق هاتيك الصخور ، يغرور الإنسان وكبره ، وشموخه بجده ونفحه ، وإغراقه في دعواه ، وإسرافه في هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لنفسه ؛ فقد شخ الغرور بأنفه ، حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما ملك . فأرغمه الموت فسد بذلك الأنف شفاً في لحده ، بعد أن وارى تحت صفائح صحائف عزه ومجده^(٣) . وما زلت أسهر وأفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرت في خضائي فوق رمال الصحراء ، قول الشاعر الحكيم أبي العلاء :

خَفَّفَ الوَطءَ ما أَظُنْ أَدِيمَ ۖ أَرْضَ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْمَهْدُ ۖ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَحْدَادِ

سِرٌّ إِنْ اسْطَمَّتْ فِي الْمَوَدِّ رُؤُودُ ۖ لَا اخْتِلَافَ عَلَى رُقَاتِ الْمَبَادِ

فقرعت من الندم ، وخففت وطء القدم ؛ وإن في دهاء أوائك الأموات ، وعمار تلك الرمم والرفات ، لمباسم طالما حوّل العاشق قبلته قبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغيار الغبراء واختلطت ثناياها بالحصى والحصى^(٤) .

وتذكرت أن تلك الحدود التي كان ينار منها الورد فيسكني بدوع الندى ، ويشتمل القواد منها ينار الجوى ، ويقف انخل منها موقف الخليل من النيران . أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان^(٥) ، ويترقرق فيها ماء الحياة وماء الشباب . قد طوى الدهر حسنها على الكتاب . وصارت بحكم القضاء ، أديماً لوجه القضاء .

(١) الرجاء : جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء : السماء (٣) الصفائح : حجارة القبور .

(٤) الحصى : صغار الحجارة واحدها حصية (٥) ابن ماء السماء : هو ابن المنذر وكان أسود ،

وشقائق النعمان : زهر أحر .

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِیُونَ الَّتِی صَادَتْ بِأَهْدَابِهَا الْمُلُوكَ الصَّیِّدَ^(١) . فَكَانُوا رُعَاةَ الْأُمَمِ رَعَايَا
الْفَیِّدِ . وَسَحَرَتْ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . وَوَقَفَتْ مَوْقِفَ الْإِسْتِكَاثَةِ رَبَّ الْجَلَالِ
وَالْجَبَرُوتِ . يَلْتَمِسُ — وَالتَّاجُ فِي بَيْمِنِهِ ، وَعَرَقَ الْحَيَاءُ فَوْقَ جَبِينِهِ — مِنْ خِلَالِ لِحَظَاتِهَا
قَبُولًا . كَسَائِلُ يَمْدٌ لِلتَّمَاسِ الْإِحْسَانِ كَشْكُولًا . قَدْ أَمَسَتْ تَرَابًا تَحْتَ الرَّمْسِ^(٢) . كَأَنَّ
لَمْ تَفْتَنُ بِالْأَمْسِ .

وَأَنَّ ذَلِكَ الْفَاحِمَ الْأَثِيثَ مِنَ الشَّعْرِ^(٣) ، الْخَاطِفَ بِهَرِيقِهِ سَوَادَ الْقَابِ وَالْبَصَرَ ، قَدْ
حَصَدَتْهُ مِنْ مَنَابِقِهِ يَدُ الزَّمَنِ ، فَتَسْجَعُ الْأَجَلَ مِنْهُ ثَوْبَ الْكُفَنِ .

وَأَنَّ تِلْكَ النُّهُودَ الَّتِی كَانَتْهَا حِقَاقُ مِنْ لَجِينِ تَزَيَّنَتْ بِحَبِّ مِنَ التَّمْرِجَانِ^(٤) أَوْ كُرَاتٍ
مِنْ جَلِيدٍ يَثْقُ فِيهَا زَهْرٌ مِنَ الرَّمَانِ . قَدْ أَصْبَحَتْ كَأَلَمِخْلَاقَةٍ عَلَى الصُّدْرِ ، تَحْمِلُ الزَّادَ
لِلدُّودِ الْقَبْرِ .

كَمْ صَانِنٌ عَنْ قُبْلَةٍ خَدَّةٌ سُلْطَتِ الْأَرْضُ عَلَى خَدَّةِ
وَحَامِلٍ ثَقُلَ الثَّرَى جِيدُهُ وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عَقْدِهِ

وَأَنَّ تِلْكَ الرِّفَاقَاتِ وَالْعِظَامَ ، مِنْ بَقَايَا الْمُلُوكِ الْعِظَامَ ، الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَصْفِرُونَ الْأَرْضَ
دَارًا ، وَيَحَاوِلُونَ عِنْدَ النُّجُومِ جَوَارًا . وَتِلْكَ الصُّلُوعُ الَّتِی انْحَسَتْ عَلَى الْبَطَاشِ وَالْحَلَمِ ،
وَالشَّفَاهُ الَّتِی طَالَمَا لَفْظَتْ أَمْرَ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ . وَتِلْكَ الْأَنَامِلُ الَّتِی كَانَتْ تَبْرِى الْقَلَمَ لِلْكَتَابِ ،
وَتَبْرِى السَّيْفَ الرِّقَابِ . وَتِلْكَ الْوُجُوهُ وَالرُّمُوسُ ، الَّتِی اسْتَعْبَدَتْ الْأَبْدَانِ وَالنَّفُوسَ ،
وَوُصِفَتْ تَارَةً بِالْبَدُورِ وَتَارَةً بِالشَّمُوسِ ، قَدْ تَسَاوَى الرَّئِيسُ فِيهَا بِالْمَرْفُوسِ . فَلَا تَفْرِيقَ
الْيَوْمِ وَلَا تَمْيِيزَ ، بَيْنَ الدَّلَائِلِ مِنْهَا وَالْعَرِيزِ .

هُوَ الْمَوْتُ مُنْزَعٌ عِنْدَهُ مِثْلُ مُقْتَرٍ وَقَاصِدٌ نَهَجٌ مِثْلُ آخِرٍ نَاكِبٍ
وَدَرْعُ الْفَتَى فِي حِكْمِهِ دَرْعٌ غَادَةٌ وَأَبْيَاتُ كَسْرَى مِنْ بَيُوتِ الْعَنَاكِبِ
فَرُجْلٌ فِي غِبَاءٍ وَالْخَطْبُ فَارَسٌ^(٥) وَمَا زَالَ فِي الْأَهْلِينَ أَشْرَفُ رَاكِبٍ

(١) الصَّيِّدُ : جَمْعُ أَصِيدٍ . وَهُوَ الْمَلِكُ الْمُتَكَبِّرُ الْزَاهِي (٢) الرَّمْسُ : الْقَبْرِ

(٣) شَمْرُ أَثِيثٌ : كَثِيرٌ عَظِيمٌ (٤) التَّمْرِجَانُ : الْفُضَّةُ (٥) فَارَسٌ : بِمَعْنَى مُقْتَرَسٍ

وما النعش إلا كالسفينة راميًا بغير قاه في بحر الردى المتراكب
وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر ، وتلك الحواطر والفكر ، أتأمل في عجائب الخلق ،
وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقاً في بدائع المقدور ، مستهدياً للبحث في أسرار البعث
والنشور ، إذا برجة عنيفة من خلق ، كادت تقضى بحتفى ، فالتفتُ التفاتة الخائف المذعور ،
فأريت قبراً انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه
بهاء الهابة والجلالة ، ورؤاه ^(١) الشرف والنبالة . فصعقتُ من هول الوهل ^(٢) والوجل ،
صمقة موسى يوم ذلك الجبل . ولما أفتت من غشيتي ، وانتهت من دهشتي ، أخذت
أسرع في مشيتي ، فسمعته يناديني ، وأبصرته يدانيني ، فوفقت امتثالاً لأمره ، واتقاء لشره .
ثم دار الحديث بيننا وجرى ، على نحو ما تسمع وترى ، بالتركية تارة والعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل ، وما عملك ، وما الذي جاء بك ؟

فقلت في نفسي : حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملوكين ، فهو يسأل على أسلوبهما ،
فاللهم أنقذني من الضيق ، وأوسع لي في الطريق ، لأخلص من مناقشة الحساب ، وأكفي
شر هذا العذاب . ثم التفتُ إليه فأجبتة :

(عيسى بن هشام) — اسمي عيسى بن هشام ، وعمل صناعة الأقلام ، وجئت هنا
لأعتبر بزيارة المقابر ، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر .

(الدفين) — وأين دوائك يا معلم عيسى ودفترك ؟
(عيسى بن هشام) — أنا لست من كذّاب الحساب والديوان . ولكنني من كتاب
الإنشاء والبيان .

(الدفين) — لا بأس بك ، فاذهب أيها الكاتب المنشئ ، فاطلب لي ثيابي وليأتوني
بفرسي « دحان » .

(عيسى بن هشام) — وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه ؟

(٢) الوهل : الفزع

(١) اراءه : حسن النظر

(الدفين) مسمئاً — قل لي بالله من أي الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر، إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية .
(عيسى بن هشام) — اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها، فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً . فحي كان للبيوت أرقام تعرف بها أهلها وهي « إفادات أحكام » أو « عساكر نظام » ؟ والأولى أن تناولي رداءك أسقتر به وتصاحبي حتى أصل إلى بيتي .
قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن ردائي ^(١) — وقد كان المجهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق، فإذا هو أيضاً من سكان القبور . ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :

(الباشا) — للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » في الليالي التي كان يقضيها في البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول ؟
(عيسى بن هشام) — ماذا تريد ؟

(الباشا) — أنسيت أننا في الثلث الأخير من الليل وليس من يعرفني بهذا الرداء على أبواب مصر، ولم يكن معي كلمة « سرّ الليل » فكيف تفتح لنا الأبواب ؟
(عيسى بن هشام) — كما أنك يا سيدي لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها في حياتك فأننا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به .

(الباشا) مستهزئاً ضاحكاً — ألم أقل لك إنك غريب الديار، ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى « الضابط » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب،

(١) الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالعباءة

فلا يجيزون لأحد مشى الليل إلا إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له ، وهي تعطى لمن يطلبها من الحكومة سرّاً لقضاء أشغاله بالليل ، وتتغير في كل ليلة ، قليلة تكون كلمة « عدس » ، وليلة تكون « خضار » ، وليلة تكون « حمام » ، وليلة تكون « فراخ » ، وهلم جرا .

(عيسى بن هشام) — يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر . فاعلمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير في أيلهم . على أن الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها .

(الباشا) — الأمر في ذلك موكل إليك .

قال عيسى بن هشام : فسرنا في طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفاً بنفسه ، ويقص على من أبناء الحروب وأخبار الوقائع التى شاهدها بعينه وسمعا بأذنه ، ويذكر لى ما شاء من مآثر « محمد على » وشجاعة « إبراهيم » .

وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة القلعة ، فوقف وقفه المستكن الحاشع يقرأ سورة الفاتحة لصريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيبته :

« إيه لك يا مصدر النعم ، ومصرع الجبارة من عتاة المالك ، وبابيت الملك وحصن الملكة ، ومنبع العز ومهبط القوة ، ومرفق الجند وموئل المستغيث ، ورحمى المحتفى وكثر الرغائب ومتهى المطالب ، ومشوى البطل الشهم ومقبر الملك الهام . أيتها الحصن كم فسكت بالكرم عانياً ، وقيدت بالإحسان عافياً ، وكلم أرغمت أنوفاً ، وسللت سيوفاً . وجهت بين البأس والندى ، وداورت بين الحياة والردى . »

قال عيسى بن هشام : ثم التفت الباشا لى وقال : أسر ع بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركب جوادى ، ثم أعود إلى القلعة فأتم أذيان لى النعم الداورى الأعظم .

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق ، وبينما نحن نسير إذ تعرض لنا مسكار يسوق حماره ، وقد راضه الخبيث على التعرض وسد الطريق على المارة ، فكلاما سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا والمسكارى يندج بصوت قدح حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له : (المسكارى للبasha) - اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك منذ ساعتين .

(الباشا للمسكارى) - كيف تدعونى أيها الشقي إلى ركوب الحمار وما رغبت فيه قط وما دعوتك في طريقى ! وكيف لمثلنى أن يركب الحمار الناهق ، مكان الجواد السابق ! (المسكارى) - وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك في طريق « الإمام » ، وقد دُعيت مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ، ولم ألقت إليهم ، لارتباطى معك بهذه الإشارة ، فاركب معى أو أعطنى أجرى .

(الباشا) وهو يدفع المسكارى بيده - اذهب عنا أيها السفيه ، فلو كان سلاحى معى لقتلتك .

(المسكارى) متسافهاً في القول - كيف تجسر على هذا الكلام ! فإما أن تعطينى أجرى ، وإما أن تذهب معى إلى « القسم » ، وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديدك إياى بالقتل .

(الباشا لعيسى بن هشام) - إني لأعجب من صبرك على هذا القلاح السفيه الذى استرسل معنا في سفاهته ووقاحته ، فهل فاضربه بالنيابة عنى حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه .

(عيسى بن هشام) - كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام ؟

(الباشا) - مالى أراك قد شق الخوف قلبك ، وقطع العلم أنفاسك ، أيعتريك الخوف وأنت معى ، إن هذا العجيب منك !

(المسكاري) مستهيناً — العفو! العفو! مَنْ أَنْتَ وَمَنْ غَيْرُكَ ، ونحن في زمن الحربه لا فرق بين الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين المسكاري وبين الأمير .

(الباشا عيسى بن هشام) — ويحك هلم فاضربه أو دعني أقتله .

(عيسى بن هشام) — أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً ما دمت معي . وأعلم أنه لا تصدر منا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية » إلا والعقاب من ورثها ، فلا تمجب من طول صبري واحتمالي ، وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام : « إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » ، والطريقة للتخلص من سفاهة هذا السفية أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل الله أن يباغتنا ببتك بالسلامة .

(الباشا) — لا تعط هذا الكلب الفايح درهماً واحداً وقد أمرتك أن تضربه ، فإن لم تفعل فأنا أنزل إلى ضربه وتأديبه ، والقلاح لا يصلح جلده إلا بحبله .

قال عيسى بن هشام : ثم أمسك الباشا بعنق المسكاري وأوسع ضرباً ، وأخذ المسكاري يستغيث وينادي : يا « بوليس » يا « بوليس » ، وأنا أجتهد في إنقاذه من مخالبه ، وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم ، وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عقابه ، فأفقر الله أيها الأمير في عباد الله ، فما أتممت هذا القول حتى رأيت أنه اشتد به الغضب وتغلبت عليه الحدة فتغير وجهه ، وانقلبت حالته ، وتقلصت شفته واتسع منخره وصاقت جبهته ، تخفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بي مع المسكاري فتداركت أمري وقلت له : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل ، فأنت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة ، مثل هذه الحيفة . فسكنت بذلك من حديثه ، وعمدت إلى المسكاري فوضعت في يده درهماً على غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عنا ، فما ازداد اللئيم بذلك إلا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس .

(الباشا عيسى بن هشام) — ألم أقل لك أن القلاح لا يصلحه إلا الضرب ! ألم تعلم أن غاية ما ينتهي إليه أمره في رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء !

ولكن قل لي بالله : هل « بوليس » هذا الذى يتاديه ويستغيث به ولى جديد ؟
(عيسى بن هشام) — نعم إن هذا البوليس هو ولى الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة .
(الباشا) — لست أقمه هذا المعنى ، فأوضح لي حقيقة هذا البوليس .
(عيسى بن هشام) — هو « القواس » الذى تعرفه .
(الباشا) — وأين هذا « القواس » الذى لا يسمع النداء فأتى أرغب في حضوره
ليتلقي أمرى في هذا الشق .

(المسكارى) — يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) — هلم لمساعدته في نداء القواس .

قال عيسى بن هشام : فقلت في نفسي كيف أناذى البوليس ، وأنا أجد الله على سكونه
وسكونه ، وهو بقرعة منا لا يكثر بندااء المستغيث . ثم التفت إلى الباشا وقلت له : إن
البوليس هو الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياح أو نداء ، فإنه مشغول ببائع
الفاكهة كما ترى . ولما لمح المسكارى البوليس أمامه أسرع إليه وتبعه من تجمع حولنا
من النظارة ، فوجدوه واقفاً وفي يده مندبل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في
صباحه من باعة الأسواق في محافظته على « النظام » ، وهو لأم بصاحب الدكان يأمره
أن يضع في داخلها ما عرّضه في خارجها من « عيدان القصب » ، وفي يده عود منها
يهده به ويهزه في وجهه هزّة الرمح ، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلاً على كتف
امرأة ويناغيه ، حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمندبل في يده « وعود القصب »
في الأخرى .

(البوليس للجمع) — ما هذا الصياح في الصباح ، وما هذا النداء وما هذا النداء ،
كأن كل واحد من الأهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته !

(المسكارى) — أغثني « يا سعادة الجاويش » فإن هذا الرجل ضربي ولم يعطني
أجرتي ، وأنت تعرفني في هذا « الموقف » وتعرف أنني لست بمن يتشاجر أو يتخاصم .

(الباشا) - خذ أيها القواس هذا السفينة وضعه في السجن حتى يأتيك أمرى فيه .

(البوليس المكارى) - من أين ركب معك هذا الرجل « يا مرمى » ؟

(المكارى) - ركب معى من جهة « الإمام » .

(الباشا للبوليس) - ما هذا الإبطاء فى تنفيذ أمرى ! أشرح به إلى السجن .

(البوليس) ضاحكا هازئا - أظنك أيها الرجل من « مجازيب الحضرة » فى « الإمام »

هلم معى إلى القسم فإن هيتك تنبى عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة .

قال عيسى بن هشام : وجذب الشرطى صاحبه من ذراعه فكاد يفتى عليه من الدهشة

فلم يدر ما يصنع . وأودع البوليس ما كان فى يديه من العاكة وغيرها عند الرجل الذى

أودع المكارى حماره عنده ، وسار صاحبه مسجوبا بذراع الشرطى ، والمكارى خلفهما ،

والجمع على أثرهم إلى « القسم » . فلما وصلوا إليه وصعدوا الشلم بدأ المكارى يصرخ ويصيح ،

فقابلته أحد عساكر « المراسلة » فضر به ليسكته لأن « حضرة المعاون » غريق فى نومه ،

فدخلنا جميعا فى حجرة « الصول » لصبط الواقعة ، فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع

« طربوشه » وخلع نعليه وحل أزرا ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، أظهما من أقربائه ،

يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهى وسعة سلطانه على الكبير والصغير فى عاصمة

القطر وقاعدة الملاك ، وما فى قدرته من حبس أى شخص كائنا من كان وشهادته عليه بما

يجرى فى هواءه . فطردنا جميعا من الحجرة حتى ينتهى من طعامه ، فخرجنا ننتظر . وأراد

الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزن فخائنه يده فسقط فوق جندي

كان يكس الأرض هناك ، فأخذ الجندي فى السب والشتم ودخل إلى حجرة « الصول »

هاجما فقال له : إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدى على « فى أثناء تأدية وظيفتى »

فضربنى بكل جسمه . فأمر « الصول » باحضاره ونادى كاتبه العسكرى فطلب منه أن

يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة ، وأمل عليه كلاما مصطلحا عليه لم أفهم

منه حرفا . وبعد أن شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما يرفع المكارى

فى تأييد دعواه ، وشهد « الصول » نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يعتدى على أحد

عساكر القسم في أثناء تأدية وظيفته ، ختم الحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ إلى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » ، فجاء العسكري صاحب الدعوى وأخذ يمين صاحبه وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعاً من الأذى في مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول ، حتى إذا أفاق من غشيته التفت إلى يقول :

(الباشا) — أنا لا أتصور في هذه الحالة التي أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر ، أو أن أكون حياً في المنام ، أو أن يكون الدأوري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة .

(عيسى بن هشام) لا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى تخلص من هذه النازلة بسلام .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفنا أمام الكتاب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا : هل له من ضامن بضمنه ، فقد دمت نفسي لخصامته فلم يقلوا بي إلا بتصديق « شيخ الحارة » فخرت وأمرى ، ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال ؟ فأتاني بعض العساكر في أذني : أن اخرج فإنك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطاه عشرة قروش للتصديق على الضمانة . ولحقتني ذلك العسكري فدأبني على شيخ الحارة وتوسط بيننا في منازلة أجرة التصديق . ثم اشتغل عني عشاركة العساكر في ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخسروهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقادهم ، ثم ما لبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلاً نزل عليهم من السماء ، ووجدت من كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصاً على راحة للمعاون في منامه قد هجم على باب الحجر فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السريز هزاً عنيفاً ، فاستيقظ المعاون فرعاً وعلم أن « المفتش » قد شوه داخل من باب القسم ، فأمرع إلى ثيابه فلبسها في لحظة وهرب إلى استقباله ، فلما رآه وقف « ورقة النظام » . ولكن كان من نكدر طامعه أنه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل زرته جهة اليمين بل تركه فوق الجهة ، وكان التمر قد تجدد

في عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقه في يومه ، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل إلى الحجرة مُغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته في الزمى « للأوامر المستديرة » . ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة ، وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب ، وما شاهده من حركات المعاون ، سألني عن شأن هذا الداخل الذي أوثرت ذلك الانقلاب ، فأعلمته بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للتفتيش والتفتيش في « الأحوال » . والنظر في شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام . فقال : إذن اندخل إليه لتعرض عليه ما أصابنا من الإهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب في تقريره ، فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا ، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكر بإخراجنا من حضرته ، ثم رأيناه قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت في التفتيش والتفتيش للمعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج في أنحاء القسم إلى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين في شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكى عمال القسم إلى « النيابة » فدخل أحد العساكر إلى المعاون ليخبره بما يقول الرجل ، فوضعت أذني عند الباب فسمعت المعاون يحدث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ؟ ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن يحجزه في فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشى والحمقى ، ولو كان من « أولاد العرب » لأطلع على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » .

ثم التفت إلى العسكري وسمع منه ما ينقله إليهم من قول ذلك الرجل الذي عزم على الشكاية إلى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم ، فذهبت إلى المعاون وكنته فيه ليطلقه بعد ضمانتي له ، فأبى ذلك وقال لي بوجه عبوس : الأولي أن يبقى في القسم إلى الغد حتى يكشف على « السوابق » ثم يرسل من هنا إلى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين .

التياب

قال عيسى بن هشام : ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت إلى داري بث طول ليلتي في هم وأرق . وقضيت رقادي في اضطراب وقلق ، لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية ، وهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك ضي الزمن ولا يدري ما الحال ، ولا يعلم بتغيير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتي له لولا ما ذهبت به القضاء المحتوم فأوتعتنا فيما ألم بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأي عندي أن يبقى الرجل جاهلاً بالأمر حتى ينتهي من خطبه ويكون جهلاً بتغيير الأحوال قائماً بعذره في التخلص من محاكمته . ثم عقدت العزيمة على أني لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه ما لم يَرَ ، وأسمعه ما لم يسمع ، وأشرح له ما خفي عليه وغض من تاريخ العصر الحاضر ، لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلاته بالعصر الماضي ، ولأعلم أي المهدين أجل قدرأ وأعظم نفعا وما الفضل الذي يكون لأحدهما على الآخر . فبكرت إلى القسم في اليوم الثاني وملت معي ما يليق بصاحبي من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه ، فوجدت المسكرى يستعد به الذهاب إلى قلم « السوابق » في دار المحافظة ، فلما بصرت بي ناداني بقوله :

(الباشا) — ما هذه الخطوب والملمات ، قد كنت أظن أن ما وقع لي أمس كان لسخط ولي نعمتنا الداوري الأعظم وغضبه على عبده بكيدة كادها لي أعدائي أو فرية افتراها حشادي ، فلذلك صبرت لحكم الضرورة ، وامتنلت على تلك المورة . حتى أتمكن من التشرف بالأعتاب ، والمثول بين يدي مالك الرقاب ، فأزيل الشبهة وأتقن الريية وأبرأ له مما رماني به الساعى والواشي ، وأجلى له حقيقة عهودي وإخلاصي فيضاعف على رضاه لحسن ماقت به من الطاعة في احتمال هذا الهوان .

طال مني تحمل نخلت أني قابض من أذاتهِ فوق حجر

ثم إنى أحمد بعد ذلك إلى إفشاء المقاب ، عقاب القتل والصلاب في هؤلاء الأدياء السفهاء والأشقياء والأغبياء ، جزاء ما اجتروا عليهم في معاملتي واقترفوه من جهل منزلي ، ولكنني سمعت في الحبس — وياسوء ما سمعت — وعلمت — ويا شر ما علمت — أن الدول دالت والأحوال حالت . وأنكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان ، وفي حال من الغوضى يصح فيها قول ذلك المسكاري : « إنه هو والباشا في المنزلة سواء » وتلك التي :

نُصِمُ السميعَ وتعمى البصير ونُسألُ من مثلها العافية

فإلههم عفوكم وصفحك ، هل قامت القيامة وحان الحشر ، فانطوت المراتب وانحلت الرياسات ، ونسأوى العزيز بالذليل ، والكبير بالصغير والعظيم بالحقير ، والعبد بالمولى ، ولم يبق لفرشي على حبشي فضل ، ولا لأمير منا على مصري أمر . ذلك ما لا يكون ولا تحتله الغفنون . ثم اعلم أيها الرجل أن ذنب أوائك السفهاء فيما جنوه على لا يمد في جانب ذنبك عندي إلا كالخردلة من الصخر ، والقطرة من البحر ، لكتمانك على الأمر ، حتى دخلت في بلداً هذا حاله وذاك شأنه ، وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن .

(عيسى بن هشام) — إنما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله موسى للتخضر عليهما السلام : « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورتني التبلد والتحير ، ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبهك إلى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك ، وما كدت أتبه إلى تعريفك بها حتى ذهبت بذلك المسكاري وذهبت تلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت ، والعذر مقبول لديك ، فاصبر على ما نلاقه ، واحتمل ما أنت فيه . وتقبل القضاء بوجه الرضاء ، ولا تأمن على ما فات . لتكفر عن السيئات .

(العسكري للباشا) — هلم إلى « السوابق » .

(الباشا) — سبحان العزيز القادر ، أتركني قد زال عني يؤسى وانفزع نصي ورجع إلى عزى فجأوني بموكبي وخجلي .

(عيسى بن هشام) — ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافات ، والعتاق الصاهلات ، وإنما هو ديوان تقيّد فيه سحنة المتهم ورساياه . ويكشف فيه عما جنته يده .
(المسكري للبasha) وهو يسحبه — لا أطل في الكلام وأمشى معي ساكناً ساكناً
(الباشا) وهو يمتنع — ما الحيلة في القضاء ؟ وما العمل في المقدور ، وكيف الخلاص وأين النجاة ؟ ومن لي بالموت ثانية ليردني إلى راحة القبر ؟

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع — أقسمت عليك بدين القلعة ، وقوّع سيوفك في المعركة ، إلا ما قبلت نصيحتي وعملت بمشورتي ، فلا تمارض ولا تعاند فإن الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا في ملتنا إلا شدة . والعقل يرشدنا أن نسلم للأقدار حيث لا عمل ، وأن نلبس لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها .
(الباشا) ممثلاً — اللهم لا رأي مع القضاء .

قال عيسى بن هشام : ورسرنا مع المسكري فوصلنا إلى « قلم السوابق وتحقيق الشخصية » فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع له القلوب وتشيب منه الفواصي ، فجردوه من ثيابه وخصوا بدنه عضواً عضواً ، وقاسوا وجهه وجسده وحدقوا في عينيه ، وصنعوا به ما صنعوا ، وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجذبوا له ضماناً ، لأنّ المعاون قاتله الله ردّ شيخ الحارة عن التصديق على ضمانته ليحجز له الحبس ، فأرسلونا مع المسكري إلى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا معه قضايا جمة ، وأصحابها مزدحمون ينتظرون نوبتهم ، فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضاً ، والتفت إلى صاحبي يسأل ويستفهم .
(الباشا) — أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام ؟

(عيسى بن هشام) — نحن أمام النيابة ، وهذا عضو النيابة ، وهؤلاء أرباب الدعاوى .
(الباشا) — وما النيابة ؟

(عيسى بن هشام) — النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية ، والغرض من إنشائها ألا تبقى

جريمة بلا عقوبة ، ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براعة البريء .

(الباشا) - وما « الهيئة الاجتماعية » التي تنوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الأمة .

(الباشا) - ومن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الأمة عليه لينوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراه بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه إلى المدارس فقال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال .

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة ، وللشهيد في الجنة أعلى الدرجات ، ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقد غموا - أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس ؟ والذي يفوق ذلك محباً ويزيد العقل خيالاً أن يحكم الناس فلأح وينوب عن الأمة حراث ! ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى شدة وانتهيت من خطب إلى خطب فسلمت وصبرت ، ولكن لا صبر لي على هذه الخارقة . فما أعظم الفاجعة وأشق النازلة ، لقد قني مني الصبر . ومن لي بفناء القبر ؟

(عيسى بن هشام) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد ، بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك في بعض الأحيان .

(الباشا) - مع ذلك تريد الإجازة التي يهبها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ما سمعنا في دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما القرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات .

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بعلم الأزهر ، ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها في بلاد الإفرنج . والفرنك عملة تلك البلاد ، ويقال لفلان القيمة عندهم رسم الشهادة ، وهي قيمة لا تذكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام « أن الشهادة بلا علم

خير من العلم بلا شهادة» ، وصاحبُ الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب وظيفته يزيد على الدوام ويرتقي .

(الباشا) — الآن كدت أفهم ، وأظن هذه الشهادة تعادل «أوراق الالتزام» و «سراكي الروزنامج» في أيام حكومتنا .

قال عيسى بن هشام : وبينما نحن في هذا الحديث إذا بشاين رشيقين رقيقين قد أقبلا بخطران في مشيتهما والطبيب ينتشر في الجو من أردانهما ، وهما بصعران^(١) خديهما كبيراً واختيالاً ، ولا يلتفتان إلى من حولهما تيهاً وإعجاباً ، أحدهما يشق الهواء بمصاه ، والثاني تلعب «بالنظارة» يدها . فشخصت إليهما الأنظار ، وتحولت نحوهما الأبصار ؛ والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقتهما ، حتى وصلا إلى باب النائب ، فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته ، واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم ، وطردهم ونهرهم ؛ واشتغل النائب بغيري المخاض ورفع المخابر ، حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل .

(الباشا لعيسى بن هشام) — يظهر لي أن هذين الشاين من أكبر أولاد الأبراء أو انهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم .

(عيسى بن هشام) — ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب في المدرسة كما يظهر لي من شمائلهما .

(الباشا) — وهذا أعجب وأعجب !

قال عيسى بن هشام : وأردت أن أخبر خبرهما وأكشف أمرهما ، فاتهمزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم ، فانزويت عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى ، فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل

أن ينتهي اللعب ؟

(١) صر خده : أماله تكبراً

(النائب) — لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندى من القضايا ما يضطرنى إلى التبكير .

(الزائر الثانى) — وهل سمع أحد أن القضايا تموق الإنسان ، عن محاسبة الإخوان . ومثل هذا العذرُ يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها . أو لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة . وأخص بالذكر منهم فلاناً فإنه يكتفى بأن يمر عليها باحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكب على توقد ذهنه ونباهه قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بقرينيهما . وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق بعده وتصميم الوقت سدى فيما عساه أن يؤلف الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى .

(النائب) — ذلك ما أفعله ، ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر والأصول » على قدر الإمكان .

(الزائر الأول) — أفأعندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك وبكفيته .

(النائب) — صدقت إن الكاتب ليكفى . والقول الصحيح أن السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ونحن لا نزال فى أوائله . (الزائر الأول) — تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائماً مهما ربحت ومهما كسبت ، وما سمعت منك فى عمرى إلا أنك خسرت . أفلم ترحب منى فى « اليد الأخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات ؟

(النائب) — وحق شرفى وذمتى ومستقبلى أنى قتت من عندكم أمس بالخسارة .

(الزائر الثانى) — ما علينا . ولكن قل لى : هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه إلى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة ؟

(النائب) — أسألك المسامحة فإنه لا يمكننى ذلك ، أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى ، وثانياً لأنى دعوت « مادموازيل فلانة » الشخصية فى

« الأوبرا » مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغذاء في الأربكية عند « سانتى » ،
وسنذهب بعد ذلك إلى « خان الخليلي » و « قصبة رضوان » و « مقابر الخلفاء » وبعض
الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى .

(الزائر الأول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شيء ، فكيف لك
بما يلزم لمثل هذا من النفقات ؟

(النائب) — فانتى أن أذكر لك أن معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبه العمدة .
(الزائر الثانى) — وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الأفرجى أو
يستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الأوربية .

(النائب) — ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لأهل القضاء . وأمنية
العالم أن يتحكك بنا . والرغبة عند أمثالها عظيمة فى حضور المجالس الأورجية وإن
كلهم ذلك ما كلهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم ؟

(الزائر الأول) مقتضياً — من أين اشتريت هذا « الكرافات » (رباط الرقبة) ؟
(النائب) — ما اشتريته يا « مونشير » (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند
الخياط فى باريس وهو من آخر طرز .

(الزائر الثانى) — هل بلغت زواج فلان بمشوقته ؟
(الزائر الأول) — هل ركب مع فلان فى « الأتوموبيل » ؟
(النائب) — قد وقفت لك على سبب انتحار ابن فلان المتمول .
(الزائر الأول) — أنا أعرفه ، فهو الغرام .

(النائب) — لا .
(الزائر) — المال ؟
(النائب) — لا .
(الزائر) — المرض ؟
(النائب) — لا . وإنما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها .

(الزائر الأول) — وأنا وقفت اسكاً على سبب استعفاء فلان من وظيفته .

(النائب) — سيرته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — وظيفته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — فرنسيته ؟

(الزائر) — لا . وإنما هي « انكليزيتة » .

المحامى الأهلى

قال عيسى بن هشام : فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث القلتضب واشتهرت دخول الحاجب ، فخرجت من مكى وعدت إلى الباشا صاحبى فوجدت بجانبه أحد ممامرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره . فوقفت عن بُعد أسمع ما يدور بينهما :

(السمسار) — اعلم أن المحامى يدبر القضاء فى يده بما يريد ، فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء ، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع وإشارته ، وrehن كلمته وكأنه فى إصبعه ، فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء إلا بأمره . وأنت ، على ما أراك ، رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ، ولا يليق بالمرومة أن أدعك طعمة فى أيدي بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق القس والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة ، وله مقام سام بين القضاة والحكام ، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل « البرنس » . لو شاهدته يا سيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ، ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأفس وأوقات السرور ، إشار بهم ويؤاكلهم ويمزحهم ويفاكهم وينظرهم ويقامرهم ، لأيقنت فى الحال أن كل طالب له إيجاب ، وليس لأمره من راد ، فالجزم برى والبرى جان على حسب المراد . فقل لى حينئذ عن مقدار ما أستطيع دفعه من « مقدم الأتعاب » فى تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك (الباشا) — أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى أضغه لى فإذا استغفمت عنه

(السمسار) مقاطعاً — لا لزوم للاستغفار من أحد ، فما هو ذا حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فأننا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك .
(ويسرع السمسار لمكالمة المحامى بعد أن يوضع له فى الطريق ويسلم عليه بسلام الأمرأ حتى يصل به إلى جانب الباشا) .

(الحامى) بصوت عالٍ — أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد في هذه الأيام
لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا ، فلم يبق عندى وقت للطعام والشراب ، فكيف تكلفنى أن
أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس
قضايا لها شأن عظيم .

(السمسار) — سألتك بحق الإنسانية وحرمة المروءة وبما جبلت عليه من الخوف
والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية إن لم تتنازل
لمباشرتها بنفسك فإن المقصود هو تأخير اسمك وصيتك فى المحكمة .

(الحامى) — لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك . (ويتصرف
الحامى بعد مصاحبته للباشا) .

(السمسار للباشا) — هلم فادفع عشرين جنياً .

(الباشا) — ليس عندى الآن شئ من الدراهم .

(السمسار) — أعطنى تجوياً .

(الباشا) — أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعاً .

(السمسار) — كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة الحامى أمامى ؟

(الباشا) — أنا لم أوافق مع أحد فاتركنى وانصرف .

(السمسار) — كيف تنكر اتفاقك مع الحامى بعد أن وضعت يدك فى يده .

(الباشا) — عفوك اللهم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال . أشرت بيدي

فى حديثى مع صاحبي ، فوقعت فى حادثة المكارى . وصالحت الحامى ، فصرت مديناً
بمشرين جنياً . ففى أى العوالم أنا ، وبين أى الخلوقات !

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع
مع السمسار فى حادثة أخرى ، فأدركته ووبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورفع
الأمر إلى النائب العمومى إن لم ينته عنا ، فخلعنا وانصرف . ونادى الحاجب أرباب القضايا

فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهياً في حديثه مع زائريه ، وأشار لنا بالتقدم إلى الكاتب ، فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية وبيان ما قاسيناه من سوءاملة البوليس وقبح افتراءه ، فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاماً في البوليس ولا تسمع فيه طعناً بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي : الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي المدافعة عنك .

(الياشا) — قل لي بالله ما هو المحامي عندهم ؟

(عيسى بن هشام) — هو وكيل الحكم والمحاسبة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ، ويدافع عنك بما لم تعلمه ، ويشهد لك بما لم يخطر ببالك ، وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ، ولكن قد دخل في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامي وممساره ، وهؤلاء بينهم هم الذين يعينهم علاه الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا إلا شياطين أولو بأس
قوم غدا شرهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناس

المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام : ولما حلّ يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا في صاحبها أقواماً ذوي وجوه مُسْكَنَهَرَّة . وألوان مُصْفَرَّة . وأنفاس مقطوعة . وأكف مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يذكر . وحقاً ينكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهداً يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبد . ومحامياً يستعد . وأماً تنوح . وطفلاً يصيح . وفئة تلهف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا الفاظاً متناقضة ، وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميين ، عن الخصمين . يشجد كل منهما لسانه . ويقدم حفاة . استعداداً للترال . في ميادين القتال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . أخرج كلاهما بفنسية البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجرم . فانزويت بصاحبي ومحاميي بجاني يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » وظروفاً وأحوالاً . وشروحاً وأقوالاً . ومواد وفقرات . في الجنج والخالفات . ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفتره . ويقسم لنا بوكيد الأيمان . أن الباشا من تهمته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألتني عن هذه للمحكمة ، قلت له هي المحكمة .

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير ما أرى ، فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب ؟

(عيسى بن هشام) — هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية .

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية ؟

(عيسى بن هشام) — للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكم متعددة ومجالس متنوعة ، فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم الفصلية دع المحكمة المختصة .

(الباشا) — ما هذا الخلط ، وما هذا الخبط ؟ وسبحان الله ! هل أصبح المصريون فرقاً وأحزاباً . وقبائل وأفخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى

جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الفراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان .

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر على ما تتوهم وتتمخيل ، فلم يتفرق المصريون فرقاً ، ولم يتوزعوا شعباً ، بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم ، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً .

أما المحاكم الشرعية فقد جرّدت من النظر والحكم في عامة الخصومات واقتصرت العمل فيها على الأحوال الشخصية ؛ أعني مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب .

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام . وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه ، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله :

قد نُسَخَ الشرعُ في زمانهمُ فليتهم مثل شرعهم نُسِخُوا

(عيسى بن هشام) — لم يُدَسَخَ الشرع ولم يرتفع حكمه ، بل هو باقٍ على الدهر ما بقي في العالم إنصاف وفي الأمم عدل . ولكنه كثر أهله أهله ، ودرة أغفلها تجارها ، فلم يلتفتوا إلى وجوه تشديده وتمكينه ، ونسكوا بالفروع دون الأصول ، واستغنوا عن اللب بالغشور ، واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور ، وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة ، وتركوا الحقيقة إلى الخيال ، وتعدوا الممكن إلى المحال ، فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والخبر الفهامة منهم أن يُبدع في التفنن اللاغراض في الحق الأبايح ، والنهقيد في الحنفيّة السمحة ، ولم ينتهوا يوماً إلى ما تجرى به أحكام الزمن في دورته ، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم المصلحة بين الناس ، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزون ولا يتحلقون ، معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف ، وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن ، فلا أمل فيه ولا عمل ، فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن المقد وقلة الغداء فيه

لإنصاف الناس في معاشهم ومرافقتهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور . ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية .

(الباشا) — ما أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في الدين عذر واضح في النزول إلى هذه الحالة السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع ، أو أجور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر . فصدّهم عن سواء السبيل ، وأرعاهم هذا المرعى الوبيل .

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق ، فالإرادات مختارة ، والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة . وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارئ الحدّثان ، ولكنه فساد في التربية عم أمره وانتشر ، وانحطاط في الأخلاق عظم بلاؤه واشتهر ، سكنت إليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم ، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ، ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن ، واستولى على قلوبهم الجبن والخور ، وعلى عقولهم الضعف والخبل ، وعلى نفوسهم الفتور والكسل ، فوصلوا إلى الحال التي يرون بها السفة بدعة ، والبدعة سنة ، والفضيلة نقيصة ، والنقيصة فضيلة ، وأقاموا ينصفون في الحكم ولا ينصفون . ويتفكّهون في الدين ولا يتفقهون . وصرّفهم حب المال ، عن صالح الأعمال . وألهاهم ما يدّخرونه من زخرف الحياة الدنيا ، عما يدّخر لهم في الدار الأخرى . فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا ، منا الأثم والوزر ، وعلينا الذنب والإصر . وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يقضى على الرعية اليوم في جميع الخصومات طبقاً لنص القانون .

(الباشا) — « القانون الهابوني » ؟

(عيسى بن هشام) — القانون « الإمبراطوري » .

(الباشا) — ما عهدت منك أن تعجم وتبهم

(عيسى بن هشام) — لا إجمام ولا إبهام ، فهو قانون نابليون إمبراطور الفرنسيين .

(الباشا) - وهل عاد الفرنسيين فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى ؟

(عيسى بن هشام) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم فاحتارنا قانونهم

ليقوم عندنا مقام شرعنا .

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة

المطهرة ، وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله ؟

(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خلاف . فالإجماع تام عند علماء الشريعة في السر

والنجوى ، على أنه مخالف للشرع ، وأن كل من يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة :

« وَمَنْ أَمَرَ بِحُكْمٍ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . » ولكن يظهر أنه مطابق

عندهم للشرع ، في حالة الجهر والعلن ، بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر هذا القانون ،

وهو يومئذ مفتى نظارة الحفانية ، فقد أقسم الأيمان المعلقة على فتواه التي أفتاها بأن هذا

القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الإسلامى . وإن كان لا عقاب في هذا القانون على

الفسق واللاواط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمره الثانية عشرة يوماً واحد ، ولا عقاب

فيه على من يزنى بأمة إذ هي رضية وكانت غير متزوجة ؛ وهو الذى يعد الأخ مجرمًا

جانبياً إذا تعرض للحياة عرض أخته والمدافعة عنه ، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها ؛

وهو الذى لا يعاقب الزوج إذا سرق من إمرأته ، ولا المرأة من زوجها ، ولا الولد من أبيه

ولا الأب من ابنه .

وأما المحاكم المختلطة - وقضايتها من الأجانب - فهي تختص بالنظر فيما يقع من

الخصومات بين الأهالى والأجانب ، وبين الأجانب وبعضهم في الحقوق المدنية ، أعنى في

قضايا المال . ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالنفى لسميتهم وجدتهم ، وكان المصريون

أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيتهم ، كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بد

أن تنتهى لسلخ المصرى من ماله وعقاره .

وأما المجالس التأديبية ، فهي تختص بالنظر في عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته

- وهي تتألف في الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه - وحدثها في المقاب الوقت

والحرمان من المعاش ؛ وما بقي من درجات العقاب ، فالنظر راجع فيه إلى المحاكم الأهلية .
وأما المجالس الإدارية ، فهي تختص بعقاب من يخالف اللوائح والأوامر والمنشورات ،
وشرح ذلك يطول .

وأما المحاكم العسكرية ، فهي تختص بالنظر في عقاب المتهمين من الضباط والجنود ،
وتحكم أيضاً على الأهالي في مسائل القرعة وما شاكلها .

وأما المحاكم القنصلية ، فهي تختص بالنظر في الجناح التي تقع من الأجنبي على المصري ،
ومن الأجنبي على الأجنبي من جنس واحد ؛ فإذا وقعت جناية من أجنبي على مصري
فليس لها في مصر من حكم أو عقاب ، ولا تختص أى محكمة من هذه المحاكم التي عدتها
لك بالنظر فيها ، بل يرتد الجاني بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه ، فينظر قضاته
هناك في أمره ، والغالب في مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعالم معلومة مثل :
« عدم ثبوتهم بمحقق البوليس المصري ، وضياح معالم القضية ، وعدم توفر الشهود . »

وأما المحكمة الخاصة ، فهي تختص بمعاينة الأهالي عند تعديهم على الجنود الأجنبية .
(الباشا) — ما زلت تسمعي الغريب ، وتفهمي غير مفهوم ، ومن أعجب ما سمعت
أن المصري يتعدى على الجندي .

قال عيسى بن هشام : ودينا نحن في هذا الحديث إذا ارتجج المكان ، وتماوج الزحام ،
وأقبل القاضي ، وهو في عنقوان شبابه ، وصبا أيامه ، يتألق وجهه حسناً ، ويشاكل في
القد غصناً ، وكأنه طائر في مشيئه ، من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ، ذهب أسأل
عن نوبة القضية ، ثم عدت إلى صاحبي ، ومكثنا في الانتظار زمناً طويلاً إلى أن جاء
وقتنا ، ونودي الباشا ، فدخل مع المحامي في الجلسة ، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم
بمقتضى مادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية »
في أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة ٣٤٦ مخالفات لتعديه على الكارتي بالإيذاء الخفيف .

(القاضي) لهم — هل فعلت هذه النهمة ؟

(المتهم) - لم أفعَل .

قال عيسى بن هشام : وجاءوا بي شاهداً ، فسألني القاضي عما أعلمه في هذه الواقعة فأجبتُه :

(عيسى بن هشام) - إن هذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي أنه

(القاضي) مقاطعاً - لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية ، قل لي « معلوماتك » فيها

(عيسى بن هشام) - « معلوماتي » هي أنني كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجر

أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . .

(القاضي) مستثلاً - لا لزوم لكثرة الكلام ، أجبتُ عن النقطة التي سألتك

عنها فقط .

(عيسى بن هشام) - ذلك ما أعلمه من حكاية الواقع ، وهو أني رأيت رجلاً خرج من ..

(القاضي) متعللاً - قلت لك إنني لا أقبل التطويل ولا الشرح في الواقعة ، ولكن

هل ضرب المتهم العسكريّ والحمار ؟

(عيسى بن هشام) - ما ضرب المتهم الحمار ، وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه ،

وما ضرب العسكريّ ، وإنما سقط عليه مما غشيّه بغير عمد ولا قصد ، وهو يجهل . . .

(القاضي) - يكنى ، يكنى ، هلم « النيابة » .

(النائب) - إن هذا الباشا متهم بتعمديه بالضرب على أحد رجال البوليس في أثناء

تأدية وظيفته بالناسم ، ومتهم بالتعمدي بالإيذاء على « مرمى » الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة

الشهود التي في الأوراق . وإطلاع المحكمة عليها كافٍ ، وبناء عليه النيابة تطلب الحكم

على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات ، وتطلب

من عدالة المحكمة التشديد في العقوبة ، لأن حالة المتهم تستدعي ذلك ، فإنه يتخيل أن رتبته

تجعله خارجاً عن سلطة القانون ، وتخوله الحق في اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنًا ،

فيؤدّبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ، ولا شك أن تشديد العقوبة عليه

واجب ، لاعتبار أمثاله به ، وللمساواة في العدالة ، وأفوض الأمر إلى المحكمة .

(القاضي) للمحامي — المحاماة ، مع الاختصار .

(الحامي) بعد أن يتجنح ويقلب في أوراقه — إننا نتعجب من أن النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين ، ونقول إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضي في وضع الشرائع والقوانين في هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه . . .

(القاضي) مشمئزاً — اختصر يا حضرة المحامي وادخل في الموضوع .

(الحامي) — . . . ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضي في طبقات الهيئة الاجتماعية يقضي . . .

(القاضي) — متضجراً — اختصر يا بك .

(الحامي) — الموضوع يقتضي ذلك .

(القاضي) متأففاً — لا لزوم له .

(الحامي) متعجباً — قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أفوالها) ونحن نقول إننا لو سمحنا جديلاً . .

(القاضي) مقضباً — يكفي يا بك ، الموضوع .

(الحامي) متلعثماً مضطرباً — إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدي القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم ، وله حديث منشور في الجرائد — وهذه أعداد جريدة « مصباح الشرق » تطلعون عليها — وقد اعترضه في طريقه أحد المكارين ، فدفعه عن نفسه ، والناس يعلمون إلحاح الحمار وسوء أدبهم ، ومثل هذه الطبقات التي ليس فيها تربية . . .

(القاضي) نفذاً صبره — قلنا اختصر يا بك .

(الحامي) وهو يتصبب عرقاً — . . . ولما توجه المتهم إلى القسم أغشى عليه ، فسقط بدون تعمد على عسكري كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضي بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس ، ولا عقاب على المتهم البتة ، لأنه كان في عصر غير عصرنا ، وفي نظام خلاف نظامنا ، ولم تبلغه دعوة القانون ، فهو يجهل أحكامه ، وحضرة القاضي الفاضل أدري بالأحوال . وإن . . .

(القاضي) منفصلاً ضارباً بيده على المكتبة — المحكمة تنووت يا بك ، ولا لزوم للكلام مطلقاً ، فهلم طلباتك .

(الحامي) ساخطاً في نفسه — طلباتنا هي « أننا نطلب من باب أصلي : الحكم ببراءة المتهم ، وإن رأيت المحكمة غير ذلك ، فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ عقوبات » . قال عيسى بن هشام : وبعد ذلك نطق القاضي بالحكم ، فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات ، وخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من الخلفات . فضاقت الأرض بي ، وأظلمت الدنيا في عيني ، وكدت أشترك مع صاحبي في الدهول والإغماء ، لولا أن الحامي أكد لي كل التأكيده أنه لا يد من البراءة في محكمة الاستئناف ، لعدالة رجالها ، ولكن يجب مع ذلك أن نرفع عريضة شكوى إلى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف ، ثم قال لي : اعلم أن السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة واللعاكسة والاستمجال هو لأنه مدعو في وليمة بعض رفاقه عند الظهر تماماً ، وأمامه في جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتي عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد .

وأطعنا إشارة الحامي ، فقدمنا عريضة إلى « لجنة المراقبة » ، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم في أمرها ، تنحى عن استصحابنا ، وقال إنه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ، ولكن يمنعه أن يعلم القاضي بسميه في التظلم منه ، فيتعهد في المستقبل أذاه ، وينصرف همه إلى نكايته ، بسبب شكايته ، والحامي في حاجة دائمة إلى اجتلاب رضا القاضي ، واجتناب غضبه . فقبلتُ عذره ، ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال ، فأعرض ونأى بجانيه ، وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويبلغ في الامتناع بقوله :

(الباشا) — يكفي ما قد وصلت إليه من الدل والهوان ، وما قاسيته من نزول القدر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء ، وأنا أربأ بنفسي أن يجتمع عليها ذلّان في سلك واحد ، ذلّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور ، وذلّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عني لا تكن عوناً للخطوب ، ومفتاحاً للكروب ، وصدق ابن يعقوب : « رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ

إِلَىٰ تِمَّا يَدْعُو تَنفِي إِلَيْهِ . ويعلم الله لولا عذاب النار ، لفرجت عن همى بالانتمجار ، وبودى لو يبدل حكم الحبس بالإعدام ، لأخلص من هذه الأوصاب والآلام ، وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والأمراء ، وإنما هو يجري عندنا في عقاب القوغاء من الناس والسفلة من العامة ، وللأمراء الامتياز على كل حال ، فإن كان ثمّ لنا عقاب ، فضرّب الرقاب ، وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون .

(عيسى بن هشام) — ما كنت أعهد من مثلك هذا الجرع والفرع ، ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع ، وأنت البطل الجرى والشجاع المقدم . وما الشجاعة إلا في التصبر على المكروه والتجمل للخطوب ، تتلقاها بوجه طلق وصدر رحب ، وترقب الفرع منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

وأنت عندى الحازم الأرشد ، والعافل المسدد ، وما العقل إلا نفاذ الرأى في كشف اللبّة ، وتسديد الحيلة في إزاحة الغمّة ، وأمامنا اليوم طرق مسنونة ، ووسائل مشروعة ، لا غضاضة علينا في ولوجها ، ولا مضاضة في سلوكها . واعلم أن تبدل الأزمان ، وتقلب الحدّثان ، يغير من مبادئ الأمور ، ويكيّف في اعتبار الأشياء ، فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر في انقذ رذيلة ، وما كان يعدّه الناس في الزمن الماضي نقيصة يعدونه في الحاضر كالألّا . وإن كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السعوط والمنعة ، ويقوم ركّنه على اليأس والبطش ، فإن الشرف اليوم كل الشرف في الاستكانة الأحكام والخضوع لقانون . فهلمّ أسلك سبيله ، وتأخذ طريقه ، عسانا أن ننتهى بالخلوص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل الإنسان نظام الأحكام في البلد الذى اتخذه داراً واختاره مقاماً .

(الباشا) — لَظِعُمُ الْمَوْتُ الرُّؤُومُ^(١) ، أهونُ من هذا الكلام . وللشرب من حميم أن^(٢) أثر من احتمال هذا الهوان .

(١) الموت الرؤوم : السكره أو المجهر . (٢) الحميم : الماء الحار . وأن : شديد الحرارة .

قال عيسى بن هشام : فاعتلت على وجوه الآراء ، في صرف صاحبي عن الامتناع والإباء ، وكدت أبأس من بلوغ الغاية ، في باب النصيحة والهداية ، لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى في طريقنا بصوت تكبير ، دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم !! الأهرام وبصر !!

الأربعة بقرش

(الباشا) — ماذا أسمع من الأعاجيب ! أصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع في الأسواق بالمزاد ؟

قد اختل الأنام بغير شك فبيحوا في الزمان أو العبود

(عيسى بن هشام) — ما هي بالآثار ولا بالبلاد ، ولست بها أسماء انتحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية :

(الباشا) — لعلك تعني « جرائد الصياغة ويومياتهم » أو « جرائد الالتزام » ولكن ما وجه هذه التسمية ؟

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر كما ذهبت إليه ، ولكن الجرائد هي أوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُمرّد فيها الأخبار والروايات العامة ، ليطلع الناس على أحوال الناس ، وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إليها منها فيما انتقل ، والأصل في وضعها انتشار الحمد للفضيلة ، والذم للردية ، والتقدُّ على ما قبح من الأعمال ، والحثُّ على ما حسن من الأفعال ، والتنبيه على مواضع الخلل ، والتحريض على إصلاح الزلل ، وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النافذة عنها حتى لا تجرى بها إلى غير المصلحة ، وتعريف الحكومة بمحاجات الأمة لتسعى في قضائها ، وبالجملة فإن أصحابها هم في مقام الأمرين المعروف ، والناهين عن المنكر ، الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم .

(الباشا) — قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القليل يقال له « غازيته » ، وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها « رُوزنامه وقائع » ، وأخرى بالعربية اسمها

« الوقائع المصرية » ، تُدَوَّنُ فيها المدائح والتهاني ، ويُذكر فيها انتقال الركاب العلى .
ولسكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم ، فلا بد أن يكون قد اشتغل بها
واهتم بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ، وأئمة الوسيلة ، وحسنت
الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم ، وينفعهم في معادهم . فعلى واحدة منها .
(عيسى بن هشام) — علمائنا ومشايخنا ، يغفر الله لهم ، هم أبعد الناس عن اجتياز
هذه الطريق ، وممارسة هذه الصناعة ، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ، ويعتبرونه
فضولاً تنهى عنه الشريعة ، وتداخل فيها لا يسنى ، فلا يأبهون بها ، وربما اختلفوا في
كراهة الاطلاع عليها أو بإحتمال . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم ، فيهم الفاضل
وغير الفاضل ، واتخذها بعضهم حرفة للتميش بها ، والتكفف على أية حالة كانت ، فلا
تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الأسواق فرقاً في النفس والخلع والكذب والنفاق
والسكر والاحتيال للاستغلال والاعتيال .

تعمروا موضع التصنع فيهم ومكان الإخلاص منهم خراباً

فذهب منها الغرض المقصود ، وسقط شأنها بين العامة ، بعد أن سفل قدرها عند الخاصة ،
وأصبح ما كان يُرْحَى فيها من النفع دون ما نجلبه من الضرر . ومن العقلاء من لا يزال
يرجو من الأيام أن تدور يوماً بتهديب هذه الحال ، ورفع هذه الصناعة إلى الدرجة الثالثة
بها من الشرف وعلو القدر . والحكم كله للقارئ في الإقبال على ما ينفع ، والانصراف
عما يضر ، « فأما الزبدُ فيذهب جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض » .
ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعمائة ، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبي نفعاً من أخبارها
فوقع نظري فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين ، فأسمته ما جاء فيه
من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه ، واستدراار الدموع لما يلاقيه
هذا الغلام من ضيق السجن ، وهو من سلالة الولاة والأمراء . ثم قلت له بعد أن انتهيت
من أقوال الجزيدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) — أنظر أيها الباشا كيف وصات بنا الحال في المساواة ، وقد
علت ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم الحاكم عليه ، فكيف تترفع

نفسك بعد ذلك ، وتأبى الخضوع للقانون ، والامتناع لأحكامه ، والتوسل بظرة للخلاص مما وقعت فيه .

(الباشا) — ما « البرنس » ومن أحمد سيف الدين ؟

(عيسى بن هشام) — أما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب « إمبراطور » ، ثم صار يُطلق بعده في أوروبا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة ، ويُطلقه اليوم على أعضاء « العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً ، وإن كان لا ذِكر له بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية . وأما أحمد سيف الدين هذا ، فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن محمد على جد الأسرة الخديوية وعميدها ، وقد ارتكب جنابة فسحبه إلى المحاكم ، واستحق العقاب الذي يقضى به القانون ، فحكب عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين ، فاستأنف يلتمس الشفقة والرافة من قضاة الاستئناف ، فأنقصوا المدة إلى خمس ، ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام ، فلم تُعفه . وقد انصرفت المساعي لانفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه ، وذهبت أمه يميناً وشمالاً ، فلم تُبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ، ولكن لا وسيلة مع القانون ، فان سيفه ماضٍ في كل الرقاب ، وسلطانه نافذ في كل الروس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم ، وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » أو « محكمة الاستئناف » ، وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت ؟

(الباشا) — نعم كيف لا نخرّ الجبال الشم ، إذا استنزلوا منها الأراوى العصم ^(١) . وكيف لا تنشق القبور ، وينفخ في الصور ، وقد انحلّ المقام ، وسفل القدر ، وحققت كلمة ربك على مصر : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا » ، وما دام حفيد محمد على في السجن على ما تروى ، يخضع لحكم القانون ، ويتوسل بتلك الوسائل ، وتشفع أمه بتلك الشفاعات ، فما على من عار فيها تدعوني إليه ، فاذهب بي إلى حيث تريد ، وليتهم كانوا يقبلون مني أن أكون فدائ لابن سادتي وأولياء نعمتي ، فتضاف عقوبته إلى عقوبي .

(١) الأراوى : جمع أروية وهو الوعل . والأعصم : ما في ذراعيه يابض وسائر أسود .

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام : فسرتني من الباشا مطاوعته إيتاي ، وقبوله لنصيحتي ، ورضي بالتوجه إلى نظارة الحفانية ، فسار معي ، وهو محتقق بدمعه ، متمتع بقدمه . ولما وصلنا إليها ، قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهمنا بالدخول في حجرة المفتشين ، فنعنا الحاجب وطلب منا « الكارت » .

(الباشا) مستهتماً — ما معنى هذا اللفظ الأعجبي ؟

(عيسى بن هشام) — « الكارت » بطاقة صغيرة يطبع عليها الاسم والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المتزور بالخيار في قبول الزيارة أو التملص منها .

(الباشا) — لقد كانت أبواب التنظيم مفتوحة في أيامنا لكل من يطرقها . وكيف ينطبق هذا التصديق على ما تصفه لي من المساواة في الحقوق والإنصاف في الأحكام ؟

(عيسى بن هشام) — لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل ، أو من حاجة صاحب حاجة ، فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم .

(الباشا) — ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصد من ذكرت عن الدنومهم والتجرو عليهم ؟

قال عيسى بن هشام : وبادرت إلى القلم فكتبت ورقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب . فجاءنا بعد الانتظار بالإذن ، فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أبجل الفتيان ، قد أرسل لحيته قبل الأوان ، يتموج تحتها ماء الشباب ، كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب ، رأيت في يده جريدة حساب ، يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها ، ثم يضع يده على جبهته ، كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته ، وعن يمينه كتاب أعجمي ، وعن شماله كتاب عربي ، فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسي الملحد ، وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحّد . ولما تقدمنا نحوه سألتنا عن حاجتنا ، فذكرت له العريضة

التي قدمناها ، وقصصت عليه القصة ، وشرحت له ما عاملنا به القاضى من سوء المقاطعة ،
فى الشهادة والمرافعة ، وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله :

(الباشا) — وأدهى ما فى القضية وأمر ما فى الأمر أن الذى تسمونه « النائب » اعتبر
رتبتي سبباً لإهانتى ، وما كنت أنخيل فى الأحلام أن الرتبة التى نلتها باقتحام الأخطار
واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر ، وبرهاناً قاطعاً لديه فى تشييد دعواه يطالب به
تشديد العقوبة ، فقولوا لى بالله : متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب
والانتقام ، ومن أى صنف أتم بين صنوف الأنام .

قال عيسى بن هشام : ودخل أحد الزائرين فى هذه الأثناء ، فمدت الله على انقطاع
الكلام بسبب دخوله ، وإلا فقد كان الباشا اندفع فيه ، بما يتعذر تلافيه . وبعد أن
سلم الزائر ، سأل عما حدث من الأخبار ، فى وجه النهار . فذاوله المفتش خطبة يتفكه
بقراءتها ، بعد أن بالغ له فى بلاغتها . وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين
من الأجانب ، فأطلعه على رسم فى ورقة زعم أنه نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها
الخصام ، واحتد الجدال ، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ، ثم تخلص منه للاشتغال
بأمرنا ، فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه ، وختم
كلامه بقوله :

(المفتش) للباشا — قد أطلعت على ظروف القضية كلها فى « مصباح الشرق » ،
فأما القاضى فقد يكون له العذر فى مقاطعة المحامى ، لأن منهم من اعتاد أن يأتى فى
مرافعاته بقاريخ نشأة الخليفة ، وتكوين الجمعية البشرية ، وما يجرى هذا الجرى مما يطول
شرحه ، ويمل سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بمجهر القضية ، وهم يستعملون ذلك
فى أيسر القضايا وأدناها ، ليقنع صاحب القضية أن المحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال فى
الدفاع عنه ، يقطع النظر فى ربح القضية أو خسرتها . فترى أرباب القضايا يمتقدون أن
المحامى لا يستحق أجره من المال ، إلا بكثرة ما يقال ، كالمسلمة يكون تقدير ثمنها ، على
كمية وزنها . فقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجمالة للمحامى بعد أن ربح له

القضية بدعوى أنه لم يسمع منه كلاماً مطوّلاً في المرافعة يستحق عليه الأجر ، سواء أكان مفيداً أم مضراً بها ، وليس يخفى أن وقت القاضي قصير ثمين ، فلا يسهل إلا المقاطعة على المحامي الكثير في كلامه ، وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه إلى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها ، وحاصل الأمر أن القاضي لم يخالف القانون بشيء فيما أتاه معكم .

(الباشا) - ليت شعري إذا اعتذرت عن القاضي في مقاطعته ، فما العذر في وضعه لي في « قفص المتهمين » ، وتقييده لي بالقيام عند كل سؤال ، وأنا رجل شحيح معمر ، وقد قضيت عمري في المناصب العالية بالحكومة المصرية ، وبذلت دمي في خدمة الأسرة الخديوية ، فهلا كان وقرّني لسني ، واحترمني لقدرى ، وأنى قانون في الدنيا يمنعه من ذلك ، وتوقير السن طبعي ، واحترام المقامات أمر أصلي ، والله تعالى يقول : « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » .

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً ، فإنه قائم على المساواة بين الناس ، ولا فرق عنده في المقامات والأعمار ، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف ، وعين ما يجري على أعضاء الأسرة الخديوية ، وخاصة الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذ القانون عليه ، ولا معرة عليك ، ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضي ، فإنما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهي أكبر الدرجات .

(الباشا) - إن كان هذا حكمكم في القاضي ، فما الحكم في عضو النيابة الذي عيرني شرف رتبتي .

(المفتش) - أنا لم أطلع بعد على أوراق القضية ، وتفصيل المرافعة ، ولكن ما انتشر في « مصباح الشرق » من كلام « النائب » لا يؤخذ منه معنى التمييز بالرتبة ، بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة ، مهما عظم شأنها ، لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء ، والامتياز بها على الناس أمام القانون ، فإنها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب ، فإنه جرى بيننا مجرى العادة في هذا العصر .

(الباشا) — إذا كان للقاضي العذر والنائب الحق ، فما فائدة تظلمي لكم وحضوري أمامكم ، أمّا كان من اللائق أن تزجروا القاضي ، وتؤثّبوا النائب ، وتتحصوا القضية ، وتثبتوا من بطلان التهمة ، وتنقضوا ذلك الحكم أمامها ؟

(المفتش) — ليس ذلك من اختصاصنا . وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته ، فالنظر في أمره موكول إلى « مجلس التأديب » ، ولا سبيل لرئيس على مردوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لمعجزنا عن التصرف في قضيتك ، والحكم فيها راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها .

قال عيسى بن هشام : وكنت أشاهد في أثناء هذه الحاورّة شاباً آخر بجانبنا من المفتشين يسلم « طربوشه » احمراراً ، ويقلب طرفه ازوراراً ، تلوح على وجهه مخايل الإمارة ، ولا تنفك يدهُ في رفع وخفض « للنظارة » ، وتشهد عليه سيماهُ بالفتن في التدبير ، وتدل على قوة الدهاء والتفكير ، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام ، رأيناه ينادي الحاجب ويقول له :

(المفتش الثاني) — عليّ « بدّلوز » و « وجارو » .

(الباشا لعيسى بن هشام) — هل هذان الاسمان يُطلقان على القاضي والنائب ، وهل ترى هذا الشاب هبّاً للانتصاف لي منهما ؟

(عيسى بن هشام) — هذان اسمان لكتابين في فقه القانون بدل « ابن عابدين » « الهداية » في فقه الشرع .

وحضر خازن الكتب بالكتابين ، فردّ المفتش له أحدهما وقال له : ما طلبت « بودري » بل طلبت « جارو » . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ، ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال . اتّنى « بفوستن هيلي » ، فأناه بكتاب آخر ، فخرج منه بعد النظر الطويل إلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية ، وانتهى الأمر بينهما أن قالاً للباشا معاً : نعل لك عذراً في القانون يمكنك أن تدلي به إلى الاستئناف في قضيتك ، وأما ما يختص بالقاضي والنائب فنضع له « نوته » (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها ، فإذا تبين لها

أقل خلل في تصرفهما أصدرت منشوراً إلى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك في المستقبل .
ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم ، وخرجنا والباشا يقول :

(الباشا) — قد كتب على أن لا أخرج من همّ إلا إلى همّ ، ولا أنتهي من كدر إلا إلى كدر ، حتى كاد يصفو بالي ويخلو خاطري لكثرة ما تراكم على من الهموم والأحزان :
فإني رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما حُطّ في القرطاس رسمٌ على رسم

ومن البديع الغريب في أمر هذه الحكومة الحاضرة أنني ما وضعت قدمي في دائرة من دوائرها إلا رأيت أمانى غلماناً وفتياناً يتولّون أمورها ، ويتصرفون في أعمالها ، فهل خلّق المصريون خلقاً جديداً ، أم صاروا في الجنة استبوت فيها الأعمار ؟

(عيسى بن هشام) — لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة ، فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك ، وهم يزعمون أنه ليس في استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموا بأعباء المناصب نالوها من علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة .

(الباشا) — كيف يدّعون أن العلم ينحصر في الشبان دون الشيب ، وما عهدناه إلا فيمن أحفّت السفن ظهورهم ، وبيّضت التجارب مغارقهم ، فابتنس فيها بياض الرأي والأدب .

(عيسى بن هشام) — هم يقولون إن العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ، ولا عمر دون عمر ، وربما أن كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة العلوم ، وأجمع اشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك ، فإذا انصرف بهمة إلى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ ، وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار .

ليس الحداثة عن علم مانعة قد يوجد العلم في الشبان والشيب
(الباشا) — ولترجع إلى شأننا ، فقد اتبعت آراءك وامثلت نصائحك ، وعرضنا أمرنا لجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيمة كما ترى ، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى حالة

اليأس ، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أى احتجاج وجهه توجهنى به ، وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام .

(عيسى بن هشام) — لا تيأس ولا تقنط ، فإن أماننا محكمة الاستئناف ، ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام ، ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير ، فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتصمه بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) — لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً ، فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان ، مهما بالغت لى فى الوصف ، واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) — ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم ، بل هو رجلٌ كهلٌ ، عاكف على العبادة ، منكبٌ على الأوراد ، منصرفٌ إلى الأذكار . يُسمى ليله قائماً ، ويصبح نهاره صائماً ، فبين السجدة وأصابه عهدٌ وميثاق ، وبين السجادة وجهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكركنا فى هذا العهد الجديد بهذا القديم ، وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترى .

(الباشا) — حسن المناسترى ! ذاك خليلى وقرينى ، وصاحبى وخدينى ، ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ، ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حققت ما وجهى ، وأتقذتنى من كل هذه الإهانة وذلك التحقير ؟

(عيسى بن هشام) — ما غاب عني أن أذكرك به ، فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنه ما تقلبنا فيه من المصائب ، وإنما نفعه يكون فى آخر الدرجات ، ولا عمل ترجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولى الأمر .

محكمة الاستئناف

وَأَن أَوَانُ الجلسة في الاستئناف . فسرنا في طلب العدل والإنصاف ، وكَم واحد منا مشغول بمحاجته ، لاهِ بفازلته . فالباشا يفكر في مصيبتة ، ويتألم من بليته . والمحامي يدبر في أمره ، ويتطلع لأجره ، وأنا أسأل الله لنا النجاة ، من مكابد الحياة . ولما وصلنا إلى حى « الاسماعيلية » ، ورأى الباشا دُورها ومبانيها ، وشاهد قصورها ومفانيها ، واستطاب رياضها وحدائقها ، واستنشق رياحها وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوتاً ، واستنطقنا بعد أن كنا ساكوتاً . فقال : ألا تخبرنى عن موضع هذه الجنة الزاهرة ، من مدينة القاهرة . فقلت له هذه « الاسماعيلية » ، اختطها اسماعيل ، فيما اختطه لزينة وادى النيل ، يسكنها اليوم جماعة من العطاء ، ذوى الغنى والإثراء ، وقد كانت في أيامكم خراباً قفراً ، لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصراً ، ولا ترى فيها من النبات غير الطلح الضال^(١) . ولا من الأزهار غير الشوك القتاد أو شوك السيال^(٢) ، ولا من الطيور غير البوم والغربان ، أو الزخَم والعقبان ، ولا تجد فيها من الإنس إلا لصاً سالباً ، أو مفتلاً ناهباً ، أو فانسكاً متأهباً ، أو كامناً مترقباً .

(الباشا) — لله در المصريين ، لقد ابتسم لهم الدهر ، فأبدلهم من الشوك الزهر ، وأسكنهم هذه القصور العالية ، بعد تلك الأطلال البالية .

(المحامي) — أيها الأمير ، لا تغبط للمصرى على نعمته ، وتعال فأبك ممناً من نعمته ، فليس له في هذه الجنة من دار ، يقر له فيها من قرار ، وكل ما تراه من هذا الجانب ، فهو ملك للأجانب .

(الباشا) لله أبوك ، كيف يختص الأجنبي دون الوطنى بهذه الجنان الناضرة ، ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة ، ولعلك تافز في قولك ونحاجى ، ونعمى في تعبيرك وتداجى .

(١) الطلح : شجر عظام ترعاه الإبل . والضال : السدر البرى

(٢) القتاد : شجر ضلب له شوك كالآيز . والسيال : جمع سيالة نبات له شوك أبيض

(الحامى) — لا تحبب ولا تميمية ، بل هكذا قدر المصري لنفسه ، وتبدل سمه بنحسه ، واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف ، ورضى بالقسم الخسيس الضعيف . . . فبات محروماً تحت ظل إهماله وخفوله ، وغداً بالأسا في سباته وذهوره ، وما زال الأجنبي يسعى ويكد ، ويعمل ويجد ، ويقال ثم يطعم ، ويسلب ثم يجمع ، والمصري يبذر بجانبه ويسرف ، ويبدد ويتلف ، ويتحسر ثم يلهو ، ويعجز ثم يزهو ، ويفتقر ثم يفتر ، ففسادى السيد والسود ، وتشابه الحاسد والمحسود ، وتعادل الرفيع والمنيع ، بالحقير والوضع ، واشتركتنا كلنا على السواء ، فى منازل الشدة والبلاء ، وأصبح نصيب القوى المسكين ، مثل نصيب الضعيف المستكين ، وكذلك تكون عاقبة من يلقي للأجنبي بيديه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيده

قال عيسى بن هشام : وما كاد ينتهى رفيقائى من خطابهما ، ويفرغان من سؤالهما وجوابهما ، حتى مر بنا راكب دراجة تنساب به كالصلال^(١) ، فى بطون الرمال ، ويتمايل بها تمايل النشوان مالت به نشوة الحر ، وينثنى انثناء الأغصان هزها نسيم الفجر . فامتلاً الباشا تعجباً واندهاشاً . وسألنا الشرح والبيان ، عن أمر هذا « البهلوان » ، فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس ، على المركبات والأفراس ، ومما يرغبهم فيها أنها لا تأكل ولا تشرب ، ولا تهزل ولا تنعب ، وهذا الراكب من أهل القضاء ، يركبها لرياضة الأعضاء ، فأتبعه الباشا نظره ، فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته ، فانفرط عقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطر بوش ، ثم رأيناه تماثل للقيام فلم شمشه ، وحاول أن يملو الدراجة ثانية ، فلم يقدر عليها ، فسحبها بيده يجرها ويماشيها ، وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها .

(الباشا) — يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا ، وكنا مطاعين لانا ولا علينا ، وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم إذا كان هذا منظره وذلك مركبه أمام أعين العامة ، وهل

(١) الصلال : جمع صل ، وهو الحية .

حكم الناس يوماً بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر ونخامة الواكب ، وقد كان الحاكم أو القاضي لا يركب في عصرنا إلا في موكب تحف به الخشم والأعوان ، وتتقدمه الجنود والفرسان ، فترتجف منه القلوب رعباً ، وتخرّ له الأعناق رهبا ، وقُلّ من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يفتنه أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) — ذاك عصر مضى ، وحكم انقضى ، ولقد تفنن أهل المصور للباسية في وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال ، وهيبته العزة والوقار ، حتى أدخلها الشعراء في مخالصهم البديعة ، كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جمع الزمانُ فما لليدِّ خالصٌ مما يشوبُ ولا سرورٌ كاملٌ
حتى أبو الفضل بن عبد الله رؤًى يتهُ المنى وهي المقامُ الهائلُ
(المحامي) — قد آن أن نفرغ من هذا الحديث ، فقد اقتربنا من المحكمة .

(عيسى بن هشام) — ولعلنا نجد لها باذن الله في مكانها ، فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان ، حتى أشبهت خيام العرب :

يوماً يحزوى ويوماً بالعميق وبالسُّمْدِ يَبِ يوماً وبأخْلِصاء

ثم اقتربنا فوجدناها ، وأقمنا في ساحتها فننظر نو بئنا بين أرباب القضايا ، حتى نودى علينا ، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة ، فأخذ الأجنبيُّ منهم يقرأ « ملخص القضية » باللهجة العجمية ، وحروف لم تستوف مخارجها فقال : « إن هذا الرجل منهم بالتعدى على فلان المسكري بالضرب في أثناء تأديته وظيفته في يوم كذا من شهر كذا ، والمتهم أنكر ، وشهد الجني عليه ، ودلّ الكشف الطبي على وجود علامات فيه للضرب ، والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالسجن سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات ، فاستأنف المحكوم عليه . »

ولما سألت المحامي عن هذا التلخيص الغريب قال لي : هكذا تجري العادة هنا ، فيأخذ مثل هذا القاضي الأجنبي عبارة الديباجة المذكورة في الحكم الابتدائي ، فيجعلها تلخيصاً للقضية ، ثم يكتبها بـسريتها بحروف أجنبية ، ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت .

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل إقامته ، وأشار إلى النيابة بالكلام ، فشرح النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه ، ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه ، كما يكون في المحاكم الابتدائية ، (والسفر في ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلّموا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والإسهاب) ، ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز ، فابتدأ المحامى بسرد أقواله في أوجه الدفاع عن المتهم ، وكما وصل إلى النقطة المهمة في دفاعه ، قال له الرئيس : « الموضوع » « طلباتك » . ولما تكرّر منه وقوع ذلك ، رأيت أحد القضاة يذبه الرئيس إلى أن كلام المحامى في عين « الموضوع » (وللا رئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة) ، ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة ، وخرجنا ننتظر ، وسأت المحامى عن الدة التى تنقضى في المداولة ، فأجابنى :

(المحامى) — لا تزيد مدة المداولة في الغالب عن ساعة واحدة .

(عيسى بن هشام) — وما هو متوسط عدد القضايا في الجلسة ؟

(المحامى) — متوسطها عشر قضايا .

(عيسى بن هشام) — وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق ؟

(المحامى) — نعم تكفى عندهم ، وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى « الملخص » إلى قلم الكتاب لاطلاع المحامين ، فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الأحرف : « ب » « ع » « ت » ، فالباء إشارة إلى البراءة ، والعين إشارة إلى العقوبة ، والتاء إشارة إلى تأييد الحكم الابتدائى . وإنما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه في القضية عند عرضه على زملائه في المداولة ، فإذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى في البحث والمناقشة ، ولكن لما كان القاضى الجزئى له الاستقلال المطلق في الحكم بما يرتاح إليه ضميره ، وتطدئن به نفسه ، كان من الواجب عليه أن يملك غير هذا الطريق ،

وينفحص أدلة الثبوت ، وأدلة البراءة بنفسه ، فيعرضها على ضميمه وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة ، وللتهمة ، حتى إذا استقامت لديه الأدلة ، حكم بما يغلب عليه منها ، لأنه يجرى في طريق التسليم لرأى غيره ، ولا أن يكون الحكم مبتوتاً في القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التي عنت للقاضي للمختص وهو يمر عليها في انفراده ببيتته مرة السحاب .

قال عيسى بن هشام : وبيننا نحن في هذا الكلام ، إذ عادت الجلسة إلى انعقادها ، فدخلنا لسماع الحكم ، فنطق الرئيس ببراءة الباشا ؛ لأن التهمة وإن كانت ثابتة عليه إلا أنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة فاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة ، وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) — لا أنكر اليوم أن العدل موجود واسكنه بطي ، لا يتحمل أعباء بطائه البريء ، وكان الأولى في هذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية ، فلا يلحق من كان مثلي هذا الهوان والصغار ، ويقع به ما وقع من الحبس والعار ، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام .

(الحمامي) — إني أهنتك بهذه البراءة ، وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ، ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه ، والسيف من غمده ، وقد مضى مني الدفاع ، وبقي عليك الدفع .

قال عيسى بن هشام : وما زال الحمامي عاكفاً علينا يطالبنا بالأجر ، والباشا يمدُّ لآخر الشهر ، حتى يأتيه بعضُ خدمه وأتباعه ، بمال من عقاره وضياعه ، والحمامي يأتي التسوية والإمهال ، وإلا الدفع في الحال .

(الحمامي للباشا) — أنظن أن هذه الوعود ، تقوم لدينا مقام النقود ، في بلد كثير فيه الإنفاق وزادت الضرورات ، وقل فيه الربح كما قلت الرواءات ، وصار الدرهم أعزَّ عند الأب من بنيه ، وعند الابن من أبيه ، ولقد تعبت في القضية تعبين باللسان وبالجنان ، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان ، وإنك لا تصرفني — وإن كنت محمود

الخلق - بالوعد ، ولكنك تصرفني - وأنا أهد - بالنقد ، وإنى لا أريد أن أسكن
في بيت المتنبي : أنا الغنى وأموالي اللوايعد
فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية ، والفكاك من بلية ببلية ، فذلك ما لا يأتيه
العقلاء ، ولا يرتضيه الأمراء .

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلطف ، من شدة الحنق والتفريط ،
وقفت بينهما وقفة الأريب ، وتوسّطت توسط اللبيب ، فملت بلطف الالتماس والرجاء ،
رضاء الخاضع بالمهلة والإرجاء ، إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر ، إلى الفنى واليسر ،
وقلت له ما يقال له في باب المروءة والهمة ، من وجوب الخنوع على من يقع في مصيبة أو ملة ،
وأن من تذكر الدهر وغيره ، والزمان وغيره ، لانت عريكته ، وطاوعت شكيمته ،
وليس بين صمود المرء ونزوله ، وإشراق سعادته وأفوله ، وبين غناه وفقره ، وصفوه
وكدره ، إلا مسافة انتفاض القضاء ، من رب السماء . فنظر إلى الباشا نظرة الاحتقار
والازدراء ، وخاطبني بالأنفة والكبرياء :

(الباشا) - لمأس الخدين أنت والقرين ، كيف تسمي بسمه الفقراء ، وتستعطف
على قلوب الضعفاء ، وأنا الأمير السرى ، والفنى المثرى ، وأين ما ادخرته في عمرى ،
واكثرته في عصرى : من مال وعقار ، وفضة وأضار ، وقصور وضياع ، وزخرف ومتاع ،
ولقد كان يضرب بغناى المثل ، فإن كنت جاهلاً بى فسل ، اذهب فأتنى بخبر ما خلفت
وأبقيت ، وأثر ما جمعت واقتنيت ، وكيف يخفى عليك وعلى الخاضع مالى من الأموال
والعقار ، وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار ؟ فإنى يشهد الله ما تركت جملة ، ولا
أغفلت وسيلة ، في الحصول على الإنراء والغنى ، حتى جمعت منه كثيراً مما تفرّق على
الورى ، فجعلته عدّة لشد أزرى ، وأماناً لى من مصائب دهرى ، وتركته ذخيرة لأبنائى
وحفدى ، وميراثاً لأعقابى وذريتى ، ليكونوا من ذل الحاجة في جمّة ^(١) ، ومن نعيم العيش
في جمّة ، وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد ، رفيع الذكري رفيع العباد .

(١) الجمّة : السّنة وكل ما وقى من السّلاح .

(الحامى) — إنا لنعلم ، يا معشر الأمراء والحكام ، أنكم قضيتُم الأعمار في جمع الخطام ، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات ، وبضاعة من البضاعات ، ترجون منها الغنى والثروة ، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال ، واستلاب الحقوق ، وابتزاز الدراهم من دماء الأراذل والآثمي ، وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى ، وكنتم سواء عليكم أحرزتم المال من حِلِّه أم من غير حِلِّه ، لم تبالوا بالضعيف المسكين ، ولم تترثوا للعاجز المستكين ، بل ظلمتم البريء ، وبراىتم الظالم ، فجعلتم لديكم من أثر ذلك مالاَ بقدر من الأموال ، ورضيتُم بالوزر ، وطوقتم أعناقكم بالإصر ، ثم حرمتُم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتُموه ، وحرمتُموها من كل ما حرمتُموه ، ولم تكونوا من الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولم تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ، ولم تظهروها بركة ، ولم تركوها بإحسان ، وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم ، وصمتُ الدينار مع الدينار ، وأبدعتم ما شئتم في وسائل وطرائق ياباها الله لعباده ويمقتها ، ويستبشها الإنسان ويستنظمها ، اسلب ما سلبتموه ، وكثر ما كنتموه بالإثم والمدوان ومعصية الرسول ، واجترأتم على الله في أوامره ونواهيه ، وكلفتم العلماء بقاويلها على أهوائكم ، فأوتلوها لكم لانهصار الأوراق في أيديكم ، واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم ، فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل ؛ حتى إذا انقضى العمر وحل الأجل ، تركتم ما خلفتموه لغلة من أولادكم ، وصبايا من جواريتكم ، نشأوا بينكم على الحرمان ، ولم تشفقوهم بالتعليم ، ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم ، وللأيام والليالي تهذبهم ، فكنتُم في أعينهم كالرصد الذي يكون على باب الكنز — كما يقال في الأفاصيص — يحتالون لنقله بقتله ، فإذا استراحوا منكم بالموت أو القتل ، مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم ، وفرقوا شملها في أدنى من لحمة ، جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع ، فما هو إلا أن يتسابق الدودُ والورثةُ في أحشائكم المدفونة ، وأحشائكم الخزونة ، فيسبق الورثة الدود ، في الصدور والورود ، تذهب البدرُ وراء البدر ، والضيعة بعد الضيعة ، والدار عقب الدار ، حتى إذا لم يبق إلا بيت السكن أتوا على ما فيه من الآثاث بيعاً ، وما في أعناق الجوارى من الجواهر

والقلائد رهناً ، ولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة ، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة ، إلى أن يندك بناؤه ، ويعفو أثره ، ويحول اسم بانيه الذي ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشبيده ودوام بقائه ، وهو يشيع منهم بالاعتنين في الحالتين : حالة الخلاص منه بالتشيع إلى القبر ، وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تشييف العلم بما كان ينفعهم في خشونة الفقر .

هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ، وياليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء المصريين بإتفاقها بينهم ، وتبذيرها فيهم ، فيكون ذلك منهم كَرْدَ بمض الحق إلى أهله ، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعاً إلى أيدي الأجانب والغرباء ، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين يهبون أموالهم ، ويسلبون أوقواتهم ، ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه ، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أو لى بالقليل منه ، وما دَفَعَ بأعقابكم إلى هذا الليان والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبي والاحتقار لجانب المصري ، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابا للمصريين ، حتى شاركم معكم الأجنبي في تلك الربوبية ففكلكم عليها ، وأشرككم مع المصريين في العبودية ، وتشابهت الموالى بالعبيد ، وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار في أيامكم قد أصبحت يموتهم خاوية على عروشها ، وأبصار أعقابهم شاخصة إليها ، فإن أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم ، فأبحث عنها تحت ثفال^(١) تلك الرحى ، وقلْ معي ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثَمَرْتُ مَالِي وَإِنَّمَا لَوَارِثِهِ مَا ثَمَرَ الْمَالُ كَاسْبِهِ

يُحَاسِبُ فِيهِ نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ وَيَتْرَكُهُ نَهْبًا لِمَنْ لَا يُحَاسِبُهُ

فيا عبَّث المدَّخِرَ الجامع ، ويا غيبن المسكنز الطامع ، ما كان أغناكم عن الجمع والادخار ، وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار .

(١) الثفال : جلد يبسط تحت الرحى والجبر الأسفل من الرحى .

(الباشا) — أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك في اللوم والتعنيف ، وخرجت عن طورك في العذل والتمزير ، وكان بودي أن أعطيك أجرك مضاعفاً ، ولا أشاهد منك هذه الجراءة علينا بسوء التقريع والتوبيخ ، وربما قلت حقاً في بعض ما تقول ، والرجاء في غفران الله عظيم ، وفي رحمة متسع ، ولعل ما تخال أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناه من السيئات ، ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة ، والاحتياج للتمسك الرزق ، بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى ونحكي ، وما أرى لضيقي من الفرج إلا أن أورد نفسي حثفها ، وأعيد لها حمامها ، فما أروح ما كنت فيدر من ظلام الرمس ^(١) ، وما أتبع ضياء هذه الشمس .

(عبدى بن هشام) — ليس لمثل حالتكم غير الأسف منا ، والتوجع لكم ، فقد تمكن الاعتقاد في رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام ، هو قياس مطرد ، وصراط مستقيم ، لا ملجأ لكم سواه في وجوه المساعي ، وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني أهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب ، فإذا خلت أيديكم منها ، واعتزاتكم الأحكام ، تقطعت بكم الأسباب ، وضاعت بكم السبل في وجوه المعاش ، كما تصاب يد الصانع بالشال ، فيتعطل عن العمل ، ويصبح كلاً على كاهل الجميع ، يرجو الموت كما رجوت ، ويتعنى راحة العدم كما تمنيت ، وكأنكم أبها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق ، فلا تكونون إلا فوق ذهب المرش ، أو فوق خشب النعش ، وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه ، وهو في ضيق المجلس ، وضيق النفس :

ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومعلوم لك ما في هذه الصناعة ، صناعة الولاية والحكم ، من قلة ما يرفعه الصدر ، وكثرة ما يضمه القبر ، وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس في معاشهم ، لكل إنسان آلة يئنه من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها التعيش والارتزاق ، حتى إذا أتم نزلتم

(١) الرمس : القبر .

عن تلك العروش ، دخلتم في بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنفعون .

(الباشا) — تالله إن ما قاسيته من الآلام أمام الموليس والنيابة والمحكمين واللجنة كان أقلّ هماً وأدنى شجناً من مرارة هذا النصع والوعظ ، وما الرأي عندكم ، وقد فات وقت التحصيل والطلب ، ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل ، والموعظة صالحة نافعة ، ولكنها لمن يجيئ لا لمن يجزي .

قال عيسى بن هشام : فأحزنتني حالة الرجل ، وأسفقت عليه ، فأخذت أتدبر له وأتفكر في طريقة يتعيش بها ، وكلما خطر لي في ذلك خاطر خاب رجائي فيه ، حتى كدت أياأس من الحيلة ، والباشا ينظر إليّ وأنا في تفكيري تارة ، ويطارق للتفكير في نفسه تارة أخرى . ثم رأيتُهُ قد انتفض من مكانه وأخذ بيدي يقول لي :

(الباشا) — قد وجدت والحمد لله باباً لسد الموز وكفاف الميش .

(عيسى بن هشام) — ماذا وجدت ؟

(الباشا) — كان من عادة الحكام أمثالنا في الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التي تقرّ بهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافةً ، وهو إقامة بناء للجامع أو ككتاب أو « سبيل » ، وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وفقاً عليه للانفاق من ريعها على طول الزمان ، وقد سلكتم مسلكهم ، واتبعت سننهم ، وخلقت لذلك وفقاً عظيماً لا تناله أيدي الأعقاب بالإتلاف والتبذير ، فهل معي نبهت على ما شيدته ووقفته .

الوقف

قال عيسى بن هشام : وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف ، لوقوف على تلك الأوقاف ، ونسائل العابر وابن السبيل ، عن المسجد و « السبيل » ، ولا سؤال المجدب عن الروض ، والظلمان عن الحوض ، فلم نجد من يرشد ، إلى ما نلشد . أخذ الباشا يتذكر الطرُق وأما كتبها ، والأزقة ومسالكها ، ويقول كان هنا وكان هنا ، جل ما ينفي به إلهنا . وما زال يفاصر في خطواته ، ويطاول من آهاته ، ويبيكي لرسوم الأطلال والديار ، بكاء صاحب عزة^(١) أو صاحب نوار^(٢)

فاسألنهما واجعل بكاء جواباً تجرد السمع سائلاً ومجيباً

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب ، وترداد الجوى والذهاب ، إلى منمطف مضيق ، في منتهى الطريق . فوقف الباشا هناك قبالة دور مهدمة ، وجدران محطمة ، ومسجد في ناصية منه حانوت خمار ، وفي زاوية منه دكان عطار ، وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف ، مختلفة الأصناف . فطلق الباشا بصقه نظره فيها وبصوته ، ويخطف حذسه تارة وبصوته ، فهذه طول النظر والتدقيق ، وشدة الإيمان والتحقيق ، أن رأى شيئاً فانياً متربماً في دكانه ، متحيزاً بمكانه ، عليه علامات الانحلال والسقوط ، وشارات الخذلان والقنوط ، وسبى الرضاء بالمقسوم ، والتسليم للقضاء المحتوم ، له جبهة كأنها من ورق البردي العميق ، تلو فيها ما دونه الدهر من آيات الشدة والضيق . فخرج الباشا في الحال من حال المتحير المتردد ، إلى حال الائق المتأكد ، فنادى صاحب الدكان عن بعد نداء السيد للعبد : فانتفض الرجل انتفاضاً عجيباً ، وقصده مليباً ومجيباً ، فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية ، إلا أن ملكاً ينادى أحد الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع ، والمطيع الخاشع . فقال له الباشا ، بعد أن حدد فيه نظره ، واستجمع فكره :

(١) عزة : هي التي كان يتشبه بها كثير الشاعر

(٢) نوار : هي امرأة الفرزدق التي كان يتشبه بها

(الباشا) — أنتَ أجدُّ أغا الرِّكَّدار الممدود من أهل حاشيتي ، ألا تعرفني من أنا ؟

(صاحب الخانوت) — لولا أن الموت حجاب كثيف ، وحجاز منيع بين ظهر الأرض وبطنها ، لقلت إنك سيدى وأميرى ، ويشهد الله أننى كلما أعممتُ فى وجهك ، وسمعت لصوتك ، كاد يطير عطفى ، ويندهش لى ، لاستحكام الشَّبه بينك وبين سيدى المرحوم .
(الباشا) — إني أنا سيدك ، وهذه هي العلامة التى تعلوها فى جسمى من أثر اللاب بالجريد على مشهد منك فى يوم من أيام السبق والرهان (وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة) فوق الرجل مُنْكَبًا على الأرض من شدة الدهشة ، يَقْبَلُ قدم الباشا ويفسأها بمنحدر النموع ، ويقول فى بكائه وشهيقه :

(صاحب الخانوت) — كيف بالحياة بعد المات ، أتحقُّ أنتَ إحدى المعجزات ، وليس ما أراهُ غريب ، فقد شاهدت فى هذا العمر الطويل ، مالا تحيط بوصفه الأفلام ، ولا تنسج له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال ، وغرائب الانقلاب ، فلا يعد بعد ذلك أن تُشرق الشمس من مغربها ، وتُخرج الأرضُ أمواتها من مقابرها .

قال عيسى بن هشام : فقلت للرجل : لا تكثُر من الدهشة والخيرة ، ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب

على أنها الأيام قد صرَّنا كلها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ
واعلم أن القدرة لا تعجز عن شيء فى الوجود ، ولا تحيط بها العقول ، ثم قصت عليه قصة الباشا منذ البداية ، فصاح الرجل ببكى ويتضرع ويقول : ليت أُمى لم تلِدنى ، ولت القدرة التى بعثت الأمير من بعد موته نُشرت معه زَمَنُه ؛ وأعادت عصره ؟ وإلا فكيف له بالعيش فى هذا الزمن ، وما أولاهُ بالعودة إلى أدراج الكفن .

ثم التفت إلى الباشا ، وشرع يقص عليه مامرًا به من الحوادث والكوارث ، وما جرى نبيت الباشا ولأهل طبقتة من النوازل والخطوب :

(صاحب الخانوت) — ولم يبقَ لك أبها المولى من أثر يُذكر فى ثروتك ومتاعك ،

وأموالك وضياحك ، وقد عشتُ دهرًا وأنا متمتع بربع ما وقفتهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك ، وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب ، لتخليد ذكرك ، وإحياء اسمك ، فإبث الوقف أن تهتدُم وتخرِب بطول الترك والإهمال ، فوقعنا كلنا في الفاقة والاحتياج ، وانقلب الكتاب مخزنًا ، والسبيل خُفارة ، والمسجد مصبغة ، كما تشاهد ونرى ، وأصبحت أنا بيطارًا بعد أن كنتُ « ركبدارًا » وأخذتُ هذه الخانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها ، وسبجان مقلب الأحوال ومبدل الأشكال

(الباشا) — ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظرة ؟

(البيطار) — آخر العهد عندي كان بواحد منهم ، ذهبتُ إليه لأجل هذه الخانوت وأعلمتهُ بمكاني من أهل الحاشية ، فانهرنى وطردنى ، وأبعدنى وزجرنى ، ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح ، فترددت عليه مرارًا . فتخلص من ثقل إلحاحى بإحاطى على رجل فرنجى عندهُ يدٌ رُلُهُ ما بقى لديه من ثروة نضبت عينها ، ونزحت بثرها ، فأحاطى الإفرنجى على صاحب الخمار ، لأنه أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها ، وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئًا بغير إرادته خوفًا من الخصومة فى الحاكم ، فقصدت الخمار ، واتفقت معه على أجرة معينة وأفتت فى هذه الخانوت أصرع الدهر وبصرعنى ، وأطلب القوت ويعوزنى ، وأنعجل الأجل ويمهينى ، وتعالى الله المتفرد بعزته ، المبدع فى حكمته .

(الباشا) — وأين هذا الولد العاق الخالف لإرادتى ، وهو يعلم أن شرط الواقف كنص الشارع .

(البيطار) — هو مقبم الآن فى « الأوتيل » .

(الباشا) — وما الأوتيل ؟

(البيطار) — « اللوكاندة » .

(الباشا) — وما « اللوكاندة » ؟

(عيسى بن هشام) — «الأوتيل» هو بيت معروف بمدونه لنزول من لا بيت له من الغرباء على أجر معين ، وهو في المعنى كالخان الذي تعرفونه في زمانكم .
(الباشا) — هل وصل التدنى بهذا الخائن إلى سُكنى الخان ، وسبحان مصروف الأحوال ومغير الأزمان . وكيف يطيب المسكين عيش على هذه الحال ، بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه ، تعذيباً لى على ما فرحت فى جنب الله ، أو لم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار ، ما يقضى عن التعذيب بالعار ، فى هذه الدار ، ربّ إن الجحيم لأهون على فى المذاب والنكال ، مما ألافى فى الرزية فى المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعة وضِعِر ولم يرتضِع من أمّه النفساء
(عيسى بن هشام) — ليست السكنى فى «الأوتيل» اليوم عن ذل وفقر ، بل هى عن عز ويسر ، فإن النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر ، على أكبر قصر ، بجواريه وخدمه ، وأتباعه وحشمه ، وقد دعا أولادكم إلى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للأجانب ، وإتقان الاقتداء بهم ، والسميد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره ، ويهرن ضياعه لتيسر له الإقامة فى هذا الخان ، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام من «الأوتيل» إلى البيت ، وعنده الطباخ فى أسفله ، والجوارى الطاهيات فى أعلاه .
(الباشا) للبيطار — أرجوك أن تصف لصاحبى مكان «الأوتيل» الذى يسكنه ذلك الغلام ، فإنّى حاجة إلى لقائه .

(البيطار) — كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء ، وأنا أنتظر فى خدمتك أن تأمرنى بما تشاء ، وهل تظن أنى أفارق ركابك ، أو أزيل مصيبتك ، مهما تقلبت الأحوال ، وتبدلت الأزمان ؟ فهلم ، منك الأمر والإشارة ، وعلى السمع والطاعة .

أبناء الكبراء

قال عيسى بن هشام : ودعاني الباشا للسير معه ، وهو يكفكف دمعته ، وتبعنا البيطار من خلفنا بحُطاه الثقيلة ، وعصاه الصقيلة ، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال ، وتعرّجى بها في السير والانتقال ، عن ظهور الخيل ومتون البغال ، إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة ، من الفنادق الشهيرة ، فقال الباشا ما رأيته من ضخامة البناء ، ونظامه المنظر والرواء ، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان ، ورشاقة الوصفاء والعلماء ، فتخيل أننا أخطأنا الأبواب والمداخل ، فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل ، وتقدمت للسؤال والاستخبار ، وقد خلقنا البيطار في الانتظار ، فدلتنا أحد الخدم على رقم المكان الذي يسكنه الأمير ، بعد طول التردد والتفكير ، فما وصلناه حتى دفع الباشا بيديه ذقن الباب ، لم يلفت لطلب إذن ولا لرجع جواب ، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء ، وأعقاب الكبراء ، مختلفين في الجلوس ، حاسرين عن الرؤوس ، ففريق منهم عاكفون على لعب الفار ، وفريق ينظرون في صور خيل الضمار ، ومنهم جماعة قد استداروا بأمرأة نصف^(١) لا يجوز شوهاء ، ولا فتاة حسناء ، تجلب الحسن بإفراط التأنق والتفنن ، في وجوه التصنع والتزين ، فيكاد يضيء وجهها بسنن العقود والقلائد ، ويتلألأ جبينها بلائاء الجواهر والفرائد ، وفي وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح ، في الأباريق والأقداح ، وبجانبيها منضدة^(٢) ، عليها آنية منضدة ، وفوقها الدواة والقرطاس ، وبراعة مرصعة بالماس ، وكتب أنجية موشاة بالذهب ، لا أدري إن كانت في الهواء أم في الأدب ، وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة ، وجرائد تحت الأقدام منشورة ، لم يفضض عنها « ظرف » ، ولم يقرأ منها حرف ، وسمعتهم يتراطنون جميعاً بأقوات أجنبية ، دون اللغة التركية أو العربية ، إلا ما كان من أسماء الخيول العربية ، بعد أن يبدلوا المكاف بالقاف ، وينطقوا بالحاء كالحاء ، ولما رأونا

(١) النصف : المرأة الوسط بين الحدة والسنة .

(٢) المنضدة : شيء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت .

ظَهَرَ مِنْهُمْ الْعَبُوسُ وَالْقَطُوبُ ، وَبَدَأَ عَلَيْهِمْ انْقِبَاضُ الصُّدُورِ وَالْقُلُوبِ ، وَانْبَرَى مِنْ جَانِبِ الْمَرْأَةِ شَابٌ قَامِرٌ نَحْوَ الْبَابِ ؛ فَطَبِئًا بِمِيعَارِ فَرَنْسِيَّةٍ ، وَلُغَةِ بَارِيسِيَّةٍ :

(الشَّابُّ) — كَيْفَ سَاغَ لِكُلِّ الدَّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ ؟

(عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ) — دَعَا إِلَى ذَلِكَ شَوْقُ الْوَالِدِ إِلَى رُؤْيَا ذَرِيَّتِهِ .

(الشَّابُّ) — لَسْتُ أَفْهَمُ لَكَ كَلَامًا فَصَّرَحْتُ لِي وَبَيَّنَّ .

(عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ) — فَلَانَ يَسْأَلُ عَنْ فَلَانٍ .

(الشَّابُّ) — إِنِّي أَنَا فَلَانٌ ، وَلَكِنْ مَنْ فَلَانٌ الَّذِي يَسْأَلُ عَنِّي ؟

(عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ) — هُوَ جَدُّكَ الْأَكْبَرُ أَحْيَاهُ اللَّهُ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَبَعَثَهُ مِنْ رِقَادِهِ ،

وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنَّنِي كُنْتُ أَزُورُ الْقُبُورَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ . . .

(الشَّابُّ) — مَقَاطِعًا مُسْتَهْزِئًا — أَذْهَبُ عَنِّي ، فَلَسْتُ أَسْمَعُ لِهَذَا الْكُذْبِ وَالْخَرْفِ ،

وَلَيْسَ لِي الْيَوْمَ مِنْ جِدِّ وَلَا وَالِدٍ ، وَلَا أَنَا مَنْ يَصْدُقُ بِمُحَدِّثِ الْبُخْتِ فِي الْآخِرَةِ ، فَكَيْفَ

بِرُجُوعِ الْمَوْتَى إِلَى الدُّنْيَا . تَعَالَوْا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ فَاعْجِبُوا مِنِّي ، وَاضْحَكُوا بِمَا أَسْمَعُهُ مِنْ هَذَا

الرَّجُلِ الَّذِي يَخَاطِبُنِي ، وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا « الْبَاشْبُورِزِيِّ » الْغَلِيظِ الَّذِي يَجَانِبُهُ ، فَهُوَ يَدَّعِي

أَنَّهُ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، بِعَمَلِهِ اللَّهُ لِيُطَالِبُنِي فِيمَا أَظُنُّ بِمَا وَرِثْتُهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَنَازِعُنِي فِي

نَظَارَةِ الْأَوْقَافِ . فَهَلْ مِمَّتُمْ بِأَعْجَبٍ مِمَّا أَصْبَحْنَا فِيهِ الْيَوْمَ ، لَمْ يَكْتَفِ الدَّهْرُ بِتَكْدِيرِ عَيْشِنَا ،

وَتَصْكِيرِ حَيَاتِنَا بِمُطَالَبَةِ أَرْبَابِ الدِّيُونِ ، حَتَّى بَعَثَ الْأَمْوَاتَ مِنْ قُبُورِهِمْ ، لِيُطَالِبُونَا بِمَوَارِثِهِمْ

وَأَمْوَالِهِمْ ، أَلَا تَرَوْنَ أَيُّهَا الْخِلَّانُ أَنَّهَا أَبْدَعُ نَسَكَةً فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ ؟

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَاسْتَفْرَقَ الْجَمِيعَ عِنْدَ ذَلِكَ فِي الضَّحْكَ ، وَاسْتَلَفُوا مِنَ الْقَهْقَهَةِ ،

وَكَلَّمَا سَأَلَنِي الْبَاشَا عَنْ مَكَانِ حَفِيدِهِ ، وَاسْتَفْهَمَ مِنِّي عَمَّا يَجْرِي مِنِّي مِنَ الْكَلَامِ ، اسْتَمَعَلَتْهُ

لِتِمَامِ الْحَدِيثِ ، حَتَّى لَا يَقِفَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يُقَالُ ، وَلَا يَحْسُ بِوُجُوعِ تِلْكَ السَّهَامِ وَالنَّبَالِ .

وَلَمَّا انْتَهَى الشَّبَابُ مِنْ ضَحْكَهُمْ ، نَادَاوُا بِالْخَادِمِ لِيَأْمُرَهُ بِطَرْدَانَا وَإِخْرَاجِنَا . وَحَانَتْ فِي هَذِهِ

الْأَثْنَاءِ التَّفَاتَةُ مِنَ الْحَفِيدِ بَيْنَ دَوْرَانِهِ وَحَرَكَاتِهِ ، فَلَمَحَ أَحَدُ قَرْنَائِهِ وَإِخْوَانِهِ قَدْ انْزَوَى بِتِلْكَ

الْخَلِيلَةِ ، الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ كَالْخَلِيلَةِ ، يَلَاعِبُهَا وَتَلَاعِبُهَا ، وَيَغَارُهَا وَتَدَاعِبُهَا ، فَانْقَضَتْ عَلَيْهِ

كالصقر الأجلد ، فاستمرّ بينهم الجدل ، واشتدّ الخصام ، والتفّ حولهم الجمع ، وسمعت الحفيد يمتب ، والصاحب يعتذر ، والمرأة تبكت وتؤنّب ، وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة في العتاب والملام ، ولا يأتي ما تأتيه من الحدة والتهور في الخيرة إلا من كان قائماً بحاجتي ، مجيئاً لرغبتي ، وقد طلبت منك بالأمس أن تشتري لي ذلك العقد الذي حضره لاجر الحلي من أوربا في البريد الأخير . فسوّفت وماطلت ، بعد أن أجبته ووعدت ، واعتذرت بالإعسار والضيق ، ثم بلغت اليوم أهلك اشتريت فرساً جواداً بمقدار عظيم من المال ، فكيف تقصر في حاجتي مثل هذا التقصير ، وتبقي مني الاقتصار عليك ، والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه في سبيل مرضاتي من أحمالك وإخوانك ؟ »

ثم سمعت الحفيد يجاوبها ، والعرق يساقط من جبينه ، والوجد يقطع أنفاسه : « تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعثت أشياء لأشتري لك العقد بتمنها ، ولا يغرنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الذي انطأ ، وعن قلة أمواله ، ورهن أطبائي ، فأنت تعلمين بمقدار الأموال التي ستأتيني من اكتساب القضايا المعلقة لي في المحاكم كما ينبغيك به الحامي في كل حين . »

وما سمع ذلك الصاحب سبّه بهذين التمتين ، حتى اضطرم واضطرب ، وثارت به سورة الغضب ، فتقدم فلانة وشتمه ، ودفعه وأعلمه ، فوعده الماعون الماطوم ، بالمبارزة في يوم معلوم . ثم علا هناك صياح أيضاً في مجلس القمار بين صديق وصديق ، أحدهما في يسر والآخر في ضيق ، وأخ يبغي الاقتراض من أخيه ، ومفلس يطالب بميسراً بدّين لا يؤديه ، وانكشف الجدل كذلك عن الضرب والسك ، وانتهى النزاع بالصنع والظلم .

واشتبك خصام آخر في ركن المكان ، بين أهل السبق والرهان ؛ هذا يقول فرسي سابق ، وفرسك لاحق ، وذاك يقول « ركيداري » حاذق وابن حاذق ، وجوادك قصير وجوادى شاق ، وأنت الآن مقرر معترف ، بأن الوزن بينهما مختلف ، واشتدت المنافسة والمنازعة ، وجرى بينهم حديث المبارزة ، كل هذا والمرأة تسحب من حلقة إلى أخرى ، تسحب الحيلة والأفنى ، فتطفي نار الجدل مرة على حسب بغيتها ، وتشاعها طوراً تلعبت نيتها .

ورأيت الأجدد بنا أن نتركهم على هذه الحال ، فحذبت بضِعْر الباشا وخرجنا من ذلك المكان ، وأسرعت به منحدراً إلى الطريق ، فسألتني عن تفصيل ما كان وجري ، فترجعت له شرح الحال والآل ، فاحتدم غيظه ، واضطرم حنقه ، فلم يطفئه إلا ما قلته له في آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح . فقال وهو يتابع زفراته : لعل القدرة تكشف عني هذا المصاب ، وتُرِيحني المبارزة من الأبناء والأعقاب . فقلت في نفسي : إن أبناءكم لم يرثوا منكم أخلاقكم ، كما ورثوا عنكم أموالكم ، وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب ، ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان والضراب ، ولا يابسون لكشف العار ، وأخذ الثار ، والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار . وتذكّر الباشا في طريقه شدة حاجته إلى وفاء ما عليه من الأجر المحامي ، فالتفت إلى البيطار يسأله :

(الباشا) — هل بقي أحد ممن كانوا حولي من الخُططاء والأقربانِ أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروءة ؟

(البيطار) — لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان .

(الباشا) — ابدأ بالذهاب معنا إلى بيت الأول منهم .

قال عيسى بن هشام : فسرنا إلى حيث أشار ، والهموم تفرسنا ، والهموم تفرسنا ، والأكدار لا تفارقنا ، والأقدار لا توافقنا .

كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشام : ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه ، وبقية أخلائه وأصدقائه ، فانتهى بنا طول المسير ، إلى بيت ذلك الأمير ، وكأنه ميدان في اتساعه ، وحصن في ارتفاعه ، ووقف هنا البيطار ، عند باب الدار ، فسلم على الخدم وحياتهم ، ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم ، فأجابوه بالتعجب والعبوس ، أنه في قاعة الجلوس ، نطولونا في بمبوحة الميدان ، فرأينا في وسطه شجرة كثيفة الأغصان ، حتى قوامها تقادم الأزمان ، كأنها التكلت حلت شعورها في مأثم الأحزان ، وفي ظلها فرس يجن من النشاط والرياح ، وبجانبه كبش ضأن للنطاح ، وحوطهما ديكة تزال وضراب ، ظناً يديها مسفونة كالخراب :

فَحَمْرٌ وَسُودٌ حَالَكَاتُ كَأَنَّهَا سَوَامُ بَنِي السَّيِّدِ اَزْدَهْتُهُ الْقَوَائِمُ^(١)
يُرَانُ لَدَيْهَا الطَّمَنُ فِي حُوسَةِ الْوَعَى إِذَا زَيْنَتْ لِلْعَاجِزِينَ الْهَزَائِمُ
وَفِيهَا إِذَا مَا ضَمِيعَ الْفِكَسِ غَيْرُهُ نَصَانُ بِهَا الْمُسْتَضْعَبَاتُ الْكَرَائِمُ^(٢)

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان ، فسيحة الأركان ، في أحد جوانبها سلسبيل ، يسيل ماؤه من أفواه التماثيل ، والأرض مفروشة بالبسط الفارسية ، ويجلود الضواري الوحشية ، والحيطان مستورة بأنواع السلاح ، من خناجر وسيوف ورماح ، وفوقها عدة صفوف ، من الرفوف ، تحمل الطرائف الكريمة ، والأواني الصيلية القديمة ، مع عيدان التدخين ، من أغصان الياسمين ، فخلعنا ثيابنا ، وتقدمنا أمامنا ، فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين ، مُنْصِتِينَ مستمعين ، يضيء في وجوههم نور الشيب والوقار ، وتردهم هيئة العزة والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا ، برد سلامنا ، ولكن ما لبث أن اتصل ما انقطع من الكلام ، بعد رجوع التحية ورد السلام .

(١) السوام : الإبل الراحية ، وبنو السيد : قبيلة تكثر فيها الإبل السود والحر .

(٢) النكس : الرجل الضعيف الذي .

ولما استقر بنا المكان ، همتُ في أذن البيطار أن ينبثق بأسماء الحاضرين ، فقال لي :
 هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار ، وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم
 الخديوي ، وقد اعتزل الأعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتعبد ، ويسلك طريق
 النسك والزهد ، ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود ، وطول القنوت والسجود ، وله
 أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقوام أهل الطريقة وطواف الآفاق
 من سكان الأماكن المقدسة ، رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب ، وأن يُلحقه
 بال صالحين من أوليائه . وأما الذي عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء
 السكرام ، في « مجلس الأحكام » ، والذي عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام
 والمشايخ العظام . أما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادي المشهور في الوقائع
 والفتوح ، والذي بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين . وأما الذي تراه في آخريات
 المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلي .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرفتهم ، نظرت إلى
 الباشا فأدركت أنه لا ينبغي المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم ،
 فأنصت مع المنصتين ، فإذا الفريق الجهادي يقول في اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) — وكان « جنتمكان » محمد علي باشا الكبير معجزة دهره ، وآية عصره
 في الدماء وعلو الهمة ، وبُعد النظر ، وإحكام عقدة التدبير ، واجتذاب القلوب ،
 وتربية النفوس على الوفاء ، والأمانة لخدمته . فكان له من الكفاءة من خدموه بالصدق ،
 وافئدوه بالأرواح ، وأذكر منهم الرحوم « محمد بك لاط أوغلي » ، فهو الذي دبر له قطع
 دابر المماليك في ساعة واحدة ، وقد حكى لي الرحوم أخى ؛ وكان حاضراً في تلك الواقعة
 الهائلة ، أن المماليك لما رأوا أن المكيدة في استئصالهم قد استحکم عقدها ، واشتد رباطها ،
 وأنهم أحيط بهم من كل مكان ، تقدموا للبحث عن محمد علي في كل حجرة وزاوية من
 زوايا القصر لفتك به ، والتخلص منه ، فلم يقفوا له على أثر ، وأعيام البحث والتنقيب ،
 لأن « لاط أوغلي » أخفاه عنهم شديدة الإخفاء ، وقام له في ذلك الوقت — إن جاز

النشئة والنشيل — قيامَ علي بن أبي طالب مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة (عضو الأحكام) — نعم ، وكان المرحوم محمد علي فوق ما يقال وما يتصور في دقة سياسته لتربية الرجال في خدمته ، فكانوا كلهم طرازاً واحداً في حسن الولاء وجميل الإخلاص ، وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لي صديقنا المرحوم راغب باشا قال : « كنت أقرأ بين يدي المغفور له أوراقاً ، وأنا يومئذ كاتبٌ من كتبة معيته ، فدخل علينا سامي باشا في أثناء القراءة ، ووقف معنا ، فسأله محمد علي عما يريد ، فقلعتم تعلم المتطلع لخروجه حتى يتفرد به ، فيعرض عليه ما عنده ، فقال له : « قل ما عندك في الحال فياني لا أخفي عن راغب » سرّاً من أسرارى ، ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلى وذريتي وبين كتبة معيتي » .

فهل تعلمون يا قوم أنه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس ، وجذب القلوب إلى الصبح والولاء في الخدمة ، إنعامٌ بضياع ، أو إحسانٌ بأموال ، أو تقليدٌ لرتبة أو نشان ؟ وانظروا إلى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الأتفة في تربية رجاله ، وما للملوك صناعة غيرها ، فإذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس ، واحتكر مودات القلوب ، فيصفو له الملك ، ويطيب له الحكم .

(الشيخ العالم) — أصبتَ وصدقتَ ، وقد اطلعتُ في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنعور العباسي ، تدل على براعته ودقته في صناعة الملك ، وهي أنه كان يأكل ذات يوم ، وبجانبه ابنه مع شيخ من قواد جيشه ، ذهبَت أسنانه لسكبر سنه ، فكان يسقط من فمه بعض الفئات وهو يأكل ، والأميران يتفامران عليه ، فالتفت إليهما الخليفة فرأى ما بينهما ، فهدّ يده فجَمَعَ ما سَقَطَ من ذلك الفئات فأكله ، فقام القائد يقول له : « لم يبق إلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرني بما تريد » .

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد علي ، تشهد بلطف سياسته ، وحسن عطفه على الأهالي ، وشفتته على الرعية ، وهي أن أحد اللذين أراد

أن يفوق إخوانه في الخدمة ، لينال مكانة عالية من أميره ، فجدد في تحصيل الأموال ، وتعالى في طريقته ، فأخذ ما عند الأهالي من المال جملة واحدة ، فضج ضجيجهم ، واشتد صياحهم ، حتى بلغ مسامع وليّ النعم ، فأمر بإحضار المدير ، فلما وقف في حضرته قال له : اذن مني ، فلما دنا منه ، أخذ بمنقه في قبضة يده ، وصار ينتزع من رأسه شعرة ، ومن قفاه شعرة ، ومن عارضه شعرة ، ومن حاجبه شعرة ، حتى جمع في قبضته خصلة من الشعر ، والمدير لا يجد لذلك من الألم إلا أثراً خفيفاً ، ثم إن الأمير انتقل إلى لحية الرجل ، فانزع منها خصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصلة المنفردة ، فنبع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم ، فقال له محمد علي : « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية في جباية الأموال ، إذا أنت أخذت من هاهنا درهماً ، ومن هاهنا درهماً ، أنا بعد الآن ، خفت الوقع على الأهالي ، ولم يدركوا الألم ، وحصلت منهم على مثل المقدار الذي تأخذه جملة واحدة في وقت واحد مع شدة الألم ، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات ، والكمية واحدة ، والألم بينهما مختلف ، فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم إلى الشكوى ، ويبعثهم إلى الاستغاثة » .

(الشيخ العالم) منشداً :

فلا تُكثروا ذكر الزمان الذي مضي فذلك عصر قد تقضى وذا عصر
ورحم الله الماضي ، وأعاذنا من الحاضر ، وأجارنا من المستقبل ، وإني لأراكم أيها
الأمراء ، مهما أسهبتم في محاسن المغفور له وأفضاله ، وأطنبتم في حميد أخلاقه وخصاله ،
فلمستم ببالقي حق الشكر ، ولا موفين بحصيل الذكر ، ويكفيه من الحسنات التي يُقضى
ذكرها عن الإجمال والتفصيل ، وتحكم له بالسبق في باب التمييز والتفضيل ، أنه كان
يقرب العلماء ويعظمهم ، ويدنيه من ويكرمهم ، ثم يقضى حاجاتهم ، ويتبرك بدعواتهم
ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له في أخراه ، بأن له جانباً مع الله ، وأنه نال جزاء
الاحسان ، بسكنى فراديس الجنان .

قال عيسى بن هشام : وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة ، المعروفين

بالمطوّقين أو المزوّرين ، فتقدم إلى رب الدار فقبل يده ، وإلى الشيخ العالم ، فثم ذيله ، ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزءاً من التمر ومشطاً ومُكحلة وسُبحة وشيئاً من الحناء ، ثم قرأ الفاتحة ، وخاطب الأمير بقوله :

(الملك) - قد جئتُك أيها الأمير بالقطعة التي أمرتني باحضارها من الكسوة الشريفة ، وأتيتك بجزء من ثمر النخلة المباركة التي غرسها الزهراء البتول بيدها الكريمة .
(الشيخ العالم) - بعد أن ذاق التمر واستطابه - إيه إيه صدقت أيها الرجل ، ومن كان صائماً فأفطر على ثمر المدينة كتبت له الجنة .

قال عيسى بن هشام : قرأت الباشا يتأفف بجانبى ويذجر ، ويتمهل ويتمسح ، ويهم بأن يتكلم ، فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر ، فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين ، وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا . فنهض من صدق ، ومنهم من كذب ، فتنحجج الشيخ العالم . وأشار فيهم بإشارة الاستماع ، ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) - اعلّموا أنه ليس للمعجزات حد ، ولا للخوارق حصر ، ولا تفكروا على الرجل حياته بعد موته ، فليس من حسن اليقين ، أن ننكر بعثّ الدين ، والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء ، أمر معلوم بلا امتراء ، تخص القدرة به من تشاء ، ببركة الأصفياء والأولياء ، وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء للقطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر الكيلاني » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر في « رسالة حقيقة الحقائق » أن امرأة غرق ولدها في اليم ، وجاءت إلى الغوث الأعظم ، وقالت : إن ولدى غرق في البحر ، واعتقادي جازم بأنك تقدر على رد ولدى إلى حيّاً ، فقال لها رضى الله عنه : أرجى إلى بيتك ، تجدى ولدك في بيتك ، فراح ولم تجده ، فجاءت ثانية وتضرعت ، فقال لها الغوث أيضاً : أرجى إلى بيتك ، تجدى ولدك في بيتك ، فراح ولم تجده ؛ فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع ، فراقب الغوث

وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعي إلى بيتك ، تجدي ولدك في البيت . فراحت ووجدت ولدها في البيت : فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبة : يارب لم أخجلتني مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : إن كلامك حين قلت لها كان صدقاً ، ففي المرة الأولى جمعت لللائكة أجزاء المتفرقة ، وفي المرة الثانية أحيينته ، وفي الثالثة أخرجته من اليم وأوصلته إلى دارها ، فقال الغوث : يارب خلقت الأكوان بأمر « كن » ولم يسبق زمان ولا آن ، وفي وقت البعث تجمع أجزاء المتفرقة التي لا نهاية لها ، وتحشرهم في طرفة عين ، وتجمع أجزاء جسد واحد وإحيائه وبعثه إلى دارها شيء جزئي ، فما الحكمة في هذا التأخير ؟ فجاء الخطاب من الرب القدير : أطلب ما تطلب ، فقد أعطيتك عوضاً من انكسار قلبك . فتضرع الغوث ووضعه وجهه في التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقتي يليق بي الطلب ، وأنت خالق ، فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب : كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً ، إذا نظرت إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لي نفع من هذين ، أعطني شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع في الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسماءك مثل أسمائي في الثواب والتأثير ، ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كن قرأ اسماً من أسمائي .

وروي فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبي العباس أحمد الرفاعي رضي الله عنه قال : « توفي أحد خدام الغوث الأعظم ، وجاءت زوجته إلى الغوث ، فتضرعت ، والتجأت ، وطلبت حياة زوجها ، فتوجه الغوث إلى المراقبة ، فرأى في عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم ، فقال ياملك الموت قف وأعطني روح خادمي (وسماه باسمه) ، فقال ملك الموت : إني أقبض الأرواح بأمر إلهي ، وأؤذيها إلى باب عظمتي ، كيف يمكنني أن أعطيك روح الذي قبضته بأمر ربي ؟ ففكر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليه ، فامتنع من إعطائه ، وفي يده ظرف معنوي كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم ، فبقوة المحبوبة جرّ الزنبيل وأخذته من يده ، فتفرقت

الأرواح ورجعت إلى أبدانها ، فنجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يا رب أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليك عبد القادر ، فبقوة السلطنة والصولة أخذتني ما قبضته من الأرواح في هذا اليوم . فخطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت إن القوت الأعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيت روح خادمه ، وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد ، فتندم هذا الوقت . »

قال عيسى بن هشام . وما انتهى الشيخ من روايته ، حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول ، والفضب باد على وجهه والغيظ يتقد في صدره :

(الباشا) — أعلموا أيها الإخوان أن مغفرة الرحمن ، وسكنى الجنان ، لا تنال بكثرة الصوم ، وأكل التمر ، أو التبرك بالآثار ، والتمحص بالأوراد ، وما تكتسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان ، وفعل الخير واجتناب الشر ، والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله ، وقد غرني في دنياى ما يفرم الآن ، فكنت أسمع قبل مما تى من مثل هذا الشيخ العالم ما يهون على ارتكاب الخزيات ، وفضائح الشرور في معاملة الناس ، ارتسكناً على نهار صومه ، وليل أقومه ، وحرز أحله ، وأثر أقبله ، فمست عن عمل الخير ، وغفلت عن بذل المعروف ، فلما توفانى القدير العليم ، وسكنت في حفرة انقبر ، علمت ما لم أكن أعلم ، فلم يفتنى ذلك وحده من الله شيئاً ، وما خفف على أهوال القبر ، وهون على سؤال الملك ، إلا حسنة واحدة كمت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارنى فأجرته ، وهو فى يد الجلال بين السيف والنطم ^(١) . فعليكم بالعدل والإحسان ، وتقوى الله في عبادته ، وافشاء البر والمعروف في خلقه ، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء ، فتركتموا إلى الاغترار بالأمل ، وتطلبوا المغفرة بلا عمل ، بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل ، وتذكروا قول الله الأجل : « وَمَنْ مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » ، واعتبروا بقول على رضى الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والضيق ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء » . واسمعوا قول حكيم الشعراء :

(١) النطم بالفتح والكسر : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس

ما الخير صومٌ يذوبُ الصائمون له ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسد
وإنما هو تركُ الشر مطرَحاً ونَقْضُكَ الصَدْرَ من غلٍّ ومن حَسَدٍ
ولا يستقيم أمرُ المسلم إلا إذا جمع بين فرائض المبادات وحسن المعاملات .

(الشيخ العالم) — إني لأخالك أيها الرجل شيطاناً في زىِّ إنسان ، وزنديقاً يستتر
بدعوى النشور من القمور ، تعساً لهذا الزمن ما أكثر أضرابيه ، ونوساً له ما أعظم أباطيله ،
ولم يبق علينا من مُدْخَرَاتِ عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره ، فيخبرنا بما رأى وبما سمع .
(صاحب الدار) للباشا — سألتك بالله أن تخبرني بأية لغة كان سؤال الملاكين لك ،
أبا العربية ، أم التركية ، أم السريانية ، فإن هناك اختلافاً وأقوالاً بين العلماء .
(الشيخ العالم) — ناشدتكُم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه ، فإنه فتنة
من قن إبليس اللعين ، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

قال عيسى بن هشام : فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس ، وهو يهدر ويغلي ،
ويستعبد ويستعدي ، فانخرط وراءه ، وأنا أذكر قول عمر رضي الله عنه في مثل هذا
الشيخ الفليظ البدين : « إن الله يكرم الخَيْرَ السمين » ، وأردد قول أبي ترابٍ كرم الله
وجهه : « أشكو إلى الله من معشر يمشون جهالاً ، ويموتون ضاللاً ، ليس فيهم سبعة
أبور من كتاب الله إذا نُصِّلَ حقٌ تلاوته ، ولا سلمة أنفقَ يوماً وثمناً من الكتاب إذا
حُرِّفَ عن مواضعه ، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر » .

ولحق بنا البيطارُ في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقياً في المجلس ينادياننا ، فوقفنا
لهما ، فتقدم التاجر إلى الباشا وقال على يده يقبلها ويقول له :

(التاجر) — أشهد الله أيها المولى أنني مصدق بأمرك ، وليس بمد العيان من برهان ،
وما أخطئ نظري فيك ، فأنت سيدى الباشا بعينه ، وأنت صاحب اليد التي أتذكركها
طول عمري ، وما بي من نعمة منك ، وما أصبحت فيه من ثروة قبيمتك وفضلك ، ولست
أنسى أن أصل شهرتى واتساع تجارتي هو أنك جلست في دكاني مرة عندما عثرت بك
رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين ، فارتفع بتلك الجلسة قدرى ، واشتهر ذكرى ، وأقبل

على الناس من دون التجار ، لتوهمهم في أن لي رحابك صلة ، وبجانبك نسبة ، فأصبحتُ
ولله الحمد في غنى ومال كثير ، وقد بلغني من أحد أعاظم ما أنت فيه من الحاجة إلى
الدرهم لأجرة المحامي التي جاءت بك إلى هذا المجلس ، ولكنك أنفقت من ذكرها عندما
غضبت الله ، وأنا أتضرع بخالق الخلق أن تنازل فتقبل مني ما تسد به حاجتك ، وتمخلص
به من مطالبة المحامين .

(وأخرج التاجر كيساً مملوءاً فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد ، فأخذه
الباشا وقال له) :

(الباشا) — إني أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك ، وأسأل الله لك حسن الجزاء ،
فهلم أكتب لك صكاً بالمال لأردّه إليك عند استرداد أوقافى .

(التاجر) — حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يشق بعضهم
بعض ، فلا يأمن الأخ أخاه ، ولا الوالد ولده ، ولا الصاحب صاحبه ، ولا الجار جاره على
درهم واحد إلاّ يعقود وصكوك ، بل أنا لا أزل من أهل ذلك الزمن الذي لم يكن يتعامل
التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان ، دون احتياج إلى تحرير الأوراق ، وتسطير الصكوك ،
وما يكون الاستيثاق إلا عند توثم الخيانة والعياذ بالله .

قال عيسى بن هشام : فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لي : انصرف بنا إلى
المحامي ، فسقنذ رقابنا من أسره ، ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف فقالت له :
لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقوقنا ، فما نخرج من قبضة محام ، إلا إلى قبضة محام ،
ونسأل الله السلامة في الختام .

المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام : وأخذت طريقى ، مع رفيقى ، أنشد صاحباً أسترشده ، فى محام شرعى أقصده . وبينما نحن نسير ، ونسأل الله التيسير ، إذا بصاحب لى عرفته ، فاستوقفته ، قال : ما خطبك ؟ قلت : قضية ، فى المحكمة الشرعية ، فاطرق أنبلر سمعة ، حتى أجرى دمه ، وهول الأمر وهولت ، وحوقل وحوقلت . ثم قال : لقد وقعت قبلك فى هذا البلاء ، ولما تيمت لى النقاهاة من الداء ، وأنا أنصح لك إن كنت مدعياً أن تترك دعواك ، وتصبر على بلواك . أما إن كانت الدعوى عليك ، فليس اختيار إليك ، ولأمرد لحكم القضاء ، بتدبير الآراء . فقلت : للضرورة أحكام ، فأرشدنى لانتخاب محام ، يكون مشهوراً بصدائه ، مشهوراً بطهارته ، بعيداً عن خلف الوعد ، بريئاً من خلق الوغد^(١) ، لا يتفق مع الخصم ، ولا يسرق من « الرسم » ، قال : اطلب من أنواع المجال ، أن يحمل الضر الجبال ، ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط ، فينتهى بك الأمر إلى اليأس والتمنوط ، ولحاولة الارتقاء ، فوق متن العتقاء^(٢) ، أيسر من ذلك مطلباً ، وأوسع مذهباً ، وأقسم لك بخالص الود ، أنى لا أثق منهم بأحد ، وكيف تكافى أن أنتقى لك ذنباً من الذئاب ، وأحل على كاهلى عبء اللوم والعتاب ، فأعفى من هذا الاختيار والانتقاء ، عافاك الله من جميع الأصواء ، ثم ما لبث أن خلفنى ومضى ، وتركنى على مثل جمر الفضى . فسرت كثيراً حزينا ، أبغى سواه مرشداً ومُعِيناً . ولما لم أجد من أصحابى من يكمل على عهده ، باختيار محام يؤثق بدمته ، قصدت أحد المعلمين عندى بكثرة الخصومات ، وطول المحاكمات ، فكاشفته بطليقتنا ، ليكشف من مصيبتنا . فقال : اعلم أن المحامين الشرعيين أجناس وصنوف ، فمنهم البصر ، ومنهم السكوف ، وفيهم - كتب الله لك السلامة - صاحب « الطربوش » ، وصاحب العمامة ، وأدلك على أهونهم شراً ، وأقلهم ضرراً ، وأخفهم رزيةً وبليةً ، وأكثرهم علماً بالخليل

(١) الوغد : الرذل الدنى . (٢) العتقاء : طائر مجهول الجسم لم يوجد .

الشرعية ، فعليك بفلان ، وبيتُهُ معلوم ، في منتهى « حارة الروم » ، فقصدنا البيت
نشق طُرُقاً مُعْجِنة ، ونحترق ثَمَنَاتٍ مزدوجة ، إلى أن اتهمنا إلى باب دار ، كأنها مطلية
بالقار^(١) ، أسورت بأكوام من الأقدار ، وتلفعت بشلال من الأوصار ، ورأينا عند مدخل
الباب ، صبيةً يلعبون بالتراب ، ومن بينهم طفلة تجتمع على وجهها من الذباب ، مثل
البرقع تمقمت به قبل أوان النقاب ، ولما تخطيناهم عشتنا رائحة المرحاض ، فاستندنا
هناك على هضبة أنقاض ، بجانبها مذود أتان ، بزاحها عليه إوزتان واطنان ، ثم
اقتدينا إلى حجرة في جهة اليمن ، فرأينا أمامها قرناً ينادى : « العجيب » « والأجرة » ،
فسأناه عن رب الدار ، فأشار إلى الحجرة ، فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطي بالغبار
والحصباء ، ومتكئاً تعرى من الفراش والغطاء ، وفي زاوية من زوايا المكان ، سراج
لا ينفذ نوره من نكائف الدخان ، وفي أعلى رفوف الرواق ، أحبال كتب وأوراق ، قام
لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد ، وألصقتها الرطوبة لحفظتها من التوزيع والتبديد ،
وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد ، وفي بياض الحائط تسويد ونخطيط من لعب
الأولاد ، وبصرنا برجل :

تَمِيرُ حَيَاوُهُ شَيْبَهُ فهل غَبَرَ الظَّهْرَ لِمَا نَحَى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة ، وعن يساره امرأة كأنها السَّعْلَةُ^(٢) . فسمعناه
يقول لها في تسبيحه : « أنستكثيرين - أدر الله عليك خيرته ، وأبد لك زوجاً غيره -
ما أخذته منك لاستنباط الحيلة في التفريق ، واستخراج الحسك بالتطبيق ، فأبعدت
عنك زوجاً تكرهينه ، لتبدلي منه زوجاً تحبينه ؟ » ثم إنه أحس بدخولنا من ورائه ،
فارتدَّ إلى اتصال تسبيحه ودعائه ، وانفضت المرأة فتنقبت بخمارها ، وتلفحت بإزارها ،
وخرجت وتركتنا مع رجلٍ يخذع الأنام بطول صلواته ، وينلو سورة الأنعام في ركعاته :
إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

وجلسنا مدة نتظر خلاصه من هذا الرياء ، وخلاص المالكين من صحيفته السوداء ،

(١) القار : الزيت . (٢) السَّعْلَةُ : الغول .

وخلصنا من هذا الكرب الممّاء ، وكنا نشاهد منه في خلال ذلك نظراتٍ مختلّساتٍ نحو الباب ، كأنه هو أيضاً في انتظار وارتقاب ، إلى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به : إلى متى هذه العبادة ، فقد بليت السجادة ، وحاجات الناس موكولة إليك ، وقضاء مصالحهم موقوف عليك ، وهذا دولة « البرنس » ينتظرك في الفصر ، منذ العصر ، دَعِ مدير الأوقاف ، و« نقيب الأشراف » ، فلم يَمِأ المصلّي بهذا الكلام ، بل جهر بالآية من سورة الأنعام : « قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكُي وَنَحْيَايَ وَمَا تَى لِلّهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، جلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق ، واشتد بنا الضجر والقلق ، فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء ، ولهذا التسبيح انقضاء . وهمّنا بالقيام ، فالتفت الشيخ للغلام ، وأشبهه من التائب والمالم ، ثم حيّانا بأنطف سلام ، وقال : بارك الله فيكم وعليكم ، وأنا في الخدمة بين يديكم ، فقلنا : عَلِمْنَا أَنَّكَ رَجُلٌ عَدْلٌ عَفٌّ ، فحُثْنَاكَ لِقَضِيَّتِهِ فِي وَقْفٍ ، فَقَالَ الْغَلَامُ : أَتَطْلُبُونَ رِيعَةً ، أَمْ تَرِيدُونَ بَيْعَةً ؟ فَقُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَهَلْ تُتَبَاعُ الْأَوْقَافُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَبِيعَاجُ جِبِلِّ قَافٍ . ثُمَّ تَفَنَّنَحَ الشَّيْخُ وَسَعَلَ ، وَبَصَقَ وَتَغَلَّ ، وَتَسَعَّطَ ، ثُمَّ تَمَخَّطَ ، وَاقْتَرَبَ مِنَّا وَدَنَا ، ثُمَّ قَالَ لَنَا :

(الحامى) — دَعُونَا مِنْ هَذَا الْغَلَامِ ، وَثَوَّلَا لِي مَا حَقَّكُمْ فِي الْوَقْفِ ، وَمَا شَرَطَ الْوَقْفُ ، وَكَمْ يُقَدَّرُ ثَمَنُ الْعَيْنِ لِقَدَّرَ « قِيَمَةُ الْأَنْعَابِ » بِحُسْبِيَّةٍ ؟

(عيسى بن هشام) — إِنْ لَصَاحِبِي هَذَا وَقَفًا عَاقَبْتَهُ عَنْهُ الْمَوَاتِقُ ، فَوَضِعَ سِوَاهُ عَلَيْهِ يَدَهُ ، وَتَرِيدُ رَفْعَ الدَّعَاوَى لِرَفْعِ تِلْكَ الْيَدِ .

(الحامى) — سَأَلْتُكَ مَا قِيَمَةُ الْعَيْنِ .

(عيسى بن هشام) — لَسْتُ أَدْرِي عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَاسْكَنْهَا تَبَاعُ الْأَلُوفِ .

(الحامى) — لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ مُقَدِّمُ الْأَنْعَابِ حِينَئِذٍ عَنْ الْمِائَاتِ .

(عيسى بن هشام) — لَا تُشْطِطُ أَيْهَا الشَّيْخُ فِي قِيَمَةِ الْأَنْعَابِ ، وَارْفُقْ بِنَا ، فَإِنَّا الْآنَ فِي حَالَةٍ عَسِرٍ وَضِيقٍ .

(الغلام) — وَهَلْ يَنْفَعُ فِي رَفْعِ الدَّعَاوَى اعْتِذَارُ بِاعْسَارٍ ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ هَذَا شَفْلٌ لَـ

« اشتراكات » والكتابة والمخبرين « تطلعات » ، وأنى لكما يمثل مولانا الشيخ
يضمن ربح الدعوى ، وكسب القضية ، بما يهون معه دفع كل ما يطلبه في قيمة أنما به ،
وهل يوجد مثله أبداً في سمة العلم بالخييل الشرعية ، ولطف الخيلة في استمالة محامي الخصم ،
وانتجلاب غناية القضاة ؟

(عيسى بن هشام) — دونك هذه الدراهم التي معنا فخذها الآن ، ونكتب لك صكاً
بما يبقى لحين كسب القضية ، وليس بفونك شيء من ذلك ، مادام ربحها مضموناً لديك
على كل حال .

(المحامي) — بعد أن استلم الدراهم يمدّها — أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن
ابتغاء ما آخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين ، وعليك بشاهدين
للتوكيل .

(عيسى بن هشام) — وبأية طريقة يكون التوكيل .

(المحامي) — يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلان
بن فلان بن فلان وكل فلان بن فلان بن فلان « في المرافعات والمدافعات والمخاصمات
والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفي المطالبة والدفع والإقرار وكل ما يصح فيه
التوكيل شرعاً وفي أن يوكل عنه في الدعوى غيره وأن يعزله وأن يفعل ذلك . راراً
وتكراراً كلما بدله فله لثرة بعد المرة والكرة بعد الكرة » وأما أنتظر حضوركما غداً
مع الشاهدين ومستند الوقف .

(عيسى بن هشام) — ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه .
(غلام المحامي) — هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها ، وإليك تعرف
قيمتها ، ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدي الحق .
(عيسى بن هشام) — وليس في يدنا أيضاً مستند للوقف .

(المحامي) — أما جهة المستند فينبغي استخراج صورة من السجل « اللسان » (كذا)
وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية .

قال عيسى بن هشام : وعند ذلك قطع الشيخ الحامى كلامه ممنا ، واستقبل القبلة وجهه يتنفل ويتبتل ، فقمنا للانصراف ، وسرت مع صاحبي ، وأنا غريق في الأفكار ، أتدبر وأعتبر ، وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكونه ، وحسن احتماله وصبره ، بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب ، يرى القتل واجبا لأدنى هفوة وأقل سبب ، فأصبح بفضل وقوعه في هذه الخطوب المتتالية ، والرزايا المتتالية ، اتين العريكة ، واسع الصدر ، موطأ الكنف ، كثير الاحتمال ، حتى أنه لم يأنف ولم يتأف من كل ما رأيناه في يومنا هذا ، بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناس أثناء التماثل معهم ، وازدادت يقينا بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وترقيتها على التماثل بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ، ومصارعة النوائب ، وأن أسوأ الناس أخلاقا ، وأكثرهم عيشا ، هم هؤلاء الأغمار^(١) ، المنعمون المترفون ، الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحداث ، ولم تهذبهم صروف الأزمان ، ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) — قلت لي إن الحامين الشرعيين فيهم صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة ، فهل تراهم جميعا على هذا النمط الذي شاهدناه ، أم بين الفريقين فرق ؟
(عيسى بن هشام) — اعلم أن الخيرة في الواقع ، والحمد لله على كل حال ، فإن فيهم تحت « الطربوش » من هو أشد فتكا من ضواري الوحوش ، وأعرف طربوشا منهم أقسم أمامي بالطلاق ثلاثا من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها في حياته على إنكار كلام نطق به في مجلس كنت حاضره ، إرضاء لأحد أرباب القضاة ، وبغضا لخلاق الهرايا ، واستهانة بحكم الشارع ، واعتدادا على قول الشاعر :

وإن أحلفوني بالطلاق أتبتها على خير ما كننا ولم نفتقر
وإن أحلفوني بالعناق فقد درى عبيد غلامي أنه غير معتق

(١) الأغمار : جمع غمر وهو الجاهل الأبله .

قال عيسى بن هشام : ومضت علينا الأيام ، ونحن نقصد الشيخ الحامى فى كل يوم ، فلا تتمكن من لقائه ، فان ذهبنا إليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحسكة ، وإن ذهبنا إلى المحسكة قيل لنا إنه فى القصر القلانى أو القصر القلانى من قصور الأمراء والكبراء ، حتى خفيت الأقدام ، وملانا الاصطبار . فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثالث الأخير من الليل ، فنصطاده عند خروجه ، وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانه ، فتقدمت إليه ، فقال لى : أرجو المسامحة فى هذا الأخير ، فالدنب فيه لكثرة مشاكل الأمراء ودعائهم ، فتقبلنا عذره ، وتوجهنا معه إلى المحسكة ، فذهب بنا إلى « كاتب الإشارات » ، فوجدناه جالساً يلعب فى ثيابه ، من حرة الخداء فى رجله ، ورقة الجبة على كتفه ، وصفرة الحزام فى خصره ، وبياض العمامة فوق رأسه :

تعددت ألوانه كأنه قوس قزح

وكان الشيخ الحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اختاره لنا ، فنظر الكاتب إلى الشاهد نظرة المتوقف ، وقال إنه شاب صغير السن ، وإنه وإنه ... قال عليه غلام الحامى ، وألقى فى أذنه بعض القول ، فقام معنا من فوره إلى قاضى الجلسة لسماع الإشهاد بعد أن قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الإشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف : يجب بعد هذا أن تقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل ، وأن نوضح فيها مرة الوقفية وتاريخها ومن « عملية » من هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) ، فخرجنا نبحث عن أحد أغا البيطار ، لعله يعرف طريقة توصيلنا إلى مطلوبنا ، فمئنا عليه وأعلمناه بمرضنا ، فقال : إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية ، كنت تحصات عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حتى فى ربيع الوقف . ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة ، فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ، ولم يُذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » ، فقصدنا غلام الحامى ، وتوجهنا معه إلى المحسكة ، فكتبنا العريضة ، وقدمناها لحضرة القاضى ، فوضع عليها إشارة لحضرة الباشكاتب ، ليتحرى عن

مسألة « الشأن » ، وطلبوا منا شهوداً يُشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا
ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف ، وأن سواه وضع يده عليه ، فأدركتنا
الحيرة في الأمر ، فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد أن قال لنا : وهذه
الخطوة الرابعة في تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب في العريضة ، ووجد أننا لم نبين
فيها اسم الكاتب صاحب « العمالية » ، قال لنا : إنه لا يمكن الاهتداء في الدفترخانة
بدون ذلك ، وإنه لا بد لنا من انتظار السنين والأعوام ، حتى يمكن العثور على صورة
الوقفية في السجل بالثمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة ، فقال لنا الغلام : لا نحزننا فأنا
أساعد على سرعة الإنجاز ، وأتوجه معكم إلى الدفترخانة إن شاء الله ، وهذه هي الخطوة
الخامسة في تكاليف القضية . وما زال الخبيث يعد لنا الخطوات ، ونعد له في كل خطوة
درهمات ، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر ، وأن يعجل بانقضاء
القضية قبل انقضاء العمر .

الدفتر خاتمة الشرعية

قال عيسى بن هشام : وعكفنا زمناً نشدت في الطلب ، والحامى يشتد منا في الحرب . فلما طال علينا الأمد في ارتياده ، وبسنا من الحافى واصطياده ، انتقلنا للبحث عن غلامه ، حتى قبضنا على زمامه ، قرأنا الحديث يُصَّغَب في الأمور والأحوال ، انسترضيه بالمطام والنوال ، وقال لنا : أقول لك الحق ، والحق أقول ، إنه ليس من المتصور العقول ، أن نهتدى في هذه القضية ، إلى صورة الوقفية ، بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها ، دون الوقوف على اسم محررها وكتابتها ، ولا يحول في الخواطر والأوهام ، أن يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام ، من غير وحي أو إلهام ، إلا بعد كثر السنين ومَرَّ الأعوام ، وإن اعتراكما بعض الشك أو الريب ، ولم تصدقا بظهور الغيب ، فهلمّا معي أطلّمكما على ما يزول معه اللبس ، وتقتنع به النفس ، فقيّدناه بقيود الترغيب والتأميل ، وأعطيناه ما يحضرنا من كثير وقليل ، فانطلق أمامنا يثب ويحجل ، حتى دخلنا بيت السجل ، فلما جاوزنا الباب ، حيث يجلس الكتّاب ، ألقينا خشباً مُسَدَّة ، على خُشْب مُوطَّدة . وهما كلٌّ تقرش القراء ، فوق الأقدار والأفداء ، لا تميز منهم وجه إنسان من إنسان ، لَشَبَةِ البصر من ظلمة المكان ، فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرسم ، وأكر راجعاً ينتظرنا في ضوء الشمس ، ثم مال الغلام إلى أذن أحدهم يكلمه ، بما لا أعيه ولا أفهمه ، فبادر الرجل بالتهوؤ والقيام ، وسار بالغلام ، وأنا في عقب الغلام ، فلما خطونا بضع خطوات ، حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار ، وتجللنا من حِنْدِس^(١) الليل بحجبٍ وأستار . فوقت لا أبصر ولا أهتدي ، فأخذ الغلام بيدي ، وقد عميت على وجوه المسالك ، في هذه الخواف والمهالك . وسرت فوق أرض تَهَشُّ تحت القدم وتكين ، كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد في الطين ، وما زلنا تمشي في أنحاء تلك المظورة^(٢) ، على هذه الصورة ، حتى تخيلت أنتى في قبور قدماء المصريين ، أو في هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين أو في طريق الامتحان

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

(٢) المظورة : الحفيرة تحت الأرض .

عند أحرار البنائين ، فوجِبَ القلب ^(١) ، من شدة الرعب ، خشيةً أُحبولةً نُصِبَتْ ، أو مكيدةً رُبِّتْ ، ووجهت ، ثم أحمجت ، وقلت للقلام : ليس ينفنا ما يوجب الاحتيال ، أو يدعو للاغتيال ، وماذا تريد مني في هذا الغيب ^(٢) ، وليس معي من فضة ولا ذهب ، ولا من شيء يستلب أو يُنتهب ، فقهرته الفاجرُ ثم أقسم بالله وثني بالطلاق ، أنا نسير في أمان بين غرائر ^(٣) الدفاتر ولغائف الأوراق ، وقال : كن آمناً مطمئناً على نفسك ، وسرني الحقيقة بعيني رأسك . وما كاد الشقي يتم لي هذه العبارة ، حتى عثرتُ قدسي في لغافة فوقعت على غرارة ، وإذا بصائحٍ بصيح من تحتها متبرماً متأففاً ، ويقول لي متعظراً متعجرفاً : ما هذه العشاة يا عديم الإبصار ، ونحن لا نزال في أديم النهار ؟ ففقت متثاقلاً متسانداً ، وقلت في نفسي منشداً :

دجى تنسابه الأشيلة فيه فيجهلُ جنسها حتى يصبحاً

ثم تأملت ، فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته ، بذيلٍ مئزره أو جُبته ، فتولأني الخوف والوجل ، وقلت : من الرجل ؟ فقال القلام : كاتب من كتبة « السجلات » ، ينش عن أوراق في « سجل الأيلولات » ، فقلت : وكيف يهتدي لذلك ، وسط الظلام الحالك ؟ فقال : أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء ، فصاروا كأنهم يمشون في سواد الظلام :

ولو سار كلُّ الورى هكذا لما حسدَ العُي من ينصرون

ثم انعطفتُ من ذات اليمين إلى شبه قاعة ، يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة ^(٤) ، وإذا هو لساب الشمس ^(٥) يسيل من ثقب ، في سقف أُلجب ، وهو يتموج بأنواع الجراثيم ، تموج الماء بالهشيم ^(٦) ، فقلت أن يحجز الفلك الدوار — أريد بها شمس النهار — خشيت أن تضل في ظلمة هذه المغارة ، فاتخذت لها من لعبها عكازة ، تمسكاً عليها للاهتمام :

(١) وجب القاب وجباً : رجف وخفق (٢) الغيب : الظلمة

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهي الجوالق (٤) اليراعة : النبابة

(٥) لعب الشمس : شيء كأنه يتصدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت

(٦) الهشيم : نبت يابس منكسر

وتدبُّ بها في هذا الغمام ، فسحَّتْ على بصرى ، وأحدقتْ بنظري ، فأبصرتُ وماذا أبصرت ،
ونظرتُ وماذا نظرت :

ما إن سمعتُ ولا أُراني سامعاً أبداً بصحراءٍ عليها بابُ
نعم رأيتُ فضاءً متسعاً ، تَرَأَى فيهِ من الأوراقِ الرثينة ، والدفاترِ البالية ، مثلُ الرُّبَى
الشاهقة ، والأَكَمَاتِ العالية ، غير أن هذه تُثمر وتُجنى ، وتلك تَمُتُ وتَبْئَلُ ، هذه
تكون مخضرةً مخصبةً ، إن جادها الحياءُ أينعتْ بالغضِّ من النبات ، وتلك سوداء مجذبة ،
إن بلَّتها الرطوبةُ اهتزتْ باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تَبْسطُ في خدِّ الثرى ورقاً كما تنشرُ في حافاتها البسطُ
والريحُ تَبْعَثُ أنفاساً مُطرَةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ مُختلطُ
وهذه تَبْسطُ فوق الثرى ورقاً لكنه لليلِ والعُتِّ منبسطُ
وَرِيحُهَا تَوْرِثُ الأسقامَ ناشِئاً كأنه من ترابِ القبرِ يستعطفُ (١)

وما لبث أن استبان لي شخص الكاتب المرافق لنا في لحظة ذلك السنأ ، فإذا هو قصير
القامة كبير العامة ، ذو وجهٍ مقنعرٍ بالاصفرار ، وعين مكثولة بالأحمرار ، وقد طوى من
خلفه الجبة ، ورفعها على ظهره كالجمبة ، وفي حزامه دواة من نحاس أصفر ، وبين طيات
العامة أوراق بالتحوير يخ « والنمر » ، فاستعدتُ بالله من الشيطان الرجيم ، وقلت لذلك
الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) — هلم بنا أيها المرافق إلى الباب ، لنعود إلى ضياء الحياة ، فقد
بُست من أمرنا ، وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث في هذا اللج القامس (٢) ،
والليل الدامس (٣)

(غلام الحامي) — لا تنكرن على مثله الاهتداء في دياحي الظلماء ، ولا تهولنك
سنت الدفاتر وتراكم الأوراق ، فهي مرتبة في حافظته ترتباً انطباع فيها من طريق

(٢) القامس : البعيد الغور

(١) استعطف الدواء : أدخله في أنفه

(٣) الدامس : الشديد الظلمة

الورثة عن أبيه وعن جدّه . فلا تخفى عليه مواقعها ، كما يتوارث رؤساء « البوغاز » في الاسكندرية هداية السفن عند دخولها ، بما علموه عن آباؤهم من مواقع الأرض في قاع البحر ، ولو كان معنا اسم الكتاب لتسهيل البحث ، ولو صلنا إلى الغرض .

(الشيخ الكاتب) — نعم لا تنكر علينا — بارك الله فيك — اهتداءنا للبحث في هذه الأوراق ، والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة في ذهني منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب ، فهي مقسمة إلى عدة سجلات ، منها « سجل الباب العالي » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير الموروثة . ومنها « سجل القسمة العسكرية » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة الموروثة . ومنها « سجل الأيولات » ، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة شخص أو تباع بالمراد . ومنها « سجل الاعلانات » ، تسجل فيه المواد التي تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أي نوع كان ، ومنها « سجل التقارير » تسجل فيه تقارير النظار وقضاة وغيره ، ومنها « سجل الوقفيات » ، وتسجل فيه نفس الوقفيات ، ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق .

(عيسى بن هشام) — سبحان القاطع الوهاب ، ومن يهدينى إلى طريق الباب !! (الشيخ الكاتب) — ومنها « سجل الديوان العالي » ، تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتواية القناصل وعزلهم ، والاعلانات الصادرة من مجلس استئناف مصر في الهيئة التي يحضرها القاضي الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » ، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين .

(عيسى بن هشام) — اللهم ارفع عنا الأذى والمقت ، وهلم فقد ضاق بنا الوقت . (الشيخ الكاتب) مسترسلاً — . . . ومنها « سجل إسقاط القرى » ، يسجل فيه ما يأخذه الأمراء ويعطونه من الأطنان والقرى . وليس يخفى أنه كان في مدينة مصر محاكم شرعية سياسية ، وكانت السيطرة عليها للقاضي من قبل السلطان ، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) ، وكانت مراكزها في جهات : « باب الشرعية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . . .

(عيسى بن هشام) — يكفي أيها الشيخ ، فقد وجب الرحيل ، ولا حاجة بنا إلى هذا التطويل والتفصيل .

(الشيخ الكاتب) ممدداً — وفي جهات « درب سمادة » و « باب الخلق » و « الصاحبة » و « النجمية » و « أحمد الزاهد » و « البرشمية » و « مصر القديمة » و « بولاق » و « جامع الصالح » و « جامع الحاكم » . . .

(عيسى بن هشام) — تبارك من له الأسماء الحسنى ، ومن يعيدني إلى الحياة الدنيا .
(الشيخ الكاتب) — ... ثم « محكمة الباب العالي » ، وهي المحكمة الكبرى وقاضيا هو المسيطر على الجميع الموثق من القسطنطينية و « محكمة القسمة العسكرية » ، وقاضيا يعين كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ، ويسمى القسما وشغل المواريث بأنواعها فقط ، و . . .

(عيسى بن هشام) للسلام — لقد ملّ ممعى ، وضاق ذرعى ، فأخرج بنا وأقذفني من شر هذه الدار ، ومن ثثرة هذا الشيخ المهذار .

(الغلام) — لا تضجر ولا تقط ، وأنظرنى قليلاً ، حتى أستشير رأى الشيخ ، لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة . وفرجاً للكربة ، (ثم مال على الشيخ منفرداً به ، فسمعه يقول له) :
(الغلام) — مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها ، وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً ، وأصحاب القضية من كهراء الناس أهل الباحة والكرم .

(الشيخ الكاتب) — مهلاً فقد كدت أنذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر الباحة والبهذل ، فإن لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ، ولا يزال للخلع التي خلعت على كاتبها بقايا إلى اليوم عند أهل وذريته ، وهو المرحوم الشيخ فلان ، فدونك وأصحاب القضية فأنق مهم لوضع هذا الاسم في ورقة التمرة والتاريخ ، وجئني بها نافعة تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين .

(الغلام) لعيسى بن هشام — قد تيسرت الحال ياذن الله ، ووصلنا إلى معرفة اسم الكاتب الذى نستخرج به الصورة ، والرأى لك في هذه الخطوة السادسة .

قال عيسى بن هشام : ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه ، حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات إلى النور ، فَجَهِرَتْ^(١) عيني وسَدَرَتْ^(٢) فلم أبصر في الشمس عند الباب إلا بعد التردد مراراً بينها وبين انظلام . ولما التقيت بالباشا في الموضع الذي كان ينتظري به ، سألتني عن طول هذا الغياب ، فلم أريد أن أضيف إلى مضائيد مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه ، بل كتتمته إياه ، وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يبشر وُضِعَ اسم الكاتب في الورقة ، ويعود في اليوم الثاني إلى الشيخ الكاتب ليأيننا بصورة الوقفية ، بعد أن نقدناه مانقذناه .

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ، ونحن نتردد على الدفترخانة ، تارة في صحة الغلام ، وتارة بدونه ، إلى أن حل الأجل ، وآت الأوان ، فجهأنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ، ففرحنا فرح الفواص بدرة التاج ، تحت تلاطم الأمواج ، ونهضنا معه إلى الدفترخانة ، فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يقيه إيجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع قصر الوقت ، ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجدد ، فحمدناه على همته العالية وصنعه الجميل ، فأخرج من تحت إبطه أوراقاً بالية متخرقة متأكلة ، لا تسوى منها ورقة مع أختها ، فيها سطور متقطعة ، وخطوط متوزعة ، لا يستطيع أن يحلها إلا مَنْ كان عرباً في كشف الرموز وفكّ الطالسم ، فقلت له : إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم شقة وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة ، فقال لي : إن كثرة التعمود تبسر العسير ، وتهوّن الصعب ، وقد ورثتُ عن المرحوم والذي أيضاً قراءة هذه الخطوط ، وتلقيق مارث من أواخر السطور ، والعبارة واحدة لا تتغير تقريباً في كل باب من أبواب السجلات ، ورأيتُه يستعمل ليسترسل في أبواب الشرح والوصف ، وخفتُ أن تشد به نوبة الهذر والإكثار ، فودعته وانصرفنا ، وكلفنا غلام الحامى أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائهما ، فطلب منا أن ندفع « رسمها » ، وأن تأتي بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ، ووعدنا بأنه ينوب عنا في اجتلابهما ، بعد أن طالبنا بالكفاة الواسعة ، على هذه الخطوة السابعة .

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .

(٢) سدرت : تخيرت .

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام : ولما صارت في يدينا الصورة ، بعد تلك المواقف المذكورة ، خطأ غلامنا الثامنة من خطواته ، في بعض روحانه إلى المحكمة وغدواته ، فذهب إلى كاتب « الطلبات » ، لتحديد إحدى الجلسات ، ثم عاد فيشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس ، على أن تكون الجلسة في يوم الخميس ، وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم ، في الوقت المعلوم ، فأقننا أياماً نملل النفس بالأمل ، حتى حل هذا الأجل ، وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحامي ولقائه ، بعد طول احتجابه عنا واختفائه ، ورزى أن يتوجه معنا إلى المحكمة ، ليكشف عنا بيمينه كل مظلمة ، فسرنا جميعاً بقصد بيت القضاء الشرعي ، والحكم المرضي ، والعدل النقي ، بوحى الإله وسنة النبي ، حيث تقام منابر الهدى ، وتناد منائر التقى ، وينبجج نور الحقيقة والعدالة ، وتتكشف ظلمة البدعة والضلالة ، ويؤخذ من الظالم المظلوم ، وينتصف من الحاكم المحكوم ، ويسار على الصراط السوي ، في الحكم بين الضعيف والقوي ، حيث تتحد المواقف والأقدام ، وتستقيم الأوامر والأحكام ، وتغدو فيه الكلى ربة الأيتام ، أعز من الفارس رب الرمح والحسام ، ويصبح الأعزل الشاكي ، أقوى من المدجج الشاكي ^(١) ، ويتساوى لديه رب الشوبهة ^(٢) والبعير ، رب التاج والسرير — نعم حيث يكون المقعد الموروث ، عن النبي المبعوث ، وحيث يعمل بالسنة وآي الكتاب ، فينتصر للذليل على العزيز ، ويقتدى فيه نارة بسيرة عمر بن الخطاب ، وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وحيث يكون مقر المهابة والجلال ، ومصدر الوفاق والكمال ، وموضع الطهارة والأمانة ، ومنبع العفة والصيانة ، وقبلة القنوت والخشوع ، ومقام الطاعة والخضوع .

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة ، وجدنا ساحتها مزودة بالمركبات ، تحجزها الجياد الصاهلات ، ويجانبها الرافعات من البغال والحمير ، عليها سُرج الفضة والحريز ، فحسبناها مراكب لعظماء

(١) المدجج : اللابس لسلحه وكأنه تغطي به . والشاكي : التام السلاح .

(٢) الشوبهة : تصغير الشاة وهي الواحدة من الغنم .

والأمراء ، في بعض مواكب الزينة والبهاء ، وسألنا لمن هذى الركاب ، فقيل لنا إنها لجماعة
الكتاب ، فقلنا سبحان الملك الوهاب ، ومن يروق بغير حساب ، ونحو ما نحو الباب ، في
تلك الرحاب ، فوجدنا عليه شيخاً حنّ ظهراً السفون ، فتخطّته رُسُلُ المَنُون ، قد
اجتمع عليه العَمَشُ والصَّعَم ، ولج به الخَرْفُ والسَّهَم ، وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء ،
من نوازل القضاء ، ثم صعدنا في السُّلَم ، فوجدناه مزدهجاً بأناس ، مخنّفي الأشكال والأجناس ،
يتسايئون ويتشائمون ، ويتلاكهون ويقلاطهون ، ويبرقون ويرعدون ، ويتساقطون
ويتوعدون ، وأكثرهم أخذ بعضهم بتلابيب بعض ، يتصادمون بالحيطان ويتساقطون
على الأرض ، ومازلنا نزاحم على الصمود في الدَّرَج ، والماثم تتساقط فوقنا وتتدحرج ،
حتى مَنَّ الله علينا بالفرج ، وبُسِّر لنا المخرج ، في وسط هذا الجمع المتلاصق ، والمأزق
المتضابق ، ووصلنا إلى القاعة السفلى ، فوجدنا عندها امرأة حبلى ، تنقلب على الأرض
كالثعبان ، وتستشهد بالأهل والجيران ، أن بعلمها ، أنكر حملها ، وحاولنا أن نخطو خطوة
إلى الأمام ، فلم نستطع من شدة الزحام ، وكيف بالتقدم في عباب موج ملطم ، ومنحدر
سميل مرتطم ، من نساء صائحات مُوَلِّولات ، ونائحات مُعُولات ، وناديات باقيات ،
وصارخات شاكيات ، كآهين قاعات في مأثم على مدافن الأموات ، تفرحت فيه العيون
وبحت الأصوات ، وفيهن المستقرة والمتنعة ، والمضطجعة والتربعة ، والحاسرة عن الذراع
والرأس ، وأختها تُمَلِّها في وهج الشمس ، ومنهن الكاشفة عن ثدييها ، تُرضع طفلاً على
يديها ، وغيرها ترضع طفلين في حذاء ، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء ، وأخرى آخذة
بصفيرة صررتها ، ورضيعها يتلهف على صررتها ، ومن يدين من يتقدمها طليقها ، ويتبعها
عشيقتها ، تشيع الأول بالعين والسباب ، وتغمر الثاني بكفٍّ مزدانة بالخضاب ، ورأينا
العقيلة المحذرة مع « الأغا » ، لا يستطيع أن يحمها في حومة هذا الوعي ؛ وشاهدنا في
الجمع جماعة من فجّار الخلاء ، وتباع النساء ، يغازلون كل غانية هيفاء ، ويغامزون كل
غادة غيداء ^(١) ، ويتمرضون لفض النزاع ، بين ذوات القناع ، وفصل العناد والشقاق ،
بين الطاعنات بالأحداق ، فتختلط غمزات الطرف ، بهمزات السكف ، فيزول ما هنالك

(١) العبداء : المرأة التفتية لينا .

من الجدال والخصام ، ويصبرون جميعاً إلى الحسنى والرفيق من الكلام ؛ ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة ، ومجائب الشناعة ، رجلاً وامرأة يتسابقان في ألقاظ الفُحش والهَجْر^(١) ويتبادلان في أقوال البذاءة والنكر ، وهما يتجاذبان في أيديهما غلاماً ، كأنهما يحاولان له اقتساماً ، لياخذ كل منهما من أعضائه بنصيب ، والغلام يبكي من شدة الألم والتعذيب ، فاستمدنا بالله السميع العليم ، من موقف هذا الجحيم ، وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنحب وتقول ، وتقبلها بماء العين مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء ، لما وصلنا إلى هذه الحالة النساء ، فإن الرجال يميلون لجنس الرجال ، ويتنافسون لبعضهم على ذوات الرجال » ، فاستمعنا رب المآثي^(٢) ، وصعدنا في السلم الثاني ، فإذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل ، أو خلايا النحل ، واتبينا منه إلى قاعة ، ممتلئة بصنوف الباعة ، هذا يصيح : « الطير والجن » ، وذلك ينادى : « الدخان والبن » ، وآخر يقول : « الزبد والمسل » ، وبعضهم يردد : « الفول والبصل » ورائع الضأن يفتت بسكينه جاجم الرؤس ، والثلاج يُصَفِّق بأكواز « العرقسوس » ، وهناك « قهوة » يدب فيها الشهود بالعثرات ، كدبيب الحشرات ، فيعرضون أنفسهم على الخصوم ، للشهادة أو التزكية بأجر معلوم ، وغلمان الحاميين يروحون بين الجموع ويضدون ، فيمكرون بهم ويكيدون ، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون ، فيخدعون ويقتالون ؛ ودخلنا حجرة صغيرة من حُجَرَات السكتاب ، فنار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب ، فرجعنا على الأعقاب ، ونجونا من الأوصاب ، ثم انحدرنا مع غلام الحامي إلى حجرة كبيرة الساحة ، فقال اجلسوا هنا للامتراحة ، فأجلسنا في صدر المسكان ، بين الكتبة والعلماء ، ولا بد لكل كاتب هناك من غلام ، يقوم مقامه في تدوين الأحكام ، فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين ، يُقَسِّم على أقواله بكل عَيْن ، بأنه لولا اعتراض مركبات السكهرباء وضيق اليدان ، لما تأخر حارهُ عن حمار فلان ، وسمعت صاحبه بجانبه ، يحلف بحجده وأعر أقاربه ، أنه لولا حبسه للعنان ، سبق كل الحمار في يوم الزمان ، ويقول له ، وهو يتلفف في العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء ، أنه إذا سحت الشجرة الخضراء ، لم يتعلق بذيل الحمار

الهواء ، ثم التفت ذات الشمال ، فوجدت كاتباً منهم غض الشباب ، عظيم التأنق في لبس الثياب ، فهو يتلألاً ويتألق ، في سندس وإستبرق ، كأنما خاطوا له قباء من أزهار بستان ، مختلف الأشكال والألوان ، يُفعِم الأنوفَ بعطره ، ويُعَبِّق الجو بنشره ، وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها ، فيأخذها « السيد » منه ويرميها ، ويقول له في حدته وشدة سؤرته :

(السيد) — هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها ، وبئس المفصلُ مفصلها .

(الخياط) — كيف ترى ذلك أيها السيد ، وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد ، إنها أوسع من ثياب السيدين عبيد العزيز وعبد الحميد .

(السيد) — كذبت ورب الكعبة ، فإن استدارة الكم ضيقة ، والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر .

(الخياط) — وماذا أصنع ، وذلك كل ما في عرض الحرير ، ولو كنا على الزى القديم لدخل مع السيد في طي ثيابه : إثنان أو ثلاثة من أصحابه .

(أحد أصحاب القضايا) — صبح الله السيد بالخير والإنعام .

(أحد الكتبة الظرفاء) منكثاً — لا ، بل بالخيل والإنعام .

(صاحب القضية) — أرجو سيدي أن يعطيني « الإعلام » .

(السيد) — اذهب حتى يأتي الغلام .

(الكاتب الظريف) مورثاً — عليك به في شارع أم الغلام ، تجده جالساً نصاً

تحت الأعلام .

قال عيسى بن هشام : وعافت نفسي هذه النكت الباردة ، والمعاني الساقطة ، فأعرضت عن الإصغاء ، وسرحت طرفي في بقية الأنحاء ، فرأيت الكتبة كلهم يتفكهون ويتساعرون هذا يلت في يده أفيونه ، وذلك يكور بين أصابعه معجونه ، والغلمان يشتغلون تارة بأوراقهم ، وطوراً يتباحثون في أذواقهم ، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد ، ومطال الوعد ، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية ، بألفاظ بذية ، ويقول له : « كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد ؟ أنظنه كان لك من العبيد ؟ أتريد أن يكتب لك ويتعب

(وهو لا أجره له في المحكمة ولا رُتب) بنير ربح ولا مكسب ؟ إن هذا لمن أعجب العجب ! ، وجاء رسول القاضي يطلب أحد الكتبة الرؤساء ، فوجده راقدًا كالنفساء ، فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته ، وقال بعضهم : لا بل اتركوه في رقدته ، أنسيتم حكم عادته ، بأنه لا يُفريق من غفوته ، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم في دورته ، ثم اتفق معهم الرسول على أن يرجع فيقول : « إنني لم أجِد الشيخ مكانه ، وعلمت أنه نزل إلى الدفترخانة » ؛ ثم استيقظ الراقِد بعد مدة ، فتساب وتخطى ، ثم تدثر وتغطى ، ثم عاد إلى ما كان فيه من السُّبات ، وهو ينشد المعرّي من أبيات :

وفضيلة النوم الخروجُ بأهلِهِ
عن عالمٍ هو بالأذى مجهولٌ

ثم جاءه بائع كتب وأوراق ، فصاح به حتى أفاق ، وقام بعون الله وحوله ، يخاطب البائع بقوله :

(الكتاب) — هل أحضرت ما طلبته من الكتب ؟

(البائع) — نعم جئت بك كتب قديمة ، لا تقدر لها قيمة ، منها كتاب « حل الرموز » .
لفتح الكنوز » ، ومنها « أصول المراسم » ، في فك الطلاسم » ، ومنها « حسن إرشاد الناس في استخراج الذهب من النحاس » ومنها « القول للأثور » ، في تأثير البخور » ، ومنها . . .
(الكتاب) — ألم تعثر لي على كتاب في (الاستحضار) ؟

(البائع) — نعم معي كتابان : أحدهما « قلائد الأولو والمرجان » ، في استحضار الجن والآخر « خير المواقيت » لرؤية العفاريات .

(الكتاب) — بارك الله فيك وجزاك خيراً ، فإن عندي نسخة محرفة من هذا الكتاب الأخير ، فاصحبني إلى البيت لنقابلها ونصححها .

قال عيسى بن هشام : وقام هذا الكتاب مع البائع ، وأقت أسخط على هذا الجهل الشائع ، والعمل الضائع ؛ وبينما أنا كذلك إذ أشار علينا غلام الحنمي بالقيام ، فقد آن نظر قضيتنا ، فخرجنا فوقعا عند باب الحجرة التي تنمقد فيها الجلوسة ، فرأينا الزحام خارجها وداخلاً على أشد حالاته ، وسمعنا الحاجب يتنادى نارة بصوت عال ، ونارة بصوت منخفض ، فسألت

الغلام عن ذلك ، فقال إنه يخفض الصوت حتى لا يسمع أربابُ الدعاوى النداء ، فتسقط القضية ، وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه ، وفوق ذلك فإن للحجَّاب أن يدخلوا الجلسة من أرادوا ، ويحببوا عنها من أرادوا ؛ ثم نودى علينا ، فدخلنا مع شهود المرافعة الذين استحضروهم الغلام لنا ، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئيسهم ، وهم جلوس كل واحد منهم بعزل عن الآخر ، وقد تمسرعلى أن أفهم كلام الباشا ، وهو يجانبى بخطابى ، لشدة الضوضاء وعلو الأصوات ؛ ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته ، وكأنه الطاووس فى هيئته ، جلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره ، فوجدته قد تناول القلم بأطراف يديه ، يضعه فى الدواة تارة ، ويضعه فى أذنه أخرى ، ثم يلهو بتفقد ثيابه ، ويستغل بلمس الإبر التى تشبك بها العمامة ، ثم ابتدأوا فى سماع القضية ، وتقدَّم الباشا مع الشهود ، فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم ، لكثرة الجلبة والصياح ، وإنما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط - وكأنما يكتب من عنده - ما أنقله بحرفه وهو :

«استحضر أمام الجلسة المدعى والحامى والشهود، فتقدم المدعى وعرف أنه فلان بن فلان بن فلان ، وسمى شاعدي معرفته ، وهما فلان بن فلان بن فلان ، وفلان بن فلان ابن فلان ، الساكنان بالجهة القلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان ، وشهد كل منهما على انفراد أنه يعرف المدعى المذكور ، وأشار إليه بيده ، وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ، ثم قال المدعى المذكور إن لى قبيل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعنى مسند دعاوى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة » .

ثم أمرت المحكمة بأنصرافنا للمداولة والنظر فى المستند ، فوقفنا ناحية من الحجرة ننظر مع من ينتظر ، ثم نودى علينا بعد مدة ، فقالوا لنا إن المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة ، وهى تقضى - على ما أخبرنا به الحامى - بالإعذار إلى المدعى عليه ، وقال لا بد أن نطالب ذلك من المحكمة ، لأنه لا يسوغ لها أن تُعذر إلا بناء على طلب الحامى ، فتقرر إصدار الإعذار ، والله يكفيك شرَّ ما فى هذه الدار ، من الأفضية والأقدار ، وكثرة الهوم والأكدار .

قصر حفيد الباشا

قال عيسى بن هشام : ودخلنا — لا أدخل الله عليك طوارق البقم ، ولا أخرجك من طرائق النعم — في دَور الإنذار يتيمه الإنذار ، والاعذار ينلوه الإعذار ، ومنذوب الحكمة يعود إلينا بالخطية ، في كل أوبة ، زاعماً أن خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء ، كغيرهم من خول أبناء الأمراء ، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير ، وزمينا المنذوب بالإهمال والتقصير ، فرأينا أن نخبر خبره ، ونقتفي أثره ، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع ، للاستخفاف برسول الشرع ، فسرنا وراء المنذوب ومعه الشاهدان ، يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان ، وقد أمسك الواحد منهم بكف الآخر ، على هيئة تستفز كل هازي وساخر ، وكل منهم يخذ الأرض بجذائه ، ثم يُعقِّي الأثر بفضل ردائه ، وهم ينقلون في الشئ من التميل إلى الرسم إلى الوحيد^(١) ، كأنهم مسرعون إلى جفنة تريد ، ونحن من خلفهم نحبب ونهزول ، ونحسبيل ونحوقل ، إلي أن كادوا يقبضون عن البصر ، وكدنا فقد منهم الأثر ، لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات السكهرباء ، فطاحت العمامة وانفالت الحذاء ، فانقتل يلتمسها ويلتمسه ، فلم يرعه إلا السائق وجرسه : فما تحرك ولا انتقل ، حتى أدركته العجل ، وكاد يداس ويُفحق عليه ، لولا أن جذبه رفيقه إليه ، فحبل بين الرجل وبين حمامته ونعله ، ووقف مخبولا لأرأسه ولا برجله ، وهو يستنجد لها ويستغيث فلا يغاث ، حتى مرت عليهما المركبات الثلاث ، فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل ، فبشرناه بإسلامتهما ، فأعتم بهما واتملا ، وحمد الله على هذا اللطف في القضاء ، وحمدناه على ما أتبع من التعويق والإبطاء ، إذ تمكنا من اللحاق بهم ، وقد ربا على استئناف السير في عقبيهم .

وقد انتهى السير بنا إلى قصر في سُرة بستان ، يزري في الحسن بقصور بغداد وعمدان ،

(١) التميل والرسم والوحيد : ضروب من السير .

وقد ترصع البستان بأنواع الأزهار ، كأنه محلى بصنوف اليواقيت والجواهر ، والقصر في وسطها كأنه الدرة البيضاء ، أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جوهــــــــــــر وبستانه من حوله عِقدٌ بديع النظام

وما عسى أقول في وصف روض ، قد نسجت به الأرض ، اتزدان به يوم عيده
ويوم زينتها ، ونممت له رداء لها تختال به في حسن روتها وبهجتها :

مُوَزَّرَةٌ من صَنَعَةِ الوَبْلِ والنَّدَى يَوْثَى ولا وَشَى وعَصَبٌ ولا عَصَبٌ ^(١)

قد أغنى الفواهي نسجه العليل ، عن المسك الأذفر ، وكفاها ريحة البایل ، نَعَطُهَا

بالطيب والعنبر :

بغرسٍ كأبكارِ الجواري وثرية كأن قراها ماء وردٍ على مسكٍ

وصفى المرائس أن لو اتخذت من نوار الأزهار قصوصاً للخواتم ، ومن أكام الأشجار
معاقدَ للتأتم ، وودَّها أن لو تآزرت من سندس أرضه بأبهى إزار ومِرْط ^(٢) ، وتحلّت
من جواهر نباته بأزهى شُفِّف وقرط :

إذا ما النَّدَى وافاه صبيحاً تمايلت أعالیه من درّ ثبير وجوهر

إذا قابلته الشمسُ ردَّ ضياءها عليها صيقلُ الأقحوانِ النُّورِ

وقامت فيه مشمراتُ الأغصان قيام الكواكب الأتراب ، ساقيات بالأباريق والآكواب

ساكبات سورِ الطل من ملك الأقداح ، مائسات من رحيق الندى ومداعيق الرياح

شقائقُ يحملن الندى فكأنه دموعُ التصاني في حدود الخرائد

فما تخيلنا في هذا الروض مذ رأيناه إلا أننا في حفلة عرس ، جمعت أسباب البر

وأطراف الأنس ، قد نصَّبَ الغنم عليها سرادقه ، ومدَّتْ ملتفَّ النبات فيها قمارقه ^(٣)

وأشرقت في الأغصان الأنوار ، إشراق المصابيح بالأنوار ، وقامت الأطيار على الأعواد

(١) العصب : ضرب من البرود (٢) المِرْط : كساء من خز يؤتز به .

(٣) الفرق : الوسادة

تسابق في الترحم والإنشاد ، فهي تغرد بألحان يقطع السامع لها جبل النفس ، ويأنس إليها مستغفر الوحش المفترس :

رأت زهراً غصاً فهاجتُ بمزهر^(١) مثنائهم أحشاء لطفن وأوصال

ولنسيم بين الشجر نغبات باهتيف والحفيف ، من ثقل في الضرب أو خفيف ، تصفق لها أكف الأوراق ، وتقوم الأفتان للرقص على ساق ، مترنجة الأعطاف من خمر الندى ، مهتزة القدود بعمر الصبا ، تبسم عن أفراح نضيد ، يزري بذنايا الغيد ، تم تمليل برشيق القوام ، فتلتقط ما ينقطها به الغمام ، والجدول يجري تحت أذيالها ويتمثر ، وينساب الماء في ظلالها ويتكسر ، كأن حصاهم اللؤلؤ والمرجان ، في نحور الحسان ، أو قلائد المعيان ، في أجياد القيان :

ترعُ حصاهُ حالية المذارى فتلهس جانب العقيد النظيم

ولما ملئنا من هذه الجنة طرباً ، وقضينا محبة ، قلنا ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ما أعجز الخلق عن شكر نعماءه ، وإذا بقوم عند باب القصر ، كأنهم أفراس في مخالب صقر ، تعلو وجوههم قتر ، ترهقها شبرة ، وهم بين بالك ومنهجب ، وصارخ ومصطخب ، فنفرت في هياتهم ، وهم يذكرون حاجاتهم ، فإذا هم جميعاً في بأس وقنوط ، وخيفة وجبوط ، وإذا الصيرفي يقول ، بصوت القهقور المخدول :

(الصيرفي) — تعسا لي لقد ضاع مالي ، وذهبت آمالي .

(التاجر) — وبؤسا لي لو كنت أعلم بهذا المال ، لم أقع في تلك الخبال .

(البائع) — يا ويح نفسي اغتررت بالمقام العالي ، فחסرت رزق عيالي .

(الجوهري) — ويل لمن خدعته الظواهر ، فضاعت عليه الجواهر .

(الصيدلاني) — أقسمت لا يضيع عنده تبن الدواء ، ولو تعلق بأطراف السماء .

(الحمار) — تبأله من محتال مال على دني ، ثم اختفى عن عيني .

(القصّاب) — أنا لا يضيع عنده حق ، ولو وضعوا السكين على حلقى .

(الخيّاط) — وأنا لا أترك هذا الباب ، حتى أمزق ما عليه من الثياب .

(الإسكاف) — ورأس أبيه وجده ، لا آخذن ثمن الأذية من جلد .

(الحلاق) — أنا ابن جَلّاء وطّالاع الثنايا ، وكُم لصنعى من منافع ومزايا ، ولينى كنت شوّهت خلقته ، ومسخت سحنته ، فنفستُ شاربته ، وحلقتُ حاجبه ، تالله لا آخذن بناصيتى هذا الثقل البارد ، ولأسدنّ عليه المصادر والوارد ، ولألزمته صياح مساء ، ولو خلقتُ فى الهواء .

كل هذا والخدم يكتمون وجودَ صاحب الدار ويُقسمون أنه لم يبق لديه درهم ولا دينار ، وإذا هم أخذُ القرماء بالخول ممعوهُ ، أو دفعوهُم أحدهم دفعوه ؛ وبينما نحن نتأمل ونعجب ، وننتقل على الجمر ونقلب ، ونقابل بين سعد المكان ، ونحس السكان ، إذا برجل أفرجى قد خرج من بيت الحرم ، وهو يلتف غيظاً وبضطرم ، ويقول للبواب برطانتة ، وسوء عبارته : لقد طابتهُ فأبان الاعلام والمعجز ، فلم يبق إلا توقيع الحجز ، وإليك قائمة البيان ، وحذار من التلف والنقصان ؛ وما كاد « محضر المختلطة » ينتهى ويذهب ، حتى حضر « محضر الأهلية » يلهث من التعب ، فسلم البواب ورقة إنذار ، فأخذها وهو يدعو بالبور والدمار ؛ وبعقب ذلك انصرف المحضر ، وتبعه جميعُ من حضر ، لا اشتداد حرّ الظهيرة وأوارها^(١) ، وأفتح الشمس للوجوه بنارها ، فاتهرنا هذه الفرصة ، فتحرك مندوبنا وتقدم ، وخاطب البواب وهو يتلعثم ؛ فقال له : أنا مندوب الحكمة الشرعية . فقال له : لم يكن ينقصنا إلا هذه البلية . ثم دفعه فى صدره ، فردّه إلينا بظهره ، بعد أن أخرجنا من الجنان ، وأغلق باب البستان ؛ فأخذ المندوب بيد الشاهدين ، وهو يتظلم ويتضرر ، ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرر :

« يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر بأمرى بأن نحضر إلى الحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان

(١) الأوار . حر الشمس والنار واللهب .

ابن فلان ، وإن لم تحضر في اليوم المذكور يُنصب عنك وكيلًا ويسمع الدعوى في وجهه
وبحكم عليك غيائياً . »

ثم ودّعنا المندوب والشاهدین ، وانصرفوا إلى سبيلهم ، وبقيت أنا والباشا في دهشة
وذهل ، وحزن وأسف ، مما رأينا وسمعنا ، ثم استند الباشا إلى سور البستان ، وشرع
يقول لي ، وهو في تأمله وتفكره :

(الباشا) - ما زالت بواطن الأمور ، وحقائق الأشياء ، تتجلى لي على وجهها ، منذ
غمرني الدهر في هذه المشكلات والخطوب ، حتى تحققت اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما
تجری كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على القوية والبطلان ، وتنطوي على الفس
والفدائس ، فبالله عليك مَنْ ذا الذي يرى هذا القصر بزينة وبهجة وخدمه وحشمه ،
ولا يتولاه الحسدُ لساكنيه ، والتطاعُ إلى حسن حفظهم ، وسداد عيشتهم ، ثم يرجع
إلى نفسه فيسخط على حظّه من الدنيا ، ويندب نصيبه من الحياة ، وسوء قسمته
في العالم !!

(عيسى بن هشام) - لا زالت ترى الحق ، وتقول الصدق بما يسمع لك من سبيل
الهداية والحكمة ، نعم إن جُلَّ من تراهم من النعمين المترفين ، والأغنياء الموسرين ، لو
كشفت عن باطن أمرهم ، وحقيقة أحوالهم ، وخبايا معيشتهم من وراء الجدران ، لوقفت
على ما يوجب الأسى والأسف ، ويدعو إلى الرحمة والشفقة ، لا ما يدفع إلى الحسد
والقبطة ، ولأيقنت أن الرجل الأجير ، الذي يستخرج قوت يومه منقوساً بعرق جبينه ،
هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالآ . والغالب أنه كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً ، كان
باطنه مُقتماً مظلماً ، وأشد ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون أوقات
حياتهم في الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع ، فيكون الواحد منهم غريقاً في
بحور الهموم والآكدار ، وتراه يقمر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح ،
وأكثر ما يكون في الضيق والإفلاس ، تراه يتعرض للتبذير والإنفاق ، فهو على الدوام

يتقلب بين الضيقين : ضيق العيش ، وضيق النفس ، وإن كان عظيم الثروة ، كثير
الغنى ، فإنه لا غنى مع ازدياد الحاجات ، ولا مال يكفي مع تجدد الرغبات .

(الباشا) — قد كانت الحال في أيامنا على العكس ، إن كان لا يسرك الرجل ظاهر
حاله ، فإنه يرضيك باطن أمره ، وربما كان يجتهد في التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حد
الغنى ، ويُبدي الشكوى إذا أسر الرضى .

قال عيسى بن هشام : وقضينا مدة في مثل هذا الحديث ، وأنا متهاول مستبشر بما
أرام يعمو ويشمر في نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية ، والتعمق في معرفة الأخلاق
النفسانية ، حتى صار من ديدنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به إلى عالم
الفضيلة والحكمة ، وازددت يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غريباً بالأموال ، غافلاً عن
حقائق الأشياء ، فإذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته ، واستضاءت قريحته ،
وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه .

ثم حانت منا التفاتة إلى ما وراء السور ، فرأينا خدام البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقاً
وهم يتحاورون ويتجادلون ، فسمعنا البواب يبتدىء فيقول :

(البواب) — ليت أمي لم تلدني ، ولت أبي لم يعلمني رسم الخط ، فقد كلت
يدي وحفي قلبي من طول التوقيع بالاستسلام على الإنذارات والمحاضر ، فقلما يمضي يوم
إلا ولي فيه من التوقيعات ما ليس لرئيس قلبي في ديوان ، فبئست المعيشة معيشي ، وبئس
الحظ حظي ، وليتني كنت قادراً على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغرماء ، فأخلص
بجزء من أجرة الشهور المتراكمة ، ومن لي بالتباعد عن هذا البيت الذي انتشر فيه جراد
الحجز ، وأزعجت من فيه أصوات الغرماء ، وأزعجني تردد الحضرين على صندوق ثيابي .
(الكاتب) — لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت ، وماذا يحتمل حالته ،

وكيف لنا بالمعيشة معه ، ولم يبق عنده كثير ولا قليل ، وإن صدق ظني كانت عاقبته
من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب ، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في
هذه الأيام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ، ليختم أمره بأقبح الخواتم .

ويعلم الله أنه لولا ما أنقذه في أشغاله من هنا ومن هناك ، لَمَا تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عني أجور الشهور ، وقد دعاني هذا الأمير أمس وأعطاني خائناً من الياقوت لأبيعه ، فذهبت به إلى الجوهري الذي كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه ، فلم يدفع لي فيه إلا خمسة وعشرين ، فبعتُهُ لإياد وعُدت الأمير بالدرهم ، فكأنما فككتُ الأسير من القيد ، وأنقذت الغريق من اللجج .

(الوصيف) — الآن انحلّ ما كان مشكلاً ، وانكشف لي ما كان غامضاً ، فإني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً ، لم أهتدِ إلى مورده ، أعطاني منه عشرة جنيهات ، وأمرني أن أبتاع من أخيه هذا الكتاب الذي تروونه مؤلفاً بعلاعبته منذ الصباح .

(الفراش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك البهائم بخمسة جنيهات ، وأخذتُ له غرفة في « تياترو الأوبرا » بثلاثة ، وزجاجة عطر بائنين .

(الكاتب) — فعلى هذا لم يبقَ معه إلا خمسة جنيهات ، ولا بد أن أبادر في الحال لطالبته بإنجاز الوعد الذي وعدتهُ لصاحب الجريدة المعلومة ، حتى يسكت عنه ، ويكفَّ عن التعرض له .

(السائق) — وأنا أذهب إليه أيضاً لأخذ منه ثمن الريش والإسفننج الذي وعدني به ، ما دام معه من الدراهم بقية .

(الخفي) — إنكم لفي نعمة وغبطة بما تناولونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ، لكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب من غير أجر ، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت ، وبإليت هذه النعمة تدوم ، فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزائر ، كما سمعتم أمس بانذار البك الخلياز .

(السقاء) — ما أظن أن لنا حيلة تلجأ إليها في آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة أرزاقنا على ريع الوقف الذي سَلِمَ وحده من الحجز .

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك ، فإن هذا الوقف الذي كنا نرتكن عليه

قد دخل في دور القضايا والدعاوى ، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير ، ومن يعلم ماذا يكون من أمره .

وسمعنا الجرس يذق من جانب الحرم ، ففتشت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغداء ، فانصرفنا من موقفنا واكتفيينا بما شهدنا .

قال عيسى بن هشام : وحل اليوم الموعد جلستنا في المحكمة الشرعية ، فتوجهنا إليها ، ولم يحضر المدعى عليه كعادته . ولما فتحت الجلسة تقدمنا إليها ، وشهد أمامها شهود المعرفة ، ثم أطلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة ، فوجدوها جامعة للشروط المقررة ، فأمروا بأن يُنصَّب المدعى عليه وكيل ، يكون موثقاً بأمانته ، ممروراً بالمحافظة على حقوق الغائبين ، فأختاروا من اختاروه ، وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ، ثم أخذ محامينا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليمدّد الأعيان ، فلم يجد فيها جميع ما عددناه له ، بل وجد منها جزءاً قليلاً لا يقيم بالتعب في إقامة القضية ، وخشي أن المحكمة لا تحكم لنا بغير المبين في « الصورة » من المقار ، فتضيق علينا بقية الحقوق ، فطالب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة ، فوافق الوكيل المنصوب للغائب ، فتأجلت القضية إلى بعد الفسحة القضائية من العام .

وخرجنا من الجلسة مع المحامي ، وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد ، ولما سألفناه عن المظان التي تُنبشأ عن بقية أعيان الوقف ، تلسكاً في الجواب ، ثم أحالنا على الغلام ، وتركنا ممة وانصرف . فقال لنا الغلام : لا مظانة عندنا غير ديوان الأوقاف ، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان ، وطالب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعي وراء هذا الغرض ، فوافقنا على هذا المطلب الجديد ، والله يفعل بنا ما يريد .

الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام : ولما حال أمرنا من المحكة إلى الأوقاف، وعلم الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف ، وأنه لا بد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء ، وفكر الدعاء والدعاء ، ونكثر من الغدو والروح ، في كل مساء وصباح ، فنَبَّئِي في هذا الذبوان جِدَّةَ الزَّمن ، ونقف عليه ونقف العاشق على الدُّمن ، لما هو مستفيض من اختلال أعماله ، واعتلال عماله ، وفساد إدارته ، وسوء نظارته ، نزل به من الهم والغم ما أوردته الضَّيِّ والسَّقم ، وحلَّ به من الحزن والكمد ، ما أخلَّ بنظام الجسد ، ففدا هز بلا تخميلاً ، ووقع مريضاً عليلًا ، فأشرتُ عليه بالطبيب ، قال : يخطئ ولا يصيب ، وماذا يجدي العلاج وما يفيد ، وللآجال توقيت ونحديده ، فأقنعتُه بأن الاعتقاد بتحديد الأجل ، لا يمنع من مداواة العلل ، وسبحان من أرشدنا إلى الدواء عند حلول الداء ، للالتماس الشفاء ، فقبل إشارتي بمد طول الإباء ، فجئتُ به بأحد الأطباء ، من ذوى الشهرة بالبراعة ، في ممارسة الصنعة ، فجلس بجانبه يجسُّ نبضه ، ويقرع صدره ، ثم استلم قلبه وولاه ظهره ، وأخذ يرقم أصناف العلاج ، بيد دائمة الاختلاج ، ثم قال : دونكم هذا الدواء ، جرعة في الصباح وأخرى في المساء ، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن ، لا يفسد في التركيب ولا يُغفل في الثمن ، ثم وقف عند المرأة يُسوِّي مقرق شعره ، ويصقل ما استطال من ظفره ، ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب بنظر مستراب ، كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجاب ، من آسة في الخدر أو كعاب ، ولما أعوزهُ ما تعقَّده ، طلب أن يفسل يده ، وقال إني أرى حالة المريض شديدة ، تقضى بعيادته أياماً عديدة ، حتى ينتهي المرض من شدته ، ويتلطَّف من حدته ومضت مدة والطبيب يذهب ويمود ، ودرجة الحرارة لا تفتأ في صعود ، والمريض يهذى في شدة حُمَاه ، وأنا أنصرع والرُّحْمَاة ، حتى كدت أياأس من الشفاء ، وأسلم لحكم القضاء ، ولكن زارني أحد الأصدقاء ، ممن يؤامون بالطب والأطباء ، فقال لي وهو يبصر حالته : من الطبيب الذي رماج علة ؟ فقلت : هو الشهير فلان ، قال لي : علمتُ السبب الآن ، وأنا أنصحك لا تعتمد في الطب ، إلا على أطباء القرب ، أولئك قوم قد برعوا

في معرفة الأمراض ، وتشخيص الأعراض ، وأحاطوا بكل جليل وحقير ، من البسائط والمقاقير ، فالأدواء لا تستعصى في أيديهم ، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يذاهبهم ، وأنا أتيتك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلماً ، وأشهر صيتاً واسماً ، وقام فداد بأجنبي يهدئ الأرض بخطواته ، ويكثر من إشاراته ولفثاته ، فتقدم نحو المريض فحس ولمس ، ثم قطب وعبس ، ووضع طرف منديله على أنفه ، وقال لنا في صلفه وعذفه ، إن هواء الغرفة فاسدٌ قتال ، وداء المريض داء عضال ، ولا رجاء إلا باتباع إشارته ، في تواتر زيارته ، ثم هزأ بما رآه من دواء الطبيب الأول ، بعد أن كتب علاجه بوصف مطوّل ، وقال لا يحسن تركيب هذه الأجزاء ، إلا صاحب « صيدلية الشفاء » . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضر ، والعلاج يتجدد ويتكرر ، والمريض يتألم ويتضجر ، والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر ، حتى جاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة ، فنخلص من هذه المراوغة والمطاوله ، فلما اجتمعوا وقعوا في الحجاج والحجاج ، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء ، أو تقرير العلاج ، وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه ، لا يهتدي إلا بهديه ، وسمعت بينهم من يقول لرفيقه : لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه ، كما أنهم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية ، وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية .

ثم خلفوني وزلوا على الخلاف ، وإن كانوا اتفقوا في تناول الأجرة عند الانصراف ، وكنت شاهدت بينهم طبعاً يظهر نوره من طريقهم ، ويجرى معهم على غير حالتهم ، فأرسلت في أثره من دعاء ، وكشفته بأنني اخترته على سواه ، فقال لي : إن علة المريض بسيطة فيما أراه ، لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه ، وأعلمها ناشئة عن انهك لات نفسانية ، من هموم تجلّية ، فقلت له نعم : أصبت في النظر ، ثم أخبرته بحملة النظر ، فقال : الآن تبين أن معالجة الأطباء كانت بغير اعتداء ، ولا يلزم له علاج إلا الامتناع عن هذه المركبات ، والاكتفاء ببعض البسائط من النباتات مع جودة الغذاء ، وتبديل الهواء ، فأيقننا حينئذ بمهارته ، وسلمنا لإشارته ، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال ، إلى دور النفاة والإبلال ، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته ، ويحاورنا في الحديث على حسب عادته :

(الباشا) — كيف اهتديت إليها الطيب إلى ما لم يهتدي إليه سواك من الأطباء ، فأدركت سبب علتي ، وأحسنات تشخيص مرضي ، وأصبحت في اختيار العلاج ، فكان الشفاء ؟ لا شك عندي أنك نادرة عصرك ونابغة زمانك .

(الطبيب) — لا فضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء ، والسبب في خطأ الأطباء ، أن العدد الأعظم منهم يسيرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم ، فهم لا يتخطونها ولا يتعدونها ، فترى كل واحد منهم يحرص في ذهنه عدة أمراض معلومة ، وعلل معروفة ، فيطبق عليها كل ما يراد من الأعراض التي تظهر له في عامة المرضى — والأعراض تختلف وتشعب — فيحكم معرفة الداء ، ويأمر بالدواء المعتبر لذلك المرض المعتبر ، بقطع النظر عن الفحص ، والتأمل في حال المريض ، أو البحث والتدقيق في معرفة الأسباب المادية والأدبية التي يرجع منشأ المرض إليها ، ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال ، فيعيش في أسر العادة ، وقييد الطريقة ، لا يمتد بالبحث في اختلاف الأمزجة ، وتباين الفرائز ، وتفاوت المعاش ، وتفاير القوي في البني ، لذلك يكثر منهم الخطأ ، ويقل الصواب .

(عيسى بن هشام) — كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكر ، فتنتاطق أيديهم على وجه واحد ، وتصرف أفكارهم عن التصرف أو التفتن في وجوه شتى .

(الطبيب) — نعم لقد أصبت في التشبيه ، وغير ذلك فإن بين هؤلاء الأطباء من لا يرى في صناعته إلا آلة لا اجتلاب الرزق ، واصطياد الربح ، واستدراار الدرهم والدينار ، حتى يصلوا إلى اكتناز الأموال ، ويصبحوا في مصاف أهل الفنى والثراء ، لا يبالي أحدهم أي باب طرّق ، ولا أي سبيل قصد ، للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب ، فكل الوسائط لديه مقبولة ، وكل الطرق عنده مسلوكة ، فهو يدخل على المريض طامعاً في ماله ، لا طامعاً في شفاؤه ، فيحتال له أنواع الخيل لتطول مدته في المرض ، فيدفع نصيبه في الآجرة ، فيعطيه من أصناف الأدوية ما لا ينفع ولا يضر ، أسخف الله بل ما يضر ولا ينفع ، ليبقى المريض في حاجة دائمة إلى تجديد العيادة والزيارة ، وفي كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً

من المركبات التي يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها ، وينفسح له بذلك طريق المكسب والربح فوق أجر العيادات ، يرصده له الصيدلي في دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الأدوية المفكررة ، فيضرب الطبيب في صناعته بقذحين ، ويصيب في المكسب بسهمين ، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار ، ويخلى كبسه من كل فضة وانضار ومن أولئك الأطباء من يحصل همه منصرفاً إلى الإبداع والتفنن ، في وجوه التزني والتزيين ، ويسلك سبيل التصنع والتكلف ، في أبواب التطرف والتلطف ، ثم ينفق ما استطاع في حسن الحضرة ، ويتمم رقعة الحديث والمسامرة ، ويتقلب في أساليب المؤانسة والجمالة ، وأفانين المغامرة والمغازلة ، ليقبض له بين النساء بضاعة رائجة ، وسوقاً رائجة ، فيجمل من أهل الحرم محل الجلوس المحبوب ، والأفئس المطلوب ، وينزل من ربات الخدود بمنزلة المحب المكرم ، ويكون بين مقصورات القصور ، أكرم زائر في أرحب منزل ، والنساء لا يعدمن العلات ، على العلات ، ولا تموزهن العلل ، في اختراع العلل ، لاسيما إن كانت دعوى المرض ، تدني من نيل القرض ، فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات ، وروحات وغدوات ، والطبيب ، كما يعلم الناس ، مؤتمن الجانب ، يؤتمن فوق الأهل والأقارب ، تفتح أمامه الأبواب ، ويكشف من دونه الحجاب ، فترى له زيارات بين كل صباح ومساء ، تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء : بوافر الأجر في دفتر حسابه ، وسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه ، ومنهم من يتطلع إلى فوق ذلك ، فيطعم في ربه البيت بأكلها ، وفي حيازة الأموال بأجمعها ، فيديم التردد ، ويؤالي المشرة ، ويحكم الصلة ، ويلحم الخلطة ، حتى إذا تأزبت عقدة الحب ، تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها ، لا التفات هناك إلى تفاوت الأقدار ، ولا عناية بوجود الكفاءة . فتصبح له حليمة ، بعد أن كانت خليلة ، وينتهي ما كان من أمر الداء والعلاج بما تم من أمر العقد والزواج .

(عيسى بن هشام) — الآن تبيّن لي ما كان على غامضاً ، واتضح ما كان مبهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا في كثرة الزيارة ، وقلة نفع الدواء ، وشدة

التدقيق في تعيين الصيدلية ، وطول استراق النظر لما وراء الحجاب .

(الطبيب) — أجل ، هذا هو حال بعض الأطباء ، مع الأعلاء وأشباه الأعلاء ، فأما عالم مع الأصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق ، فهو أعجب وأعرب ، وما يعزب عنك أن كثيراً من المؤمنين بسوء التفليد للغربيين ، وللمهانكين على حب التظاهر بمظهر الرتبة والترف ، يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ، ويبالغون في التنوق لأجسامهم ، فيمنعون فيهم وسواس المرض والسقم ، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرّاً ، ويتوقعون من كل شربة ضرّاً ، ويتخيّلون أن في كل لقمة نخرة ، وفي كل جرعة غصة ، فلا يتناولون قدحاً من الماء ، أو يستنشقون نفساً من الهواء ، إلّا وفي اعتقادهم أنه لا يخلو من كل هامة سامة ، أو جرثومة ضارة ، ولا يزالون على هذه الحال ، حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكول والمشرب ، ويمدوا ما استطاعوا في طرق الحمية من غير علة ولا داء ، فيبدلوا بالماء الزلال الماء المعدني ، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المفاخرة لتسيج أبدانهم ، فيضطرب نظام التركيب ، وتضعف البنية ، ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داء دفيناً ، وما به من داء ، وعلة كامنة ، وما به من علة ، فيشكو أمره إلى الطبيب ، فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهم وخيال في اختلاق علة له ، واختراع مرض ، دون أن يفحص أمره ، أو يبلو خبره ، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ، ويؤالي عليه الطبيب ما يؤالي من صنوف الخلاصات المعدنية ، والجواهر السامة ، والمركبات الحادة ، فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والقداء ، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ، ولا فطرة المولد ، ولا طبيعة الإقليم ، ولا توافق إلّا من جدت عروق آبائه تحت جليد ثوبه ، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، فلا يلبث أن يأتي على ما بقي في الجسم من قوة ، وما في البدن من صحة ، ويعيش ، إن عاش ، في يد الطبيب حياً كميت ، ويكون بين الأموات والأحياء ، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، إلى أن يلحد في لحده ، شهيد طبيبه وقتيل يده ، وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد ،

ما كتب على قبر عظيم من قدماء القواد: «لم تُمتنى قوة الأعداء، وإنما أهلكتني قوة الأطباء»
ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة، فأصبحنا لا نرى في جمهور من تراهم من
المترفين للقلدين إلا شاكية من ألم، أو مثالاً من مرض، فراجت سوق الطب، وعظم
عدد الأطباء، وغدت حوانيت الصيدالة في الأسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين
والقصّابين، وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج، وقُلَّ أن
توجد اليوم بيتاً خالياً من مريض، ولا مجلساً ليس فيه من سقيم.

(عيسى بن هشام) — كأنك تحاول أنيها الطيب الآمبي أن تقنعنا بقوة البرهان
وجليّ البيان، أن لا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء.

(الطبيب) — حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد، أو أن يذهب بقولي خلاف مذهبه،
وما قصدت بكلامي هذا كله إلا أن أظهر عيب بعض الأطباء في ممارسة صناعتهم، دون
التعرض لصناعة الطب في ذاتها، على أنه يمكنني أن أصيف إلى ما قلته ما قد قيل من قبل
وهو أن العلم علمان : علم تستنير به البصائر، وتهتدى به العقول، فهو جميل الأثر، محمود
الورد والصدور؛ وعلم تصدأ منه الأنفاس، وتضل به الأحلام، فهو وفي المرعى، سبي
المؤتة؛ وكذلك الطب طبان : طب يصحح الأجسام، ويشفي الأسقام، فهو عظيم
المنع، جميل القدر؛ وطب يورث الأمراض، ويولد الأدواء، فهو شديد الوطء، عظيم
الضرر؛ ومدارك الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضرار، والتفريق بين
الطيب والخبيث؛ ولا تتوهمن أيضاً أنني أنناول بكلامي جماعة الأطباء قاطبة، فإن فيهم
الصالح، كما أن فيهم الطالح، ولكنني أعني من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح
من مباشرة الصناعة مع الجهل بها، أو يعتمدون الحيل، وينصبون الأشرار، حتى
يعتل جسم الصحيح، ويترن مرض المريض، ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد
بعض شرهم في الفنى واليسار. وما أولى سائر الناس بأن يشبهوا بينهم عادة أهل
الصين في معاملة مثل هؤلاء الأطباء، وذلك أنهم يجرون على أطبائهم المعطاء ما دأبوا
أصحاء، فإذا نزل بأحدهم المرض انقطع المعطاء عن الطبيب، حتى يعود المريض إلى

سلامته ، فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة ، وتقصّر مدة العلة ، على خلاف الحال بيننا .

وما ينبغي أن ينصرف شيء عما قلته إلى بقية أهل الصناعة من ذوى الخلق والأمانة الذين يوفون الصناعة حقها ، ويؤدّون الواجب عليهم فيها حق أدائه ، والذين يراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال في العلل والأمراض ، وما تقضى به أحكام البلاد والمعدات ، واختلاف الأمزجة والطباع ، والذين يحملون لأنفسهم من حسن تبصرتهم ، وكثرة تجربتهم ، عُدّة حاضرة لمقاومة الأمراض ، وصحة تشخيص الأدوية ، ولطف تناسب العلاج ، وحسن الإرشاد ، لرفع الوسواس ، ودفع الخيال ، وما يجرى هذا الجرى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار ، بما لا يليق إلا بأهل الإقليم البارد ، واجتناب ما لا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهّزة لطباع أهل البلاد الغربية ، ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه يجب على الطبيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألين قوّة ، حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كثنة ، ولا يلحق أبدانهم منها مضرة ، وأن لا يُقدّم على كل الأدوية المسطّرة في كتب أهل الغرب ، فإن أكثرها مُحمّلت لأبدان قوية البنية ، عظيمة الأخلاط ، على خلاف المعهود في أهل مصر . فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للعرضى ، ويختار ألينها ، وينقص من مقدار تركيبها ، ويبدل بكثير منها ما يقوم مقامه ويكون ألين منه ، ولا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية ، وهى البسائط واللين والحمة والنفص والاستحمام والرياضة والهواء ، وأن يكون على الجملة مولماً بلذّة الصناعة في ذاتها ، لا يعادها لديه سواها من سائر اللذات ، تمتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون ، فتعظم عنده نفسه ، ويشرف في عينه قدره ، فيترفع عن سفالة الطمع ، وحيلة الشر ، ويزهّد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليّة ، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ وجاهٍ أو زخرفٍ ومتاعٍ في جانب لغة الإتيقان في الصنعة والإحسان في العمل ؟ وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب

العامل ، وهو القيم على قوام الأبدان ، والكفيل بصحة الأجسام ، والرقيب على اعتدال الأمزجة ، والمشفئ على سلامة الجوارح ؟ لا بل أية صناعة في الوجود تفضل صناعته ، وهي أمسُّ الصناعات بخلق الصانع الفاطر ، وتكوين المبدع القادر ؟ وإذا كان قد بلغ عجب الصناعة بأحد الصناعات المصوّرين في الزمن السابق لما ازدهر جمال الإتيان والإحكام في صورة إنسان تحسّتها من الممر أن استخفّت الطرب ، واستفترته لذة الصنعة ، فعمى عليه ، فألحى على المثال بمنجاة يُشير على نطق الإنسان ، بعد أن أحكمت فيه خلقه الإنسان ، ويكلف الجاد ، وقد اتقنت فيه الصنعة ، أن يخرج من الجود إلى الحركة ، حتى أطار عنه بعض أجزاءه ، وبقي المثال قائماً إلى اليوم ، يُصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الإتيان ، ومقدار لذة الإحسان في عمل الإنسان . فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه في صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياء أمامه ، وقد استخلصها من شوائب الأمراض ، واستنقذها من آفات العاهات ، وردّها إلى سواء التكوين ، وأعاد نظام الخلقة إلى أصله ، وانساق التركيب إلى شكله ؟ فهل يجوز في العقل ، لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الأطباء ، أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الدرجة الوضيعة ، فينزل بصناعته إلى مصاف أهل التجارة والسمع ، لا يفقه فيها من معنى سوى اصطباد الدرهم ، ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال ؟ لا جرم أن الطبيب المدرك يفضّل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ، ويسلو عندها أعظم مزية في العالم وأعلى رتبة . وفصل الخطاب ، في هذا الباب ، أن يكون مبالغ هتد ، وتجمع لذته ، أن يرى المريض بعد شفائه ، بوجه لامع كالدينار ، لا أن يراه في طول شقائه ، بنظر طامع في درهم أو دينار .

قال عيسى بن هشام : فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته ، وحسن نظره في صناعته ، وسألت الله لجماعة الأطباء ، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء .
ثم إنى ودعته بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء ، وقرّر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء ، إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء .

الطاعون

قال عيسى بن هشام : فَطَاوَعْنَا الْقَدْرَ ، وَعَزَمْنَا السَّفَرَ ، التَّمَامُ أَبْرَأَ الدَّاءَ ، بِتَبْدِيلِ
الْهَوَاءِ ، وَنَزَلْنَا مِنْ ضَوَاحِي الإسْكَندَرِيَّةِ قَصْرًا ذَا رَوْضَةٍ غَنَاءَ ، فِي بَقْعَةٍ فَيَحْجَأُ ، لَا تَسْمَعُ
فِيهَا إِلَّا هَدِيلَ الْوَرَقَاءِ ، إِبْقَاعًا عَلَى هَذِيرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا بَالُ الْمَوْجِ جَنَاحُ النَّسِيمِ ، فَرَفَرَفَ
عَلَى ذَلِكَ الرُّوضِ الْبَسِيمِ ، نَثَرَ الْمَاءَ ذَرًّا عَلَى تَيْجَانِ الزَّهَرِ ، وَرَفَرَقَهُ دُمُوعًا فِي أَحْدَاقِ
الْعَبِيرِ ^(١) ، هُنَاكَ يَتَمَنَّى الْعَاشِقُ لَوْ اسْتَعَارَ هَذِي الدُّمُوعَ لِحَاجِرِهِ ، فَيَسْتَلِينَ بِهَا قَلْبَ
شَاحِبِهِ وَهَاجِرِهِ ، وَتَوَدُّ الْعَاقِبَةُ لَوْ نَظَّمَتْ مِنْ ذَلِكَ الدَّرَّ عَقْدًا لَمَحَرَّهَا ، أَوْ نَطَاقًا لَخَضَرَهَا :

إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ شَيْءٌ عَجِيبٌ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ

ذَهَبَ حَيْثُ مَا ذَهَبْنَا ، وَدُرُّ حَيْثُ دُرُّنَا ، وَفُضَّةٌ فِي الْفَضَاءِ

أَوْقَلَ إِنَّهُ الْمَجْرَّةُ قَامَتْ فِيهِ زَوَاهِرُ الزَّهَرِ ، مَقَامُ الْكُوكَبِ الزَّهَرُ ، وَعِنَاقِيدُ الْكُرُومِ ،
مَقَامُ تَرِيَا النُّجُومِ ، وَأَنْوَارُ الْأَنْجَارِ ، مَقَامُ الشُّمُوسِ وَالْأَقْيَارِ ، فَأَقْنَا فِي ذَلِكَ الظَّلِّ الْوَرِيفِ ،
مُدَّةً مِنْ أَيَّامِ الْخَرِيفِ ، وَمَكْنَنًا تَقْطِفُ الْقَطُوفُ الدَّانِيَةَ ، بَيْنَ تِلْكَ الْأَعْيُنِ الْجَارِيَةِ ، فِي
عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ ، آخِذِينَ بِمُسْنَى النَّحِيزَةِ ^(٢) ، وَنُجْنَى الْفَرِيزَةِ ، فِيمَا
يُوافِقُ صِحَّةَ الْبَدَنِ مِنْ طَعَامٍ شَهِيٍّ ، وَغِذَاءٍ مَرِيٍّ ، وَرِيَاضَةِ الْأَعْضَاءِ ، دُونَ تَهَبٍّ أَوْ شَقَاءٍ ،
وَتَطْهِيرٍ لِلنَّفْسِ مِنْ أَدْرَانِ السُّكْدَرِ ، بِالطَّفِيفِ الْبَحْثِ وَحَسَنِ النَّظَرِ ، وَتَجَرِيدٍ لِلصَّدْرِ مِنْ
عَوَامِلِ الْهَوَاجِسِ ، وَغَوَائِلِ الْوَسَاوِسِ ، بِالنَّبْصِ فِي حَقَائِقِ الْوُجُودِ ، وَالتَّمَعُّنِ فِي صُنْعَةِ
الْخَالِقِ الْمَعْبُودِ ، وَأَفْضَتْ بِصَاحِبِي طَيْبِ هَذِهِ الْإِقَامَةِ ، إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ تِمَامِ الْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ ،
لَوْلَا أَنَّ رَاعِنَا شَيْطَانًا مِنَ الْإِنْسِ يَحْبِرُ الطَّاعُونَ ، فَقُلْنَا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَسُبْحَانَ
اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا زِلْنَا نَعْلَلُ النَّفْسَ ، بِزَوَالِ النُّحْسِ وَالْمَكْسِ ، وَمَا زَالَتْ تَتَلَوُّنَا النُّوَابِثُ
وَالْأَحْزَانُ ، وَتَرَاوَحْنَا التَّوَازِلَ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَمَكَانٍ .

وَانْبَرَى الْبَاشَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الطَّاعُونَ وَأَخْبَارِهِ ، وَمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنْ هَوْلِ أَفْعَالِهِ وَآثَارِهِ ،

فأجبتة بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعد عين ، وما أصاب إلى اليوم إلا عدد أصابع اليدين ،
وقريباً يقر من أماننا هذا العدو المناجز ، وردد في أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رِمَاحَ الجَنِّ وأَذْهَبَ التعْذِيبَ والتَّجَنِّي

(الباشا) — كيف تدعى ذلك وترعته ، وما عهدت منك إخفاء للحقائق ، ولا تمويهاً
للقائع ، وللطاعون في مصر أفاعيلٌ تذوب لها المآقي والأحداق ، وتتفطر منها القلوب
والأكباد ، وهو عندنا من أمراض مصر الموضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول ،
والمصريون يتوقعونه لكل ربيع ، حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » ، فيقولون جاء « الفصل »
عند ظهور الطاعون ، فترتاع النفوس ، وتخلع القلوب ، وتخور القوى ، وتذهل العقول ،
ثم يصول صولته ، ويفتك فتكته ، فلا يقف سبيله عند حاجز ، ولا يمنع اندفاعه مانع ، ولا
تفيض قرارته حتى يخرب القصور ، ويعمر القبور ، فتصبح الأطفال يتامى ، والنساء أيتام ،
ويسى الخلق بين ثاكل ومشكول ، وحامل ومحمول ، هذا يبكي أباه ، وذاك يندب
أخاه ، وهذه تؤكول على أهلها ، وتلك تنوح على أهلها ، وقد سمعتُ عنه في زمانى عن
أحد المعمرين يقول في وصفه عند وقوعه في سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون في شهر رجب سنة ١٢٠٥ ، ودأخل الناس منه وهم عظيم ،
واشتد بطشه ، وقوى بأسه في رجب وشعبان ، ومات به من لا يحصى من الأطفال
والشبان ، والجوارى والمبيد ، والممالك والأجناد ، والكشاف والأمراء ، ومات من
الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنيعاً ، منهم اسماعيل بك الكبير ، وقد أنى
عسكر القليو نجية والأرنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة ، وكانوا لكثرة
الموتى ، يحفرون حفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة وبلقونهم فيها ، وكان يخرج من
بيت الأمير في الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة ، وازدحم الناس على الحوائث
يلتمسون ما يجهبزون به موتاهم ، ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ، ويقف الناس
يتشاحنون ويتضاربون على ذلك ؛ ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا
مریضاً ، أو ميتاً أو عائداً ، أو معزياً أو مشيعاً ، أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن ؛

أو مشغولاً بتجهيز ميت ، أو باكياً على نفسه موهوماً ، ولا تنقطع صلاة الجنائزة من المساجد والصلوات ؛ ولا تقام الصلاة إلا على أربعة أو خمسة ، ونذر من يصاب ولا يموت ، وقل ظهور الطعن على الجسم ، فيكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيمتدثر ، فلا يفيق إلا مغلولاً أو يموت في غده إن لم يميت في نهاره ؛ واستمر فتكه إلى أوائل رمضان ، فمات الأغا والوالى في أثناء ذلك ، فولوا خلافتها فمات بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلافتها أيضاً ؛ واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في سبعة أيام ؛ وأغلق بالفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعاً . »

(عيسى بن هشام) — إني لأظنك تصف لى موقفاً شاهدته من مواقف الآخرة وأهوال القيامة .

(الباشا) — وما كان الأمر ليقتصر في الطاعون بعد ذلك على فتكه ، بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسه الإفريج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمور تشقى على نفوسهم ، يزعمون أنها تدفع الطاعون ، فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض ، ويفرقون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والمرء وزوجه ، ثم يهدمون الدور ، ويحرقون الثياب ، وينشرون البخور ، كأنهم الجاهلون أن هذه الأعمال التي تؤذى النفوس ، وتمطل مصالح العباد ، تشتت شمل الجن ، وتكسر أسنة رماحهم ، فيزداد الناس ويلاتاً على ويل ، وحرناً على حزن ، وخراباً فوق خراب ، وقد شاهدت بعيني ما تشيب له النواصي في سنة ١٢٦٠ ، وقص على أخى ما رآه منه في سنة ١٢٦٨ ، وهو في خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير ، قال :

« أمر جنتمكان محمد على بعمل « كورنيله » بالجيزة في اليوم العاشر من ربيع الثاني ، وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوباء من الطاعون لوقوع القليل من الإصابات بمصر ، ومات به الطبيب الفرنسي وبعض من نصارى الأروام ، وهم يعتقدون صحة « الكورنيله » وأنها تمنع الطاعون ، وقاضى الشريعة ، الذى هو قاضى العسكر ، يحقق قولهم ، ويسير على مذهبهم . واتفق أن مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع القاضى ، فأمر بحرق

ثيابه ، وغسل المكان الذي فيه ، وتبخره بالأبخرة المتنوعة ، وكذلك الأواني التي كان
يستخدمها ، وأمروا أصحاب الشرطة أنهم يأمرؤن الناس وأصحاب الأسواق بالسكنس والرش
والتنظيف ونشر الثياب في كل وقت ، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين
ودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم . وأما عزم الباشا على « كورتيلة » الجيزة أمر في
ذلك اليوم أن يندوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار
الإقامة فليمكث بالبلدة وإلا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد ، وأعطوا مهلة أربع
ساعات ، فانزعج سكان الجيزة ، وخرج من خرج ، وأقام منهم من أقام ، وكان ذلك في
وقت الحصاد ، وللناس مزارع ومراقق مع مجاور بهم من أهل القرى ، ولا يخفى احتياج
الإنسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه ، فيحرمونه من ذلك كله ، حتى لقد سدوا
خروج السور والأبواب ، ومنعوا مرآكب المعادي من السير ، وأقام الباشا في بيت الأربكية
لا يجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة ، ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد
إلى قصره ، ووقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى في مقالتها ببر مصر القديمة ، فإذا
أرسل السكتخدا أو للعلم غالى مراسلة ناو لها المرسل المقيد بذلك في طرف مزارق بعد تبخير
الورقة بالشمع واللبان والكبريت ، فيتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بعد منهما ، ويعود
راجعا ، فإذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضا بمزارق وغمسها في الخل وخبزها بالبخور
المذكور ، ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى ، وأقام الباشا على ذلك أياما ،
وسافر إلى الفيوم ، ثم عاد وأرسل بماليكه ومن يخاف عليه الموت إلى أسبوط . »

(عيسى بن هشام) — اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الأزمان
الغابرة — ولا يزال يبيننا إلى اليوم بقية منهم — من الأخذ بأسباب التوقي ، والاحتياط
لدفع غائلة الطاعون ، لجهاهم بحقيقته وأسباب انتشاره ، هو الذي يحميها اليوم من فلكانه
وسطواته التي قصصت على طرفا منها ، وقد كان جمهور الناس في أزمانكم ينكرون هذه
الوقاية ويسخرون منها .

(الباشا) — قل لي بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التي تأتي

بالأجل ، وأتى ارتباط بين هذا البخور وَحَيَّ الطاعون ، اللهم إلا أن يراد به تطهير أُمزجة الجن .

(عيسى بن هشام) — لا يفوتك أن كثيراً من الحقائق كانت مكتونة في خفاء الجاهل عند عامة الناس ، لاختصاص بعض الأفراد بالعلم ، ولبعد تناوله على بقية الطبقات ، فلما انتشر العلم وأضاء برهانه ، كَشَفَ للناس ما كان مكتوناً عنهم ، وأظهر من العمل والأسباب ما كانت تنفد دونه الأفكار خبيرة ، فإن كان الناس في زمانكم يعتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها ، وأن لا شيء يقوى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون ، فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة ، وأن لها وخزاً خفياً دونه وخزاً السنة وعو إلى المرات^(١) ، ولكنهم استعانوا بالعلم ، فصنعوا آلة تجسّم الأشياء الدقيقة وتمظهرها ، وتبرزها مرئية للعين ، فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود ، واستنبطوا طرق الوقاية منها ، فتدبرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائتها .

(الباشا) — وماذا يُجدي الوقاية والحذر من القضاء والقدر ؟

(عيسى بن هشام) — حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء ، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين ، فقد ظاهَرَ عليه الصلاة والسلام في الحرب بين درعين ، وقال الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » . ولطُرُق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفي الذي يسمونه « الميكروب » . وهو دَوِيَّةٌ دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر مدة من الزمن ، وهم يتخذون البخور في الوقاية لينجّل تركيبه ، ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواؤه .

(الباشا) — لقد كشفت لي معنى دقيقاً في رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه في عصرنا الماضي ، وهل لك في أن تطلعي على تلك الآلة العجيبة الجسمة للأشياء الدقيقة ، لأرداد تبصرة وهدى بالنظر في عجائب الخلقوات ؟

قال عيسى بن هشام : فذهبت إلى معمل كيميائي وأريقته نقطة من الماء تحت

(١) المرات : شجر يتخذ منه الرماح .

« المكرسكوب » ، فلما رآها كأنها غديرٌ ، ورأى ألوف الألوف من الهوام ساجدة فيها ، سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق ، والتعجيد لعظمة الصانع ، وتلا قوله عزَّ من قائل : « وما يَعْلَمُ جنود رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » ، فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ، ولم يفعل ما فعله ذلك الهندي مع العالم الألفاني ، حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ، ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات ، فسخر الهندي منه ، وكسر الآلة إصراراً على الباطل وعناداً للحق ؛ ولما أبقن الباشا بصدق ماقلته وما رآه ، وأن العلم هزَم جنود الطاعون ، وحطَّم رماحه ، ولولاه لمسات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات ، سألتني يقول :

(الباشا) — ومن المخرع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدره الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين ، وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنرد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد ؟

(عيسى بن هشام) — أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها ، وأنهم لا يزالون كالعمى بهم في معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة ، وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم ، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ، ويفضلون التعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ، ولا يعرفون منها إلا ما تخرَّك كتبهم من الآرصة .

(الباشا) — ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء ، وقد وجب علينا الفرار من قدر الله إلى قدر الله ، فعدُّ بنا إلى مصر إن شاء الله آمين .

قال عيسى بن هشام : فأجبتة إلى سُؤله ، وفقلنا إلى القاهرة ، بعد أن ودَّعنا تلك المناظر الباهرة .

الوباء

قال عيسى بن هشام : وأقننا في مصر مدة ، وقد أبلى الباشا من علته وسقمة ، وتمت له العافية والسلامة في جسمه ، فأخذتُ أهنته ذات يوم بالشفاء والإبلا ، من المرض والاعتلال ، وأذكر له أن صحة الأبدان ، هي ملاك السعادة للإنسان ، وإنك لو جمعت نعيم العالم كلها للمريض ، من مالٍ واسعٍ وجاء عريض ، لانصرفت نفسه عنها انصراف الضرب عن الماء ، والأرمد عن الضياء ، والمعمود^(١) عن شهى الغذاء ، وأن خاتم الياقوت في الإصبع التي أصيبت بدمل ، لا يساوي عند صاحبه حبة من خردل ، وأن ما اجتمع في سرير الملك من العزة والبأس ، كيهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

ومن بك ذا فم مريض يجذب مرآة الماء الزلالاً

وكنت كلما زدت من هذه الموعظة والحكمة ، أراء قد زاد في الإعراض عن شكر تلك النعمة ، فتحققت أن المرء إنما يذكر النعم في البؤس ، ولا يذكر البؤس في النعم ، وينسى المرض في الصحة ، ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم ، وفل من يحمد النعماء في لبسها ، ويدرك سعادة الحياة إلا في نحسها ، فهذا معنى من معاني الآية الشريفة : « وإذا مس الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه » . فسأنته عما دهاه ، وأذهله عن شكر الله ، فأجابني بقول ، في حال الخبل والذهول :

(الباشا) — فيمّ الهناء بكشف البلاء والضرر ، وما انتقلت من خطرٍ إلا إلى خطر :

فإن أسلم فما أبقي ولكن سلّمت من الحُمام إلى الحُمام

ألم تسمع معنى يخبر انتشار الوباء في مصر ، بعد أن خلّفنا الطاعون في الاسكندرية ، فما هذه الرزايا المتساقطة ، وما هذه البلايا المتلاحقة ، أو كما اتهمنا من بلاء دخلنا في بلاء ، وانصرفنا من شقاء إلى شقاء ؟

(١) المعمود : الذي يعمدته وجع من مرض .

(عيسى بن هشام) — أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس ، يغلب عليك الفزعُ والوسواس ، وإن كنت جربت في هذه الحياة شدة الألم ، وذقت في انقير راحة العدم ، وإن ما كنت تتمناه على دهرك ، من الرجوع إلى قبرك ، عند اشتداد الكروب ، من وقع الخطوب ، لم يكن لشجاعة في النفس ، تستهين بسكنى الرمس ، بل كان لضعفك عن احتمال الآلام ، من نوازل الأيام ، وأراك لا تزال ، مع صحة الدين ، وقوة اليقين ، ترهب الموت وتخشاه ، وتعتزرك الأهوال من ذكره ، وهذا داء في الناس قديم ، عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوفُ الرَّدَى آوى إلى الكهف أهله

وعَلَّمَ نُوحًا وابنه عِلَّ السُّنَنِ

وما استعذبته رُوحُ موسى وآدم

وقد وُعِدَا مِنْ بعده جَنَّتِي عَذْنِ

ولكننى لا أزيدك في الموعظة ، ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوسواس ، بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة نافعة ، اطلعت عليها اليوم في بيان أحول الناس ، ونعيم طبقاتهم في أهوال هذا الوباء ، فإن أردت تلوثها عليك ، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت . (الباشا) — هات أسمعنى لا زالت للحق راويا ، ولاهذى داعيا .

(عيسى بن هشام) قارئاً — « إنا النوازل العظيمة ، والخطوب الجسيمة ، محك الطباع ، ومسبار الأخلاق ، فهي لشدتها وهولها تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس ، وتهتك سجوف التمويه والتزييق عن حقائق الصفات ، فلا تمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها ، ولا التطاول بما هو مفقود لديها ، بل تتجلى للناظر بما اشتملت عليه ضمايرها ، واحتوته سرائرها ، من قوة أو ضعف ، ومن فضيلة أو نقیصة ، ومن علم أو جهل ، وهنا يتمكن الباحث في الأخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقيق ، وهي مجردة أمامه من كل غشاء ، عارية من كل غطاء .

« وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويرزع القلوب ، أعظم ولا أكبر

من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء ، فذلك لأننى بأساً من السلام بشئ . عما مجده
المستقرى . لأحوال الناس من طبقات المصريين ، وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى
والخيمة الكبرى .

« طبقة العامة أناس جُبلوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء ،
وتفويض الأمر لأقدار السماء ، وهم لا يعلمون من الوباء ، ما جرائيم الداء ، ولا علة المرض
والشفاء ، ولا سبب الهلاك والنجاء ، وليس في قدرة قادر من البشر أن يرحلهم عن
اعتقادهم ، أو يحوطهم عن يقينهم ، ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء
أن يضع في رؤوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور ، وأن الحذر يُنجي من المكتوب ، وأن
طب الأطباء يؤجل في الأجل المحدود ، وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم ، وهم
يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أموراً تضر ولا تنفع . فلا تزيد
في عمرهم ساعة ، ولا تكف عنهم غرب اللنون ، ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح ، فهم
بمعزل عن الخوف والهلع ، وفي أمان من الذعر والفرع ، وفي ضمان من الوسواس والهواجس
وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان ، وتعهد
الأجسام ، بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء ، والوقوع في مخالب الوباء ، ليعدهم عن
فهم قوله عليه الصلاة والسلام : « اعتقلها وتوكل » ، لكنهم لا يزالون على كل حال في
صحة من الأرواح ، وإن أغوزتهم صحة الأبدان .

« وطبقة الخاصة ، ونهى بهم أهل الدين واليقين ، وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم
لأحكام القضاء ، وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال ، والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله
لهم ، ولا تفتأ تجري ألسنتهم في مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله :
« ولكل أجل كتاب » ، « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ،
« أينا تكونوا يذكركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » ، « قل إن الموت الذي
تترجون منه فإنه ملاقيكم » ، تعالى الله أحكم القائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت
أمر واقع لا مردّ منه ، وأن الإنسان عرضة له في كل وقت ولحظة ، وأن طعمه واحد ،

سواء أكان بمرض الوباء ، أو صواعق السماء ، أو زلازل الأرض ، أو كان بغصة شراب ، أو عشرة قديم ، أو أسعة حشرة ، وأن نفس المراء خطاه إلى أجله ، فعليه أن ينتظر ساعتي في كل حركة وسكون ، وعند كل قيام وقعود :

وما نفس إلا يُباعد مؤلداً ويُدني المنايا للنفوس فتقرب
وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حى للقاء ، وأنه مقيم من دنياه أبداً في أرض رباه .
وإن لم يكن ثمَّ وباء .

ما خص مصرّاً وباءاً وحدها بل كائن في كل مصر وباء
وأن من قر من المقدور ، فعلى المقدور نزل ، ومن هرب من القضاء ، فالى القضاء رَحَلَ .

مهلّا أمن وبأفرت وهل ترى في الدهر إلا منزلاً مؤبواً ؟
وأن من حانت منيته ، لم تنفعه تقيته ، ومن حل أجله ، لم يحمه وجلكه ؛
ومن هاب أسباب المنايا ينكته ولو رام أسباب السماء يستلم
إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنهم عن الأخذ بأسباب التقيّة والحذر . ولا
في العمل بمقتضى القوانين المندوب إليها في حفظ صحة الأبدان ، وما يقرره أهل صناعة الطب
من سبل التوقى والتحرس اتقاء لما تُهوا عنه من الاقواء بالأيدى إلى التهلكة ، واحتذاء ما
ترسمه ظروف الأحوال ، وتقضى به أحكام الزمان ، ولا يجحدون الطاعة لشارة الأطباء في
مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً ، وإن لم يكن من ورائها
فائدة ، فليس في عقابها مضرة . فتراهم لذلك في أجل مقام من شجاعة القلب ، وقوة النفس ،
وثبات الجنان ، بفضل الدين واليقين ، وعلى أحسن حال من سلامة الجسم ، وطهارة البدن
بفضل العلم ، وحسن القيام بما يرشد إليه من وسائل الوقاية ، لا سلطة للوساوس والهواجس
عليهم ، ولا محل للرعب والرهب فيهم ، آمنين مطمئنين ، يتمتع كل واحد منهم بالروح
السليمة في الجسم السليم .

« وهناك طبقة ثالثة ، حديثة النشأة ، حديثة التربية ، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء :

لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ، ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب الدين ، ولم يرتاحوا لحسن اليقين ، بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية ، والفنون الصناعية ، دون علوم التربية النفسانية ، والفضائل الروحانية ، وخلصت صدورهم من آيات الله والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والأزدياء بالإيمان ، ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة ، لتقويم النفوس وتطهير الطباع ، ومعرفة الحقائق ، ورياضة القلوب على التجلبد والثبات ، عند وقوع الكروه ونزول الملمات ، فتجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة الويائية ، وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً وأجيبتهم قلوباً ، وأكثرهم قسوراً وسواساً ، وأشدهم قلقاً واضطراباً ، وأعظمهم خوفاً ورعباً ، وأكثرهم بلاءً وكرهاً ، يتمثل لهم الموت في أعينهم على أقطع الصور وأبشع المناظر ، فيحاولون الفرار منه ، وهو ممسك بنواصيهم ، ويهايون دُنُوهُ ، وهو آخذ بثلابهم ، حل الخوف مفاصلهم ، واستلّ الرعب نخاعهم ، فهم يرون في كل عود نفساً لهم ، ويحبسون كل صبيحة عليهم ، أولئك لا إيمان لهم يُثبت أقدامهم ، ولا علم لديهم يرجع أحلامهم ، بل هم على مثل حال للنفس عليه من الموت ، أو الممسوس من الشيطان ، يتوهمون طم الموت ، ومذاق الوباء ، في تنفس الهواء ، وتناول الغذاء ، وشرب الماء ، وملامسة الأيدي ، ومخاطبة الناس ، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الخدباء ، كَحَمَلٍ أَحَدُ المصابين بالوباء ، سَجَدَ دُمُهُ ، وسال عَرَفَتُهُ ، وخدت أنفاسُهُ ، والتوت أعصابُهُ ، وأمسك من بجانبِهِ ، يستنجد به ويستقيث ، لرحمته من شر العدوى ، ويدفع عنه نزول البلوى ، وما أشبههم في حالهم هذه من الخور والهلع والفرع والجزع إلا بمثل أناس قضى عليهم بالإعدام لوقعتهم ، فهم وقوف بين يدي الجلاذ والسياف ، إذا قُدِّمَ أحدهم للسيف والنطع مات الذي يليه من الخوف قبل القتل ، ومنهم من اعتكف على الحجر يشربها ليلاً ونهاره عساها تهوّل كيف اطمانت به الحال ، ومنهم من يبالغ ويغالي في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة ، مما وضعه الأطباء لقتل الجرائم ، فهو يشربها ويستعصمها ، ويدهن بها جسده ، ويغمس فيها ثيابه ، ويبذل بها فراشه ، ويغسل بها آنية طعامه وشرابه ، وكلما سمع زيادة العدد في

المصابين زاد في مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت أجسامهم مسمومة ، وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقاصصة ، وعيونهم غائرة ، ووجوههم مقيرة ، وأناملهم مضجرة ينطق عليهم قوله جل وعلا : « يَا أَيُّهَا الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ . » إذا رأيتهم حسبهم في حال المصابين بالفعل ، لولا أن هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء ، براحة العدم والفناء ، ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه المذاب في الحياة ، ومن أعظم الأسباب في رأى الأطباء لجلب الداء ، كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم ، وهم أصحاب الأرواح السقيمة ، في الأجسام السقيمة ، لم الفك في هذه الدنيا ، ولم الخزي في الآخرة .
فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات ؟

(الباشا) — ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرته وأرشدته إلا في طبقة أهل الخاصة الذين يعملون للقضاء والقدر ، ويعملون بالحيلة والحذر ، لكنني مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا الوباء ، وأرغب في التخلص من النظر إليهم ، وهم في مثل أهوال القيامة من الفرع والملع ، وليس من الصواب أن نجتمع بين أكرارنا وهمومنا ، وبين التأثر لأكرار الناس وهمومهم .

قال عيسى بن هشام : وخشيتُ على الباشا إن أنا تركته في هذا الحال غريق أفكاره وأسير همومه وأكراره ، أن ينتويه الانتكاس ، ويمثله الارتكاس^(١) ، والنكسة بعد اليلة ، شرُّ أطوار العلة ، فيادرت إلى طاعته ، وامثال إشارته ، فاحتوت له من ضواحي المدينة مكاناً قصياً ، ومسكناً مرضياً .

(١) الارتكاس : كالاتكاس .

العزلة في العلم والأدب

قال عيسى بن هشام : واعتزلتُ بالبasha مدة من الدهر ، نستمتع العزلة ونستعذب عليها الصبر ، ونعيش فيها عيش الحكماء ، من حسن الرضاء ، بحسن الاكتفاء ، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه ، وإغماض الجفون على قذاه ، مؤتسرين كل الانفس ، بالوحشة من الناس ، بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا ، ومعنا من أقوالهم ووعينا ، وقاسينا من عسرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأست للذئبِ إذ عَوَى وصوتَ إنسانٍ فكنتُ أظيرُ
إن سألتهُم حاربوك ، وإن وادعتهُم ناصبوك ، وإن صادقتهُم خانوك ، وإن واثقتهُم
كاذوك ، وإن خالطتهُم لا تأمن الاعتداء ، وإذا ما زجتهُم لا تعدم الافتراء ، وإذا طالبتهم
بحق فإنك لا تسمع الصمَّ الدعاء :

فلو خبَرْتَهُمُ الجوزاءُ خُبْرِي لَمَا طَلَمْتُ مَخَافَةً أَنْ تُكَادَا

ولو أنك لم تخالطهم إلا في مجالس أنسهم وصفوهم ، ومعاهد لعبهم ولهوهم ، لم تجن منها
إلا كلَّ ما يُبعد وينفّر ، وينقص ويكدّر ، تدخلها إذا دخلتها مُستروحاً مستبشراً ،
وتخرج عنها مستقبحاً مستكراً ، فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارةٌ معايب ، ومجتمعُ نقائص
ومثالب ، ومنابت أكدار ، وبنابيع أضرار ، ولا راحة في الدنيا إلا لمن تنسك وترهد ،
ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد ، وأبعدُ الناس عن معاشره البرايا ، أقربهم
إلى كرم السجاياء :

بعدي عن الناس برّاً من مقامهم وقربهم للحجبي والذين أدوا
كالبيت أفرّد لا إبطاء يدركهُ ولا سناد ولا في اللفظ إقواء^(١)

وعكفتُ مع الباشا في عزائنا ، أذهب به كل مذهب ، وانتقل به من مطلب إلى مطلب ،
في مطالعة الأسفار والكتب ، من تاريخ وأدب ، ومن حكم متينة قويمه ، وشقى علوم

(١) الإبطاء والإسناد والإقواء : من عيوب الغافية .

حديثه وقديمة ، أهديه من كل طرف بطرفة ، وأتحفه من كل باب بتحفة ، وأجنب مع ما يدعو إلى الضجر والملل ، ويدنى من الكد والكدال : فتارة أخوض معه غباب البحار وطوراً أجتاز به سراب القفار ، فترى من يحرق في البحر مراكمه ، ليحمل على اقتحام المنايا كعائمه ، ونسمع الشاعر في الفقر يحدو بناقته ، ويشبب بمشوقته ، ثم لا يقعد به ذل الغرام ، عن التفاخر بمن الكرام ، ولا يفسيه ذكر الهوى ، مواقف الخلف والردى ، فيمخلط بالغزل الفخر ، ويخاطب صاحبه من جوف الفقر :

إنا نحيلك يا سلفي فحيناً وإن سقيت كرام الناس فاسقيناً
وإن دعوت إلى جلي ومكرمٍ يوماً عرّة كرام الناس فادعينا
إن تبتدّر غاية يوماً لمكرمٍ تلق السوابق منا والمكينا^(١)
وليس يهلك منا سيد أبداً إلا افتليناً^(٢) غلاماً سيداً فينا
إنا نترخص يوم الروح أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا
بيض مفارقنا تغلي مراحلنا نأسو بأموالنا آثار أيدينا
إني لمن معشر أفتى أوائلهم قيل الكماة^(٣) ألا أين الحامونا
إذا الكماة تنجوا أن يصدبهم حد الطبات^(٤) وصلناها بأيدينا

وترى الناقة تطرب تحته إلى مواطنها ، وتشتاق إلى معاطنها ، فتحن حنيفة ، وتئن أنينه ؛ وكلما رآها تشكو مثل شكواه ، وتصفى بأذننها إلى نجواه ، وتردد برغائبها^(٥) صداه وتسمده بترجيعها في هواه ، تأوه وتنهد ، وترسم فأنشد :

لقد زارني طيف الخيال فهأجني فهل زار هذي الإبل طرف خيال
أصل كراهاً قد أراها جدابها ذوائب طلح بالعقيق وضال^(٦)

(١) الأصلي : السابق (٢) أفتى : استخرج (٣) الكماة : جمع كمي ، وهو الشجاع ولا يبال
السلح (٤) الطبات جمع طبة ، وهي حد السيف أو السنان (٥) الرغاء : صوت الناقة
(٦) الطلح والضال : شجر شائك .

ومسرّحها في ظل أحوى^(١) كأنها
تلكون زبوراً في الحنين منزلاً
وأشدن من شعر المطايا قصيدة
وأودعها في الشوق كل مقال

ثم ننتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة ، والوقائع المذكورة ، فنرى السماء تجري أنهاراً
في الوديان ، والمهيج تسيل انحداراً من مسايل الأبدان ، والموت واقعاً يحصد الرؤوس ،
ويجنى نفائس النفوس ، والفارس يمشي في الصفوف مشية الخيلاء ، ويطن برمح كل
طعنة نجلاء ، ثم ينشد في وصف أثرها ، ويعد غورها :

طمعت ابن عبد القيس طعنة تأثر
لها فقد لولا الشراع أضاعها
ملكته بها كفى فأنهت فتقها
يرى قائم من دونها ما وراءها
يهون على أن ترُد جراحها
عيون الأواشي إذ حدث بلاءها

وتذكو شعلة الحرب ، فلا تنطفئ ناراها ، ولا يخذل أوارها ، إلا وقد غادرت النساء أيامه ،
والأطفال يتامى ، والأموال نهباً منهوباً ، والأعلاق سلباً مسلوباً . والمدائن خالية خاوية ،
والقصور بائدة بالية ، والحرب ينخزل فيها القوى لأوهي سبب ، وينتصر الضعيف من
حيث لا يحتسب ، فكم دالت بها الدول ، ودارت الدوائر ، وانتلت العروش ، وسقطت
الممالك بعد لواء المر الممقود ، وبساط الحمد الممدود ، وبعد ذلك التفتيح في العظاموت ،
والتمادي في الجبهوت ، وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطها ، ويخطر في الخيال هبوطها ،
كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر ، إذا نزل القضاء وحّم القدر ، وكل ذلك مهما امتد
ظله زائل ، وعند التباهي يقصر المتناول .

ثم أدخل به في مطالعنا إلى حلقة حكيم واعظ ، يسلب الأبواب بقوة بيان ،
ويجلب العقول بضوء برهانه ، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه ، ويقول في حقارة
النفي وهو أنه :

(١) الأحوى : ما تضرب خضرته إلى السواد .

« أيها الناس، والله لَدُنْيَا كَمْ هَذِهِ أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ عِرَاقٍ ^(١) كَلْبٍ فِي يَدٍ مَجْذُومٍ . »
« وَالْخَيْرُ بَيْنَ أَنْ يَسْتَعْفَى عَنِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ أَنْ يَسْتَعْفَى بِالدُّنْيَا ، كَالْخَيْرِ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ
مَالِكًا أَوْ مَمْلُوكًا .

مَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقَدْ
« وَالْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ هِيَ حَيَاةُ الْغَنَى ، وَالْغَنَى هُوَ الْقَنَوعُ ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْغَنَى ، عَدِمَ
الْحَاجَةُ إِلَى النَّاسِ ، فَأَغْنَى النَّاسَ أَقْلَهُمْ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى
أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ :

غَنَى النَّفْسَ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغَنَى فَقَرًّا »
وَيَقُولُ فِي مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ : « الْجُودُ حَارِثُ الْأَعْرَاضِ ، وَالْحُلْمُ فِدَامٌ ^(٢) السَّعْيِ ، وَالْعَفْوُ
زَكَاةُ الظُّفْرِ ؛ وَالِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الْهُدَايَةِ ، وَأَشْرَفُ الْغَنَى تَرْكُ الْمُنَى ، وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عِنْدَ
هُوَى أَمِيرٍ ، وَمَنْ التَّوْفِيقُ حِفْظُ التَّجَرُّبَةِ ، وَمَنْ لَانَ عَوْدُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ ، وَمَنْ لَانَتْ
كَلِمَتُهُ وَجِبَتْ مَحَبَّتُهُ . »

وَيَقُولُ فِي مَسَاوِي الصِّفَاتِ : « الْكَاذِبُ فِي نَهَايَةِ الْبَعْدِ مِنَ الْفَضْلِ ، وَالْمُرَائِي أَسْوَأُ حَالًا
مِنَ الْكَاذِبِ ، لِأَنَّهُ يَكْذِبُ فَعَلًا ، وَذَلِكَ يَكْذِبُ قَوْلًا ، وَالْفَعْلُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَوْلِ ، فَأَمَّا
الْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ فَأَسْوَأُ حَالًا مِنْهُمَا ، لِأَنَّهُمَا يَرِيَانِ نَقْصَ أَنْفُسِهِمَا وَيُرِيدَانِ إِخْفَاءَهُ ، وَالْمُعْجَبُ
بِنَفْسِهِ قَدْ تَعَمَّى عَنْ عِيُوبِ نَفْسِهِ فَيَرَاهَا مَحَاسِنَ وَيُبْدِيهَا ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ لِلْبُخِيلِ يَسْتَعْمِلُ
الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الَّذِي إِيَّاهُ طَلَبَ ، فَيُعْبِشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيَحَاسِبُ
فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ ، وَأَعْجَبُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً وَفِي الْقَدِّ جِنْفَةً ،
وَأَعْجَبُ لِمَنْ يُغْفَلُ صَبْرُهُ وَيَشْكُو إِلَى النَّاسِ دَهْرُهُ ، فَإِنْ كَانَ عَدُوًّا سَرَّهَ ، وَإِنْ كَانَ صَدِيقًا
أَسَاءَهُ ، وَلَيْسَ مَسْرَةَ الْعَدُوِّ وَلَا مَسَاءَةَ الصَّدِيقِ بِمَحْمُودَةٍ :

وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتُهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ

(١) العراق : العظم أكل لحمه .

(٢) الفدّام : الخرفة على فم الأبريق .

« والمعجز عجزان : أحدهما عجز النفسير وقد أمكن الأمر ، والثاني الجدُّ في طلبه وقد فات »
ويقول في ذكر الحياة والموت : « إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهبٌ
تبادره المصائب ، ومع كلِّ جرعة شَرَق ، وفي كلِّ أكلة غَصَص ، ولا ينال العبدُ نعمة
إلا بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله ، فنحن أعوان
المنون ، وأنفسنا نُصَبُّ الخُتوف ، فمن أين نرجو البقاء ، وهذا الليل والنهار لم يرقما من
شيء شرفاً إلا أمرهما الكرة في هدم ما بناها ، وتفريق ما جمعا ، وعجبت لمن نسي الموت ،
وهو يرى من يموت . »

ويقول في وصف العلماء : « الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو
بالرحمة أحق منه بالناظرة ، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ، ولا يعذر نفسه في التأخر
عن هدايته . »

ثم يختم وعظه بقوله :

الدِّينُ بِإِنصافِكَ الأقوامَ كلَّهُم وأما دِينِ لآبِي الْحَقِّ إِنْ وَجَبَا
والمرءُ يُعَمِّيه قُودُ النَّفْسِ مُصْحِبَةً للخير وهو يقود العسكرَ الأَجَبَا^(١)
اللهم اكفني بوائق الثقات ومكاييد الأصدقاء .

ثم أنتهي بصاحبي إلى مجلس محاضرات بين الأدباء ، ومفا كهات بين الندماء ، فنقرأ
من لطيف بَوَادِرهم ، ورقيق نَوَادِرهم ، ما ينير ظلمة الفهوم ، ويجلو صداً الهموم :
لفظ كأنَّ معاني السَّكر تسكنهُ فمن تحفظَ شيئاً منه لم يُفِقِ
جزلٌ يشجع مَنْ وَاى لَهُ أذنا فهو الدواء لداء الجبنِ والقلقِ
إذا ترنَّم شاعرٌ للجبانِ به لآقِ المنايا بلا خوفٍ ولا فرَقِ
وإنْ تمَثَّلَ صاِدٍ للشُّخُورِ به جادتْ عليه بعدُ بغير ذى راقِ
وهكذا قضيتُ مع الياشا زمناً ليس بقصير ، أستخرج له نفائس الأعلام ، من بطون

(١) اللجب : الجيش ذو الجلبة

الأوراق ، وأقتطف معه زهر الأدب العاطر ، من حديث الكتب والدفاتر ، إلى أن قل
لى ذات يوم ، بين ندم ولوم :

(الباشا) — إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الأيام التي أضعتها من ساف عمرى
فيما لا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهي العيش ، وباليقنى كنت قصرت همى منذ
صباى على مثل هذه الميمنة ، مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد المعلوم ، واقتناء فرائد الآداب ؛
مغتبطاً سعيداً ، لا حاسداً ولا محسوداً ، أنتقل من مطالعة الكتب إلى مذاكرة العلماء ،
ومن مذاكرة العلماء إلى مسامرة الفضلاء ، ومن مسامرة الفضلاء إلى مطارحة الأدباء ، والله يعلم
أن أسفى أيزيد شدة ، وأن ندمى ليعظم حدة ، كلما تذكرت ما كانوا يتحدثوننى به فى أيام
دولتى عن مجالس العلم والأدب ، فما كنت آبه ولا أتبه إليها ، وكنت أظن أهلها قوماً
من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للفرز والردن^(١) .
والحمد لله الذى أرشدنى إلى الهدى آخر الدهر ، فعلمت مقدار هذه النعمة التى حبيبت إلى
الحياة ثانية ، وهونت على احتمال متاعها ، وما إخالك تبخل على بعد الآن ، وقد علمت
نعم ذلك لى ، ب مداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد ، وما أرى من بأس فى أن تترك
هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ، وبمجامع الفضل ، وأن تدب
العلم ، لتذاكر معهم ما نطالعه ، وتأخذ عنهم ما يحفظونه ، وقد زالت المخاوف واطمأنت
انخراط بزوال الأوبئة والطواعين ، والحمد لله رب العالمين .

(عيسى بن هشام) — لا تطعن أبها الأمير — دفع الله عنك المكاره — فى مثل
هذه المجالس ، فقد طوتها الأيام ، ورمستها الأيام ، ولم يبق اليوم من يأنس إليها
وينافس فيها .

(الباشا) — كيف يكون ذلك ؟ وأنا لأزال أسمع ما ترجمونه من كثرة المدارس الآن
وانتشار المعلوم والفنون ، وتعدد الطالبين ، وسهولة الحصول على الكتب ، ووفرة المطابع
وإطلاق الأفكار من القيود ، وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الأول من تفسير الوصول

إلى الكتب ، وتعدّر استنساخها لضئ أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز ، حتى لقد كان الجُهلاء الذين لا ينتفعون بها ، ولا يفقهون منها شيئاً ، هم أول من يفاخر باقتنائها ، ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف ، كأنها اليواقيت والجواهر ، يعجز عنها من يروم الانتفاع بها ، إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها ، فلا يدع اليوم أن يكون في يد كل مصري كتاب يطالعه ، وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليف محاضرة ، وحليف مذاكرة ، تُرَدِّدُ به مجالس الفضل وترهو أندية الأدب ؛ وكيف لا يكون ذلك ، وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كل لذة في العالم ؟

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم في هذا العصر ، وترقّت الفنون ، وكثرت المطابع ، وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ، ولكن قل يمتنا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها ، فكسدت سوقها ، وبارت تجارتها ، وأغفلنا من ينتفع بها الاشتغال بسواها من الأمور الباطلة ، والأشياء التافهة ، ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة ، لكثرة الانتشار والتبذل ، والناس اليوم في حركة لا شرقية ولا غربية ، قد اشتغل بعضهم ببعض ، واكتفوا من دهرهم بمجواث يومهم ، فتعطلت بينهم مجالس العلم ، واندرست مجامع الأدب ، واقتصروا على مطالعة أخبارهم في الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب ، وأنى يكون لهم الاستقرار في المجالس ، وهم لا يستقرون في مكان ، ولا يهدأون من حركة ، ولا ينفكون عن غدد ورواح ، ولا ينتهون عن نقلة وسفر ، وأكثر ما يكون جلوسهم في المركبات : مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء ، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين في بلاد الأجانب ، متنقلين في ديار العرب للفرجة والتفكك ، وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه في المدرسة وأحرفاً ، وهو بالنسبة التي لم يصل فيها بسد إلى تمام التعقل وكمال الإدراك ، فيحفظها ويؤديها كالبغاة فإن أسعده الحفظ في آخر الدراسة ونجح عند الامتحان ، تأبطت الشهادة ونفضَ يده من تلك العلوم ،

وطرحها عنه طرح الثوب الخلق ، ونبذها نبذ القمام على أهلها ما أسرى من ماد^(١) وما جف من زاد ، انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة ، وقاساه من تعب في درسها وحفظها ، من غير أن يفقه لها مزية في ذاتها ، أو يذوق لها حلاوة في طعمها ، فإذا هو بلغ إربته ، ودخل في خدمة الحكومة ، أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء ، وقل فيهم بعد ذلك من يصبوإلى العلم وأهله ، أو يحن إلى الأدب وكتبه ، ولئن مال بعضهم بالمطالعة فإنها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ، ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة ، وثقل على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتفتل وطول الانهماك في الأشغال المتجددة ، فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب إلا وقد بلله العرق ، ودعه الكلال واللال ، ونزل به الضجر والسأم ، وإنك ترى مثل هذا بيناً في حديثهم ، فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة ، ولا يقيمون في الكلام قضية مرتبة ، ولا يجيبهم منه إلا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجزوماً .

(الباشا) — ما أكاد أخليك أيها الصديق من غلو في وصف هذه الحال ، وهل خلا أو يخلو زمان ، في البداوة كان أو في الحضارة ، من مجالس العلم ، ومجامع الفضل ، وأسواق الأدب . وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها ، حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يفعلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد ، أو فاضل أريب ، أو نديم أديب ، أو محدث ظريف ، تفككه به النفوس ، وتستريح له القلوب ، هذا والكتب بين الناس قليلة التداول ، والعلم بعيد التداول ، فألهم اليوم على هذه الحال التي تصف ، والصحف منشورة ، والكتب مطبوعة ، وأسماء العلوم مذكورة ؟

(عيسى بن هشام) — قد استغنى كبرائونا وأمرائونا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب ، وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة ، والأدوات المصنعة من عمل

(١) أسنى الله : تغير فلم يترب

الغريبين ، فترى الكبير أو العظيم يقلب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً ، أو الساعة
التي ترنُّ بعدد الثواني ، وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمةً في العين ، وأجلُّ أثراً في النفس من
جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ، ومن جميع الكتب التي تصفو ساعات الحياة
بتطالعها ، ولا تتوهمن أنني أجزم لك بخلو هذا الزمن عن مجالس العلم ومحافل الأدب ،
وما كان كلامي إلا على الوجه الأعم ، وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبت ، فأزورك
بعض المجالس والمحافل ، ليمقطع رَيبك ، وليطمئن قلبك .

الأعيان والتجار

قال عيسى بن هشام : واستنصتُ الباشا أُرُور بهر مجلساً من تلك المجالس الممدودة ،
والأندية المفقودة ، مجلس الوجهاء والتجار ، أهل الصبب المرتفع في الأمصار ، فشهدتُ
منهُ أُرُوراً وانقباضاً ، ووجدتُ فيه انحرافاً وإعراضاً . ثم التفتُ إلى يعاتيني عتاباً شديداً ،
ويوسفى عزلاً وتغنيداً ، ويقول لى : ما عهدتُ منك منذ صاحبتك إلا الخير لى ثريده ،
والنفع تبهذه وتعيده ، ومازالتُ أشكر لك تلك اليد البيضاء ، فى العزلة عن الناس والتخلف
من مواقف القضاء ، دفماً لما كنتُ تحذر وتحشى ، من شر الخاتمة وسوء العقبي ، بتزلم
الأحزان ، وتراكم الأشجان ، وما تعقبه من السقم والاعتلال ، وسوء الفكرة بعد الف
والإبلال^(١) . فإياك تستنصنى إلى مثل هذه المجالس والمجامع ، وربما كان فيها ما يؤذى
العيون وينفر المسامع ، وقد شاهدتُني يكاد يصيدنى التلف ، من شدة الحزن والأسف فقلتُ :
أشهد الله ما أنفى لك إلا الخير والتوفيق ، فى كل مذهب وطريق ، وقد رأيتُ التجارب
أوسعتك كرماء وحلماً ، وصروف الدهر أكسبتك معرفة وعلماً ، بعد قلة الاختيار ، وكثرة
الاغترار ، وسوء الابتدار ، فى الإرادة والإصدار ، وما كان فيك من خشونة اللبس ، وشو
الأنف ، وضيق العطن ، وصلف الرأي ، وما أحب لك بعد ذلك أن ترمى فى أمور الناس
إلا مشهداً يُسلى عن الكرب ، وملعباً يفرج عن القلب ، فلا يكن نظرك إلى أعمالهم فى غدهم
ورواحهم وفى أفراحهم وأتراحهم ، ونعيمهم وبؤسهم ، ورجائهم وبأسهم ، مثل نظر الحكيم
« هيراقليط » بل مثل نظر الحكيم « ديموقريط » ، كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكي
ويتمحسر ، وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر ، فإذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه :
الناسُ مِنْ دِيانِهِمْ فى مَأْتَمِهِمْ فَالسُّعْبُ تَبْكِي وَالرَّوَاعِدُ تَعْدُ
أنشد الثانى فى تأييد مشربه :
هَذِهِ الْحَيَاةُ رَوَايَةُ مُشْخَصٍ فَالْأَيْلُ سِتْرُ وَالنَّهَارُ الْمَلْعَبُ

ومن صواب الرأي أن لا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تذر نفسك من أجلهم
 المرات ، وهم معي أمتك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك ، ويكشف من غمتك ،
 فأسس مطوعاً في القياد ، ووافقني على ما تبين له من الرشد والسداد ، فقيمت به داراً
 عالية الجدران ، واسعة الأركان ، شاهقة البنيان ، لأحد التجار والأعيان ، فراحنا عند
 الباب سائس يسحب فرساً مصحياً مطبوعاً ، ويحمل على كتفه طفلاً رضيعاً ، يقول وقد
 أظهر النيط بواطنه الكامنة : « لست أدري والله أسائس أنا أم حاضنة ؟ » ، ومن ورائه
 آخر يحمل صفحة متدقة بالخلخال ، يقول وقد تلوث بئاسها وتبلل : « علام أنهب في هذه
 الدار وأشقي ؟ وإلام يدوم هذا الشقاء ويبقى ؟ ولست أدري والله أسائس أنا أم سقا ؟ » .
 ولما ولجنا الباب إذا بالبواب ، يقول وفي يده حبرة ثياب : « لا مرد للمقدور والمقضى ، ولا
 رجاء في العيش الرخي » ، والله ما أدري أجواب أنا أم حصي ؟ » ولما جاوزنا دهليز
 المكان ، إلى باب الإبران ، وجدنا عنده غلاماً قتي السن ، يثمد ويئن ، وبين يديه دخان
 وورق ، وبجانبه كتاب مطبق ، وهو يقول : « محبباً والله للوالد يشغل ابنه بسجارات
 يحشوها ، فيلهيه بها عن دروس له يتلوها ، لا غرو إن فاضت العيون بسوا كبتها ، واحتقرت
 القلوب بلواهبها » ، فما أدري والله أفرأش الدار أنا أم ابن صاحبها ؟ » فما أحسن بنا حتى
 انتفض قائماً ، وتقدم مسلماً ، ثم ذهب أمامنا ، ليذكر قدمونا ، وإذا بالوالد مقبلاً علينا
 بتكفاً في مشيقه ، ويتمثر في حبيته ، فسأل بنا ورحب ، وبالغ في التحية وأسهب ، ودخل
 بنا على أهل مجلس مختلف الأرياء والهيات ، متباين الأشكال والسمات ، فمن صاحب
 عمامة يعمده بيده رصفها ، وآخر يحدد لقمها ، ويحبك بالآبر طرفها ، ومن صاحب طربوش
 قد أماله على جبينه ، فإذا تحرك أسنده بيمينه ، فترى يده أبداً لا تسكن ولا تستقر ، كأنما
 هو في تأدية سلام مستمر ، ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو والنط ، وسمناهم يتحاورون
 على هذا النمط :

(أحدهم) — نعم لا بد من ذلك إذا يسر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان ، فإن
 إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتي بأرباح لا يمكن أن تأتي بها الأشغال التجارية ،

وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً ، فقد أصبحت الآن لا نفع يُرجى منها ،
وتوكل على الله في الاشتغال معنا بالأبنية فهي أنجح وأرجح .

(الثاني) — ومن أين لي ، زادك الله من النعمة والبركة ، ما يساعدي على هذا التوسع ،
والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة السر في الغنى الكامل ؟

(الأول) — لا تقل هذا أيها السيد ، « وأما بنعمة ربك فحدث » ، ودعواك ضعف
الحال إن هي إلا تواضع منك ، والله يزيدك فضلاً على فضل .

(الثاني) — استغفر الله يا سماعة البك ، هذا حسن ظن منك ، وإلا فالحقيقة غير
ما ظننت ، وقد قلت لك إن السر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة في التجارة ،
فإنها كان رزق الآباء والأجداد . وريح مستور ، أبرك من ربح مشهور .

(ثالث) — تالله إنكم أنى ضلالكم القديم ، وهل بقي في التجارة ، التي زاحمكم عليها
الآجانب ، ربح يُذكر ، أو رزق يُطلب ، فتركوا هذا الخول ، وعليكم بأشغال الأقطان
في البورصة ، فهي الربح المضاعف ، والرزق الحاضر ، يأتيتك رغداً بلاكد ولا تعب ، وك
رأينا من فقير وأج البورصة ، فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً ، وهذا صاحبنا الخواجة فلان
اليهودي ، وفيكم من أدرك والدته ببيع الخبز بالحارة ، قد مارس تلك الأشغال ، فأصبح أكثر
الناس مالاً وأرفقهم حالاً ، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام رحمة الله عليهم .

(رابع) — ولكن فأنك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا
بأشغال السمسرة ، وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم ، وهل تريدون أن ينزل أحد منا
بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر ؟

(الثالث) — حاشا لله أيها السيد ، ليس هذا من قصدي ، وإنما أردت أن أبين
لكم أن هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً ، فأصبح من كبار الأغنياء ،
فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة ، لا شك أنه يخرج منها بمدة قصيرة قارون زمانه ،
(خامس) — ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير ، وقد شاهدنا بأعيننا ما
أنتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامة ، وتبديد الغنى الواسع ، والخطايا

العماد الرفيع ، وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فالله خير حافظاً . »
(سادس) — أما أنا ، ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين ، فقد كفاني تأديباً ما تكبدته
من الخسائر في تلك المضاربات على الأفطان ، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين
لأنجوت من الخراب .

(الثالث) — لا حول ولا قوة إلا بالله « إنك لا تهدي من أحببت » ، كيف نخشون
الخسارة في أشغال الأفطان ، وتوقعونها والرجح فيها مضمون ، مع بعض الانتباه لجرى
الأخبار ، وحسن التخصمين في الإحصاء ، وتقدير الحصول والمطلوب للتسليم ، ومع التقليل
من الممارسة والجرأة في العمل .

(سابع) — كيف تدعى ذلك ، حفظك الله ، وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل
واجتمعت فيه مصادته ، فما زال يهوى في بحر البورصة ، حتى وصل في الخسارة إلى القرار
وإن كان لا يزال ظاهراً في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجم .

(ثامن) — سبحان الله ! ألا تعجبون معي من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ، ثم
لا نلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف ، فكيف سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدر بالوف
الأثوف ، ثم يظهر الخفى ، ويتضح الباطن ، فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة السكاذبة
(الخامس) — نعم صدقت ، ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرني في كل
مجلس عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر مني مالاً وأعظم ثروة ، وأن مقامه بذلك رفيع ،
ومرتبته سامية ، فلما توفاه الله انكشف الحال ، ولم يرث عنه أولاده ما يكفي لبقاء بيته
مفتوحاً ، وبقاء اسمه مذكوراً ، وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل ، فسبحان
الغنى الدائم .

(الرابع) — دعونا بالله من ذكر الأولاد والموارث ، فإنني كلما تذكرت أخلاق
آبائنا في هذا الزمن ، ورأيت ما وصلت إليه ثروة فلان ، وما انتهى إليه حال أولاده من
الفقر والضئيل ، بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة ، وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسيماً منسياً ،
فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة ، هان على أن أنفق ما في حوزتي في حياتي ، وأن
أنتفع بأموالي في مدة عمري .

(الخامس) — معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا ، وما فائدتنا في هذه الدنيا إذا لم نجمع الأموال ونُدخر الثروة لأعقابنا ، ونترك لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا ، ولا نجعل الذنب كله على الأولاد في تبديد الموارث ، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم ، ويفعلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالربع ، وتبقى العين قائماً والبيت مفتوحاً ، والاسم مذكوراً ، ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها إلى ...

(السادس) — لا مؤاخذه بإسعادة البك في مقاطعة الحديث ، ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرها ، وكيف أغتال النظار حقوق المستحقين ، وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون ، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود ، واندرت البيوت وعفت الآثار ، وذهبت أسماء أصحابها ، كما ذهب أمس قبل اليوم .

(السابع) — نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان ، فإنه خصص جانباً من الربع لقريته ، واشترط أن يُحفظ الباقي ويُدخر ، وكلما تكوّن منه نقد عظيم يشتري به عقار ، ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصلي ، ليكون في نمو متواصل على توالي الأيام وصروف الحداث ، وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته ، فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة .

(الثالث) — ليس ذلك من الحزم في شيء ، واسكنه الخلو في البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ، ولقد حرّم الرحوم نفسه من التمتع بماله في حياته ، وحرّم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف .

(الأول) — أطلب منك المغف والسماح وعدم المؤاخذه ، فمن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقتراً ؟ قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقر عليها ، وما كانت مائدته لتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج ، وحق جدك ، وإنما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله إلا في الوجوه النافعة .

(الثاني) — لا اعتماد عندى فى هذا الباب على الوقف أو الملك ، وخير ما يتّخذ الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس ، وأن لا يعوّدهم فى حياته الإنفاق والتبذير ، بل يروضهم على التوفير والتدبير ، ومعرفة قدر الدرهم والدينار .

(الأول) — وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها ، وهل ذلك التهذيب إلا ما شئت من القضاة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ؟ ولقد أدعشتنى فلان بالأمس ، وأضحكنى فى شكواه من الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم فى المدارس والمجالس ، إذ قال لى فى حديثه : « مازال هذا الولد يزيد فى تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة ، فأصبح لا يكلم أهله إلا بالوطانة ، ولا يعرب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ، ولا يرضى عن شىء فى البيت ، فإذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب ، وإذا أتوه بالخبز والجبن قال على بالميكروسكوب ، ثم ترى الشقى يقسم الأطعمة أقساماً ، فيقول البيض والابن غداء كامل ، والخضّر غداء ناقص لا ينفع ولا يبرى ، وإن الأرز وما شابهه من المواد الغذائية لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد فى الجسم ، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتورم به الأعضاء ، وإن القواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها إذا نشفت خصوصاً البطيخ لأنه أسرعها قبولاً لتولد الحيوانات السامة ، وهلم جراً ، حتى حير الخبيث أهل البيت فى طعامه وشرابه ، فوق ما حيرنى فى اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه وكما عارضته فى شىء ، شمع بأنفه استكباراً ، ولوى عنقه استحقاراً ، وسخر بى لجهلى ، وفخر على بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبنائنا من علوم المدارس ، يتعالمون على آبائهم ويعيرونهاهم ، بعد أن كان الولد كالبيت البكر فى الزمن الماضى ، لا يرفع طرفه فى وجه والده حماءً ووجلاً ، وكان لا يجروا على مكالمته إلا بحياء عن سؤال من صغره إلى كبره .

(الثاني) — ولكن فأتلك أن تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يغفر لها كل ذنب ، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة ، وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، وبأبائنا كانوا التفتوا فى أيامهم إلى تعليمنا فى المدارس ، فكنا استغنيينا عن ممارسة التجارة ، وذل البيع والشراء ، وكساد السوق ، وترويج السلعة بالأقسام والأيمان ، فما

العيش إلا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر نقداً عيناً ، وذهباً خالصاً ، دفعةً واحدة سالمة لأيديهم بلا مظل ولا تسويق ، في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم ، يقضون الجزء الأعظم منها في المسامرات والمفاكهات ، ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوفير والتعظيم ، وما في قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء ، ورأس المال في ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب في المدرسة ، فأخبرني حينئذ نبي ربح في التجارة ، وأنى شأن لها يوازي هذا الربح ، وهذا الشأن في خدمة الحكومة ، وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة .

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسالم به ، ولكن من أين لك أن يقال ابنك الشهادة ، وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم ، فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها ، ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة ، مثل ابني ، فإنه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة في تطالب الخدمة ، والوظائف مشحونة ، ونظار الحكومة لا يجدون سواها .

(السادس) — عسى الله أن يبدل الأحوال ، ويسقط هذه النظارة ، ويمن علينا برحوم أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن ، فترى حينئذ كيف يكون تقدم أبنائنا في المناصب .

(الخامس) — حقاً إذا ذهب هؤلاء النظار ، وعاد صاحبك إلى النظارة ، فقد أقبل علينا السد ، وانجلت الكروب ، وصفت الأوقات ، وأنا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي لإنجائك ، فقد كان معهم في مدرسة واحدة ، وهو دائماً يطالع الجرائد ، ويتربص الحوادث التي يكون من ورائها سقوط هذه النظارة .

(الثامن) — أراكم تحبطون في أمر أولادكم على غير هدى ، والأصوب عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً ، لا لأجل التوظيف في الحكومة وانخروج عن طبقاتهم ، وأما من جهة حفظ الموارث في أيديهم بعد مماتنا ، فأحسن الطرق أن لا نقترب عليهم في النفقة أثناء حياتنا ، وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا ، بل نخصص

لهم قسما من المال يشغلون به على حداثتهم تحت أعيننا ، ليعتبرنوا على العمل ، ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم ، ففتربى لهم ملكة الحرص على المنافع ، وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم ، والتمتع في أبواب المراجعة ، وقد جربت ذلك في أولادي ، وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح إن شاء الله .

(السادس) — هل جاءت جريدة اليوم ؟

(صاحب البيت) — نادياً لابنته — إئتني بالجريدة وقرأها علينا .

(يحضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرأ لها)

(الأول) — اقرأ لنا من الأول .

(الغلام) قارئاً — الحرب .

(السادس) — هل وقعت الحرب ؟

(الغلام) — ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) — اقرأها من آخرها

(الخامس) — اتركها من أولها إلى آخرها ، واقرأ في « المحليات » فلا فائدة لنا في

رفع الحرب أو اجتنابها .

(الغلام) قارئاً — تأليف الشركات .

(الرابع) لسادس — لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التي كنا تكلمنا

في تأليفها من المشتري الأطيان المعلوم من الحكومة .

(الخامس) — إن شاء الله يكون لنا نصيب مما في هذه الشركة .

(الثالث) — من أعضاءها ، ومن الرئيس ؟

(السادس) — أعضاءها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) — معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة ، وهل نسدينا ما وقع منه .

(الثاني) — وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى

بالمأكل أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة معهم .

(السابع) — وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت « أمهمى » في التأسيس أكثر من فلان .

(الأول) — وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً علىّ في شركة أبداً .

قال عيسى بن هشام : واشتد بينهم الجدل والخصام ، تخملقت العيون ، وعبست الوجوه ، وتحركت الضغائن ، وثارت الأحقاد ، ورأينا كل واحد منهم يضمّر لأخيه من الشر والأذى ، ما لا يضمّره القرن لقرنه في ساحة الوغى ، فانصرفنا عنهم ، وتركناهم يهوج بعضهم في بعض ، كأنهم في موقف الحشر ويوم العرض .

أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام : وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية ، وذوى السياسة والدراية ، ممن بيدهم حلُّ الأمور وعقدُها ، ويمسكهم شقاء الأمة ومعدُّها ، الناشئين في مهد المعارف والعلوم ، والناشئين في أشقات المنطوق والمفهوم ، والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم ، والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم ، الذين تفكشفت لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية ، وتنفاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية ، فوصلنا إلى دار ينهر بياضها ، ويهرر إيماضها ، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها ، وخلمت عليها الزخارف جلابيها ، فسار بنا الخدم إلى حجرة في جانب الساحة ، أعدت للانتظار والاستراحة ، وإذا برجل جالس فيها يتأمل بين يقظان ووسنان ، فرأسه كُرَّةٌ والكُرَى صولجان ، فلما أحسَّ بقدمنا ودخلنا عليه ، انتبه زريح النعاس بأصبعه عن عينيه ، فسمنا فلم ، وهو يتعاب ويتلثم ، فتخيلناه من ظاهر جلته ، وبذاذة هيئته ، أنه صانع من الصناعات ، أو تبع من الأتباع ، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للفلام ، أنه ذو رحم في البيت وذو مقام ، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول ، بعد أن ذهب الخادم مستأذناً في الدخول : « قُبِّحَ اللهُ الخدم ، فهم نعمة من النعم ، شرهم حاضر ، وخيرهم نادر ، والعناء بهم ليس له آخر ، فكُم أغضبوا حليما ، وآدوا كرمجا ، وكُم كسروا الصحيح ، وخلطوا الصريح ، وكُم ارتكبوا جرما وإثما ، وجاءوا إفككا وظلما ، وكُم فتحو الأغلاق ، واختلسوا الأعلاق ، وكُم أحدثوا الشقاق ، وأذهبوا الوفاق ، وكُم فرقوا بين الرء وأهله ، وحالوا بين الفرع وأصله ، ولعنة الله عليهم في الدارين ، فقد دقت منهم الأمرين ، وكادت نصل بنا أفعالهم الشنيعة ، إلى ما لا يحمد من الجفاء والقطيعة ، وابنى حرسه الله ينظر ويفضى ، ويتحمل منهم ما لا يرضى ، وهم يتجنون علينا وينتصرون ، وإذا أمرتهم بأمر لا يأثمرون ، ويشهد الله أنني كلما رأيت مال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد ، ونفقتهم يتضاعف وتتجدد ، ذاب الثؤاد فسال من العميون ، مشوبا بجماء الشؤون^(١) وأما وكيل البيت ، وما أدراك

(١) الشؤون : عروق الدمع من العين

ما الوكيل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل ، فقي لا تخطئ في النفاق بحيلته ، ولا تطيش في البيت بحيلته ، دأبه المسكر والخداع ، وديده الشقاق والنزاع ، يرضى طفلاً ، ليسخط كهلاً ، ويتملق للجارية في الحرم ، وللو صيف من بين الخدم . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر ، ويتأفف ويغصير ، فلم يُفدنا من هذه الشكوى التي تضم الآذان ، إلا رجوع الفلام بجواب الاستئذان ، فاتمينا من شققة لسانه ، وحمدنا الله على كرمه وإحسانه ، ثم اقتفينا أثر الفلام إلى حجرة بادية الرّواء ، مضية بالكهرباء ، مفروشة بأثمن فراش ، وأبدع ريش ، على اختلاف في الأجناس والأنواع ، وتباين في الأشكال والأوضاع ، فالتحفة الشرقية ، تقابلها الطرفة الغربية ، وآنية الذهب ، يضارعها آنية الخشب ، فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء ، من الرؤساء والوكلاء ، فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر ، ونحني من أدهم ما يحلو من التمر ، ودونك بعض ما اقتطفنا وجنّينا ، وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) — نعم بهذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا ، فإن في ذلك لو تعاون تحرير رقبتنا وإقضاء محنتنا .

(ثانيهم) — ما أبعد ما تحرمي ، وما أسرع ما تحكم ، فهلا نبأتنا ، لله أبوك ، كيف ترتيبك لهذه القضية ، واستقراؤك لهذه النتيجة ، وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية ، ونصرة حزب الجيش عليها !

(الأول) — أراك نست بعويص الرأي في السياسة ، ولا ببعيد الفور في استخراج النتائج ، ألا تعلم ، لا زلت مسدداً ، أن في انتصار حزب الجيش قلباً لحيطة الجمهورية ، ورجوعاً بفرنسا إلى الملكية والإمبراطورية ، أو القنصلية ، فأتينا بمنزل أولئك الملوك والقواد الذين دوخوا الشرق والغرب ، وتهروا الممالك ، وأخضعوا الدول ، وأصبحت لهم الكلمة العليا على أهل البسيطة ، فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع ، ولا يعارضهم مطالبهم معارض ، وإني لأعلم علم اليقين ، ممن عاشرت من كبار الفرنسيين وصاحبتي ، أنه لولا هذه الجمهورية لَمَأ وصلنا نحن إلى هذه الحال .

(ثالثهم) — دعنا بالله من هذه الخيالات ، واتركنا من هذا اللغو ، ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال ، فإنك متين العلاقة بالمستشار ، وما بينك وبين الوصول إلى المنصب الذي تتطلع إليه إلا قيد شبر ، وأنت مع ذلك في غنى عن خدمة الحكومة بما لك من الغنى واليسر . ولكن ماذا تقول في مَنْ هو في حاجة دائمة إلى البقاء في أسر الحكومة وذل الخدمة ، ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لكأنت في الخدمة يوماً واحداً .

(رابعهم) — وأنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لي نصف معاش ، فأهجر خدمة الحكومة ، وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ، ثم أعتد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة ، هى أهناً عيشاً ، وأعظم ربحاً ، وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان .

(خامسهم) — ما أسخف الرأي وأضغف الفكر ! ومن ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية الحرف والصناعات ؟ وكل أسباب المعاش لا تخلو في هذه الدنيا من المتاعب والأكدار ، ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلها عناء ، ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر في الأمور ، ويكفيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره ما دام درهمك في يدك ، ولكن التاجر في حاجة أبداً إلى أصغر موظف في الحكومة ، وإن كان من أغنى الأغنياء ، ولوتراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكتاب ومجالسة معاون وتحمية القاضى ومخاطبة المدير لعلهم أن خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة ، بحيث لو خيَّرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه ، وبين الدخول في صف الموظفين بالحكومة ، لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه ، والأرقم من جلده ، لحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تمذه أنت شقاء وبلاء ، وتعتبره ذلاً وهواناً .

(سادسهم) — على رسلك أيها القاضى ، لا تمكس القضية ، ولا تقلب الحقيقة ، ولا تحمل ما تراه في أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحقوقهم والاستعظام لأهل الحكومة ، على أن حرقهم خسيصة في ذاتها ، بل ذلك حادث فيهم

من جهلهم وضعف إدارتهم ، وإلا فلو تخلى أحدهم عن طبقته ، ودخل في طبقتنا يوماً ، لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل ، والخربقة في الرأي ، وتعلم أن الموظف قد باع للحكومة حريته ، وذهب لها نفسه ، تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، مقابل مقدار من المال يحدّد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد ، وهو أمير نفسه ، وسيد أهله ، ويأبى أن يهادنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتزويجنا على التجارة ، ولكن بشئ ما صنعوا وبشئ ما خلقونا له ، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ، ولم يفهموا بما كان للحكام في الأزمان السالفة من الصوّل والطول ، والقوة والحول ، واكتساب المال من الجاه — ولو علموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في أيديها كالأيتام في يد الوصي يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال في حجر المروض — أمضوا الأنامل ندماً ، ولأرسلوا بدل الدمع دماً ، على ما فرطوا في أمرنا ، وأهلوا في شأننا .

(الخامس) — إنك لتتكلم بكلام المجائز اللاني يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملابس والمطعم . وأين أنت ، هداك الله ، من طالب المعالي ، وابتناه المفاخر ، وتشيد الجدا ، وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضرر ، وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :
ولو أن ما أسمى لأدنى مميشة كفاًني ، ولم أطلب ، قليل من المال
واسكنما أسمى لجدي مؤئل وقد يدرك الجدي المؤئل أمشالي
وإلى الله المشتكى من زمن صفرت فيه النفوس ، وضعفت الهمم ، وماتت العزائم ، ورضى الناس فيه بالخول والسكون ، وبالعيش الدون .

(السادس) — إني لأعجب منك أيها الفاضل كيف يفيب عنك الصواب إلى هذا الحد ، فتري أن في خدمة الحكومة سودداً وعلاءاً ومجداً وسناءً ، وما هي إلا الذل والشقاء والبلاء في أثر البلاء ، وأنا أفصل لك الحال تفصيلاً ، لتعلم أن بقاء أمثالك في خدمة الحكومة ، مع القدرة على التنجى عنها ، عجز وضعف ، وجهل براحة الحياة وأنى جهل فأقول : تنقسم الرغبة في خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الرغبة فيها المال ، أعنى لسد العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا القسم يكون في حال المضطر الذي حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق ، فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ، ويسمى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة .

والقسم الثاني : الرغبة فيها للجهاد ، أعنى عزة للنصب ، ونفوذ الكلمة ، ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ، ليس لشوطه نهاية ، ولا لحدوده غاية ، ولا بد فيه للجواد من كِبوة ، وللسيف من نبوة ، وطالما كان اعتلاء المناصب ، وارتقاء المراتب ، داعية للرزايا والمصائب ، ومجلبة للبلايا والفوائد .

والشرُّ يجلبه العلاءُ وكم شكا نبأً على ما شكاه قنبر^(١)

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سليم من المعاطب ، ونجا من الخطوب ، فهو لا يزال طول حياته في هم ونصب ، كلما ارتقى في المنصب درجة ، وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتلها ، ولا يغتا مستعظماً لِمَا فوقه ، طامعاً فيه ، مستصفاً لِمَا في يده ، راغباً عنه ، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها ، غير راضٍ عن نفسه ، ولا الناس عنه راضون ، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء ، وملتهى الكد والكدر

ذلك الخائبُ الشقي وإن كان يرى أنه من السعداء
بحسب الخطأ كله في يديه وهو منه على مدى الجوزاء

وأخلق بمن كان همه أبداً التطلع إلى غير ما في يده أن يكون أنحس البرية حالاً ، وأقصهم عيشاً ، ولذلك زهدا الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ، ورغبوا عن اغتراب غاربها ، وحذروا العقلاء من السعي وراءها ، وشغل النفس بها ؛ هذا كله إذا كان المنصب عظيم الجاه ، نافذ الأمر ، وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة والشرف ، والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق ، فأما والطريق إلى المناصب كما نراه اليوم ، قاصر على التوصل والتوسط ، وإهراق ماء الحياة ، والمنصب على ما تعلم لا أمر

(١) قنبر : هو مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

فيه ولا نهى، ولا حل ولا عقد، فالفرار منه أجدر بطالب الجاه وأحرى، والتماعد عنه أشرف بذى الفضل وأشقى. والنزول عنه نعم المنصب العالى، اطلأب للمعالى؟
والقسم الثالث: الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواه، دفعاً للسأم والملل، وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بمحاجات الناس، والتلهى بها عن تهذيب النفس ولا يدخل فى هذا القسم إلا مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر، خالياً من كل أدب وفضل، مشغول الضمير بالوساوس والمواجس، فأكرهُ شئاً لديه نفسه، وأثقل حمل عليه حياته، ولا بدّ له من مشاغل متجددة، ومسائل متعددة، تشغله عن الخلو بنفسه التى صارت عنده، إذا هو خلا بها لحظة، كأنها خلية من خلايا الزناخير، أو وكور من وكور الأفاعى، وهيمات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً، لأن مَنْ ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيّق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخلقة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبة فى خدمة الحكومة، لخدمة الوطن ونفع الأمة، وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً، لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن، ومن أراد أن يخدم وطنه، فليتنازل من قيود الحكومة، ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف.

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصاً فى بلد ينسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة، وينزعونها عنه إذا سقط منه، فالرجال عقداء بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل:

إِنَّ الْأَمِيرَ هُوَ الَّذِي يُضَيِّحُ أَمِيرًا يَوْمَ عَزَلِهِ

إِنَّ زَالَ سُلْطَانُ الْوَلَا يَكُنْ لَمْ يَزَلْ سُلْطَانُ فَضْلِهِ

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يبعد عنها محروصاً إلا مَنْ أضله الله على علم، ولذلك فإنى عاهدت نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً، وتكون معهم أينما حلوا وساروا، لا يسلبها منهم ثقلب السيماسة، وتغير الحوادث، ولا يؤثر فيهم غضب زيدٍ أو رضى عمرو.

(سابعهم) — الله أنت ما أحلى بيا نك ، وأحلى برهانك ! وأنا مملك في هذا الحكم ، وعلى هذا العزم .

(الثاني) — اتركوا هذه الخطب السكدرة والأفكار المحزنة ، وخذوا بنا في حديث غير هذا بقرج عنا وروح ، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهم الليل ، وهل لك يا فلان أن تقوم معي للمسابقة والرياضة بالسكليت ؟

(الأول) — الأحسن من هذا أن تأتونا بالقونوغراف نستمع إليه .

(ثامنهم) — أو قوموا بنا إلى عرس فلان ، فقد باعني أن فيه « بوفيه » لم يُسمع بمثله حسناً ووضعاً .

(الأول) — أنا مملك .

(الثامن) — لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء .

(الأول) — است مملك في هذا ، بل نخرج من البوفيه إلى الأوركسترا لسماع الموسيقى الانجليزية أو الأوبرا التليانية .

(الرابع) — أنا لا أتوجه معك لأنني ذاهب إلى « السكوب » .

(السابع) — انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء .

(الخامس) — على الجرائد الفرنسية منها ، فهي أصح من العربية أخباراً وأغزر مادة .

(الثالث) — اقرءوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو بعضها مع بعض .

(الثاني) قارئاً — « آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا . »

(الرابع) — ماذا جرى لصوابك يا عزيزي ؟ إقلب الصحيفة الأولى ، فما لنا ول هذه

لثالثات الافتتاحية ، وما لنا ول هذه الأفكار الصبائية ؟

(الثاني) قارئاً في الصحيفة الثانية — « الاسكندرية لمسكاتبنا » : « الأمة برجالها ،

والناصب بأربابها ، والمعارف هي التي تخرج لنا رجال المستقبل ، ومن أين لنا بالرجال إذا

كانت تبخل بالمال ، فالمستقبل حينئذ مظلم ، والوطن آسف ، ولا نهضة للأمة إن لم تنهض

لواطن لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية ، وبخلاف ذلك كان . . .

- (الرابع) — حسبك أيها القارىء حسبك . أمّا قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات المعلومة !
- (السابع) — اترك « الاسكندرية » إلى غيرها .
- (القارىء) — « الزقازيق لمكاتبتنا » : يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكس والرش . . .
- (الثامن) — أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة الوطن ، عليك يا صاحبي بالحوادث الداخلية .
- (القارىء) — « يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديدية إلى الإسكندرية فى هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستان إلى العاصمة على اكسبريس الصباح
- (الثامن) — اترك قراءة هذا « المانيستو » أيضاً
- (القارىء) — « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار . . .
- (الثامن) — جعل الله اللجنة قراره ومشواه . فدعه واقراً لنا سواء .
- (القارىء) — « وصل سعادة السردار إلى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة أن لم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان » .
- (الثامن) — سبحان الله ! كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليونان وحوادث اليونان .
- (القارىء) — « يسم البوليس الكلاب الضارة
- (الثامن) — نسأل الله السلامة والهداية للجميع .
- (القارىء) — « كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ، ويقول ، حفظه الله ، فى آخر رسالته إنه من غرامه بصدق لخباء جريدتنا صا ولا يفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه . . .
- (الثامن) — لا نزاع فى هذه الكفاءة وسبحان الموفق .
- (القارىء) — « ربه عظيم : قد فجع الإسلام وأنهدم ركن الدين وأظلم الكون »

قصفت المتون غصن نقيب الأشراف بالدبر الطويل عن ست وتسعين سنة قضائها في عمل البر والإحسان ، فكان لنبا موته أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً .

(الثامن) — لا حول ولا قوة إلا بالله . لا بد أن تكون أسمار البورصة هبطت لهذا النبا هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً .

(القارىء) — « تفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً في قضية التزييف ولم يتم فيها شيء . الآن ومتى تم نبادر إلى نشره إفادة لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الأخبار بأوقاتها . »

(الثامن) — أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار .

(القارىء) — « فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان في مقدمة الشيعين لجنازة المأسوف عليها «وردة جعلان» في الأسبوع الماضى . وكذلك فاتنا أن ننهي حضرة مكاتبنا الفاضل « بنزلة و أكد » حيث رزقه الله بولادة مولود . جملة الله من أولاد السعادة . »

(الثامن) — جل من لا يغفل ولا ينسى . ولكن فاتته أن يذكر أ كان ذكراً أم أنثى . .

(القارىء) — « لدغت عقرب ابنة في قسم الوايلى . »

(الثامن) — نعوذ بالله . هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة في « الاحتياطات الصحية » ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية .

(القارىء) — للثامن — يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء ، واسمع لهذا النبأ العظيم .

(الثامن) — سمعاً وطاعة .

(القارىء) — « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن في مشروع فتح شارع المرور ، ونحن بلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع

الوخيمة الذي يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبي في البلاد ، وسنشرح لحضرات القراء بمضار هذا المشروع في مقالة افتتاحية .

(الأول) — إن هذا الخبر لا يعلم به أحد سوى ، فكيف وصل إلى الجرائد ؟
(الثامن) — إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يمدد أرباب الخل والمقد إلى استخدام الخرس في مجالس الحكومة رجوعاً إلى المادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية .

(الرابع) الثاني — اقرأ بقية الأخبار المحلية .

(الثاني) — لم يبق في الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات .

(الرابع) — أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك « الجرائد الثلاث » ؟

(الثاني) — هي كما تعلم نسخة واحدة في الأخبار وإن كانت مختلفة في الأسماء .

(الرابع) — اقرأ لنا التلغرافات .

(الثاني) قارئاً — « دروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ — كان الاحتفال بتوديع حقبة

النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة .

(الرابع) — ما هذه الصغائر ؟

(الثاني) — هي التلغرافات الخصوصية .

(الرابع) — علينا بالعمومية .

قال عيسى بن هشام : وما قرأ القاري التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس

حلقة يكثر اللفظ في شرحها ، ويرجون الظنون في تأويلها ، وما فيهم إلا من هو على

خلاف لرأي صاحبه ، وإذا هم قد عادوا إلى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . وما

وجدنا الجدل يحدث بينهم اشتعالاً ، خرجنا من بينهم انسلالاً ، وتركناهم في سياستهم

يتهمون ، وفي ضلالهم يعمهون .

العرس

قال عيسى بن هشام : ولما فرغنا من زيارة تلك الحافل المشهودة ، والمجالس المحدودة ، قلت للباشا : قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال ، ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابني وهو يظهر التوقف ، ويبدى التأفف : « ما بالك تقطع على الطريق ، في البحث والتحقيق ؟ ومال لك تحرمي السمع والاجتماع ، للاطلاع على العادات والطباع ؟ ولم تختار أن تقتصر على ما في الكتب والأوراق ، لمعرفة الآداب والأخلاق ؟ فترك النظر للخبر ، والمس للآس ، والممارسة للمقايسة ، وأى الطبيب أدق صنعا ، وأكثر نقما : الطبيب الذي يقتصر على الكتب في درس الأعضاء والأحشاء ، أم الطبيب الذي يدرسها في تشريح الجثث وهي تسيل بالدماء ؟ على أنه قد زال عني في هذه المدة ، ما كان يعترضني من الغضب والحدة ، وانقلب العسر من أخرى يسرا ، وغدا التقطيب بحمد الله بشرا ، وصرت لا أقابل عيوب الخلق ، بغير الحلم والرفق ، ونعلت أن أحكم ، ولا أتألم وأنصغر ، ولا أتخسر . وأتدبر ، ولا أتفجر ، فأنا اليوم أنفكهم بخالطهم ، وأتروح بعباساتهم ، فلم يبق لك من عذر وجيه ، ترتضيه بعد ذلك وترنجه . » وما زال الباشا يجري على هذا النمط في الشرح والبيان ، وبأخذني بالبرهان في أثر البرهان ، حتى مكنتني بساطان حجته ، وأنزلني على حكم رغبته ، وكنت دعيت فيمن دعى من الناس ، إلى ولجة عرس من أكبر الأعراس ، فقلت له عندي اليوم حدة الكفاية ، في بلوغ الغاية ، فهلم إلى الحفل الذي تحتشد فيه الحافل ، والمنهل الذي تنفرع عنه المناهل ، وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره ، وبدأ في الطور الأول من أطواره ، فما قرئنا من قصتنا حتى وجدنا الليل هناك نهرا يقاتل ، ولحمة الدجى جرة تتحرق ، فدخلنا ساحة كأنها مدينة ، تبرجت في يوم الزينة ، فوقنا هبة في وسط لاردخم ، لا نجد

موضعاً للقدم ، حتى أخذ بيداً أحد المستقبليين بالباب ، من ذوي العلامات في الثياب ، فَدَسْنَا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً ، ولم يحسنوا التحية لنا ردّاً ، فجزبناهم على ذلك بعض الطرف ، وأقمنا بينهم لا نطق بحرف ، ثم أخذنا نقلس بأعيننا صاحب الدار ، فلا نهتدي له على قرار ، كأنما صُنعت الوليمة في غيبته ، وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته ، أو أننا أخطأ العرس إلى سواه ، واشتبّه علينا مقره ومشواه . فهُمَّنَا بالقيام والمسير ، لولا أن أشار لنا بالسلام مشير ، فقبضناه صدقاً لنا من الخُلصاء ، في جمع من الفضلاء والأدباء ، فقصدناهم ، فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحباً ، وجلسنا معهم تحتى ثمر الخديت يانها ورطباً ، وعلمنا منهم أن رب الدار في ذهول لا يدرك ما يذرّه وما يأتيه ، وأن صاحب البيت لا يدري القبة بالذي فيه ، وأنه لا تتريب عليه ولا لوم ، فهو مشغول بتحية كبار القوم ممن لم يخالطوه قبل اليوم .

(الباشا) — وهل يدعو الناسُ إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل ؟

(أحد الأصدقاء) — نعم يدعو الناسُ إلى أعراسهم كلٌّ مَنْ عَلَا لَهُ صَيْتٌ واشتهر له اسم من الأمراء والكبراء والعلماء ، فمنهم من يجيب الدعوة ، ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس ، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاء ، ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة ، حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الأعراس .

(الباشا) — وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله ؟

(الصديق) — الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء ليته . وأكثر الذين تراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانبا عظيما من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده ، وفيهم مَنْ وصل به حب الشهرة والفضيحة أن أنفق في إقامة العرس جميع ماله ثم بقي عليه من الدين ما أدخل بنظام معاشه ، وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ، ثم قسم دفاتر تجارته إلى شطرين : شطر يحتوى على بيان ما بقي لديه من أصناف التجارة وأجناسها ، وشرط يتضمن أسماء من

حضر العرس من الأمراء والكبراء ، وقل ان تشتري منه صنفاً إلا ويدكر لك منهم اسماً يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد والتمن في جنبه هين .

(الباشا) — ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت ، بل كنت أعهد لها أنها تقام لا لتنافس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ، ومشاركتهم له في صفوه وهنائه ، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء .

(الصديق) — أبس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الأعراس ، بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم .

(الباشا) — إني أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعت بهم في مجلس للعلماء .

(الصديق) — نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحجة الشريعة وأئمة الدين .

(الباشا) — ومالي أراهم يسرعون ويهرولون في خروجهم ، وما الذي وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل ، وليت شعري ما الذي أزعجهم وأخرجهم ، أنزك بالدين مكروه ؟ أحل بالإسلام خطب ؟ أحدث بين الناس حادثاً بدعي يستدعي قيامهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

(الصديق) — لم يحدث من كل ذلك شيء ، ولم يمرض لهم عارض ، وإنما هي عادة لم ألفوها في الولائم والمآدب ، إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام يادروا إلى الخروج من العرس ، فتراهم عند قول أحد الظرفاء : « يد في الكباب ، ورجل في الركاب » والذين يعتذرون لهم يقولون إنهم علماء عاملون بقوله تعالى : « فإذا طعمتم فانتشروا » ، وأنهم يرون سماع الغناء مكروهاً في الدين ، فلا يجاسون في العرس بعد الطعام خشية أن يتبدى الغناء فيحل بهم المكروه .

(الباشا) — ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا ؟

(الصديق) — هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونهائهم ، وهو قادم علينا لجلوس معنا ، فإن قينا من يأتس به ويصوب إلى مجالسته .

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه — أرجوك أن تسأخني في فضول القول ، فلا صبر لي عن (١٠)

الاستعلام والاستفهام ، خصوصاً إن كان في الأمر ما يخص الدين ، فقد قيل لى إن السبب في مفارقة وفد العلماء للعرس في عقب الطمام هو كراهتهم لحضور مجلس الغناء ، فهل لنا أن نرشدنى إلى القول الأصح في هذا الباب ، وما الذى يجب أن يؤخذ به ، وكيف اقررت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ، ورضيت سماع الغناء إن كان مكروهاً ؟

(الشيخ المتخلف) — الكلام في هذا الباب طويل ، وما أظن السبب الأعظم في المبادرة بالخروج إلّا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء .

(الباشا) — إنى أريد أن أهتدى بهديك في باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته فلا تمخل علينا بفضلك وعلمك ، والوقت وقت مسامرة ، فإن أردت أن تقضى جانباً ما فيما ينفع ويقيد ، فقد أدّيت واجباً عليك في الدين ، وجعلنا لك من الشاكرين .

(الشيخ المتخلف) — اعلم أن طرب الغناء أمر غريزى راسخ في طبيعة الحيوان ومن الحيوانات المعجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ إليه وتسكن به ، فيصعد من فسوتها ، ويكسر من حنّتها ، وربما ذّلت به رقابها ، وأمكن قيادها ، وهذه الطبيعة هي من أكبر الحيوان أجساماً ، وأشدّها بطشاً ، إذا سمعت صوتاً مرمّماً أو كلاماً منعماً ، لم يلزم هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً — ولو كان في مواقف النيران — اهتز الحمة المطوّقة على قنن من الأقماع . وهذه الإبل المعروفة بأنّها أغاظت الحيوان كإدا نزل إذا برأها السرى ، وأضناها التعب ، وأهاسكها الظما ، فنقّنت لها إلحادى ، ذهلت في الخلع عما أصابها ، وأعلت بالغناء ، عن مناهل الماء ، وهى على الرخس في ظمئها أو العشر^(١) ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى ، وطالما شاهد المشاهدون هوامّ الأرض ودوابّها تخرج من كهوف الجبال و بطون الرمال ، فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب مسيرها ، وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأحجارها السخنة خاف الجيش ؛ ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ

(١) الخمس والعشر : من أطماء الإبل .

بحر يضي الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله إليه ، فجلس يلهي نفسه بالغناء ؛ وإذ ابدل اثنين (١) قد شق أمواج البحر بتدنى من صاحب الصوت ، فلم يزل في تدنير ، والفيلسوف في تنقيبه ، حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع ، فأيقن الفيلسوف أنه استهواه بتأثير الغناء ، وذلك بقوة الطرب ، فاستطاع يستخره كيف شاء ، فوق عباب الماء ، كأنه مطية وجنأ (٢) تسير في عرض البهلاء ، على توقيع الحذاء ؛ وحكاية إبراهيم بن المهدي في اقتياده الوحوش الضارية تسحر غنائه مشهورة مذكورة .

هذا بعض ما يقال في تأثير الغناء في الحيوانات المجهمة ، مع ضعف إدراكها ، وكثافة إحساسها ونقص خلقها ، فما بالك بتأثيره في الإنسان ، وهو أسمى الحيوان رتبة ، وأكمله خلقاً ، وأعظمه إدراكاً ، وأصفاه جوهرأ ، وألطفه روحاً ؟

والغناء ، في تعريف قوم من الفلاسفة ، فن يقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها الأذن ، فتمتزله نفوس أرباب المدارك العالية ، والأمزجة الصافية ، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع ؛ وكان القدماء يعتبرونه لغة عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم ، وكان لابد لطالب الفلاسفة عندهم من الإحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات ، وقد عبر عنه الحكماء السكبريان « فيثاغورس » و « هرمز » أنه علم التنسيق لكل شيء ، ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرمونيا » ، ومعناها نظم والتنسيق ومنه الترتيل ، وكلهم مجمعون على أن لا شيء في العالم يعادل تأثير الغناء في هيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكفالات ، وعندهم أن الذي لا يتأثر منه لابد أن يكون به نقص في الخلقة ؛ والغناء مغروس في طينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ، ومنذ استهل في الهدى باكياً ، فلا يسكن إلا به ، ولا يراح عنه إلا بتطربه به ، وفضل تأثير الغناء في النفوس على تأثير الكلام ، كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون إلى لغة أخرى .

والوقائع كثيرة حجة في التاريخ ، تشهد بقوة تأثير الغناء ؛ منها أن أهل مدينة أسبرطة كانوا في فتنه اشتد لهيبها ، وعظم شرها ، فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماء

(١) الدلفين : دابة بحرية وهي المعروفة بالدرفيل . (٢) الوجناء : الناقة الشديدة .

القائمين بأمرها ، فما زالوا يغنونهم حتى طربوا ، فصفت أرواحهم ، ورقّت نفوسهم ، ولانت عريكتهم ، فانتها من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت ، وقام صياح الطرب ، وقام صياح الشعب ؛ ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤس الجبال للاحتشاد في الجند ، فاذا انعقد جمعهم أغرم العدو بهم من يُغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة في قلال الجبال ، فيشتغل في نفوسهم لُبُّ الوجد ، وتهيج فيهم نائفة الحنين ، وينزع بهم الشوق إلى منازلهم ، فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ، ويذهب بهم على وجوههم ، وقد تكرّر وقوع ذلك فيهم ، حتى قرر رؤسائهم الحكم بالإعدام على كل من أغنى بينهم بذلك الغناء ؛ ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان ، إذ أضحك أهل مجلسه وأبلاكهم ، ثم أنامهم وتركهم ؛ وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى تنسيق أصواتهم في الخطابة ، وتتبع النغم لتأثير القول في النفوس ، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب ، فيجمله بجانب المنبر ، حتى إذا وجده خرج عن النغم شدّ نبيه بصوت الآلة ، فيرجع إلى الأصل ؛ ولما تجد بين الأمم أمة في بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها إلا وعندها الغناء في الجيش آلة من آلات الحرب تمين على ممارسة الأهوال وتثير إلى منازل الخوف . وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفي من الأمراض والأسقام ، وكان « إيسمين » في مدينة « تيب » يزعم أنه يشفي من النساء^(١) بصوت الناي . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهم يؤكّدون أن الغناء يشفي من الطاعون ومن داء المفاصل ومن نهش الأفاعي . وفي اليوم جماعة من كبراء الأطباء في أوروبا يقررون بعد كثرة التجارب أن الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض ، وأطلقوا عليه لفظة « مِلُو تِرَافِيَا » ، يعني العلاج بالطرب ، كما قرروا من قبل « الهيدرو تِرَافِيَا » ، وهي المعالجة بالماء ، « والايكترو تِرَافِيَا » ، وهي المعالجة بالكهرباء . وقد جرّب أطباء فرنسا تأثير الغناء في وظائف الأعضاء بآلة حاسبة ، فوجدوا أنه يزيد في دورة الدم ، وفي حركة التنفس ، سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للأغاني

(١) النساء : عرق من الورك إلى الكتف .

التي تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض ، مثل اتخاذ الداي من خشب الكينا ، فان سماعه يشفي من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن في ألمانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يقتدى به التلامذة ابتداءهم بحروف الهجاء ، وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة .

وجامع القول في هذا الباب ، من جهة البحث والنظر ، أن الخالق جعلت عظمته تدجل من فضله ونعمته على الإنسان لـكل حاسة لذة ؛ فلذة النظر في تناسق المرتبات وترتيب أجزائها ، وذلك هو الجمال ؛ ولذة الذوق في اختلاف الطعوم ، وذلك هو المذوبة ؛ ولذة الشم في لطف الرائحة ، وذلك هو الطيب ، ولذة اللمس في تناسق أجزاء الملموس ، وذلك هو النعومة ؛ ولذة السمع في اتساق الصوت وحركة توقيعه ، وذلك هو الغناء .

وأما القول فيه من جهة الدين ، فقل أن تجد ديناً من الأديان في أنحاء العالم إلا واستعان فيه على العبادات بالترنيل والترنيم والتغنيم ، لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس ، وانعاش الأرواح ، للتجرد والاتصال بالعالم الروحاني ، وما كان الدين الإسلامي ، وهو دين الأذان ، لينكر سماع الغناء ، ويحكم بكرهه ، وشأنه في فطرة الإنسان على ما بينه وبينك ، وأما ما ورد في الخبر الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع نسوة يتغنن في وليمة فليس ، فلم ينكر ذلك عليهن ، وقد استقبله عليه السلام نسوة من الأنصار ، عند مقدّمة من إحدى الغزوات ، بالدقوف والمزاهر ، وهن يتغنن على الإيقاع بقولهن :

طلع البدرُ علينا من ثلمات الوداع

وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضاً ، وهذا عمر بن الخطاب ، على المعروف من غلظته وشدة في الدين ، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه ، بل استماد ومرّح . روى عن أسلم مولاه قال : روي عن عمر رضي الله عنه وأنا وعاصم تغني فوقف وقال : أعيداً على ، فأعذنا عليه وقلنا : أينا حسن صنة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : مشكلاً كحماري العبادي قيل له : أي حمارك شر ؟ قال : هذا ثم هذا ، فقلت له : أنا الأول من الحارين ؟ قال : أنت الثاني منهما . وكان

عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصُحبت له كثير الجُلوس السباع الغناء عظيم الاحتفال به .

وروى أن معاوية قال لعمر بن العاص : امض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باله ، وسمي في هدم مَرُومته ، حتى نعيم عليه رُفَعُهُ ، يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فدخل إليه وعنده من الغنَّين « سائب خاثر » ، وهو ياتي الغناء على جَوَّار لعبد الله ، فأمر عبد الله بفتح الجوارى لدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه ، وتحنى عبد الله عن سريره معاوية : فرفع معاوية تحمراً فأجلسه إلى جانبه ، ثم قال لعبد الله : أعذ ما كنت فيه ، فأمر بالكرامى فأقيمت ، وأخرج الجوارى فتغنَّى سائب بقول قيس بن الخطيم :

ديارُ التي كادت ونحن على منى تحل بنا لولا تجاه الركائب
ومثلك قد أصبَّيتُ ليست بكِنَّة ولا جارٍ ولا حليَّة صاحب

ورَدَّه الجوارى عليه ، فحرك معاوية يديه ، وتحرك في مجلسه ، ثم مدَّ رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير ، فقال له عمرو : اتَّيْد يا أمير المؤمنين ، فإن الذي جئت لتلعنه أحسنُ منك حالاً وأقلُّ حركة . فقال معاوية : اسكت لا أبالك ، فإن كل كريم طروب ودخل المغنون منزل مَكِينة بنت الحسين سبط رسول الله ، فأذنت للناس إذناً عاماً ، ففصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ، ثم إنهم سألوا « حينئذ » أن يغميهم صوته الذي أوله : هلا بكيت على الشيايب الناهب . فقال لهم ابدعوا أنتم ، فقالوا : ما كنا انتقمك ولا اغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت . فغناهم ياباً ، وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح وكثروا لسمعه ، فسطروا على مَنْ تحته ، فسلبوا جميعاً وأخرجوا أحماء ، ومات حنين تحت الهدم ، فقالت مكينة عليها السلام : لقد كدَّر علينا حنين سرورنا .

وذكر الدَّلال المغمي عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم فقال إنه كان يحسن :

لَمَنْ رُبْعٌ بَذَاتُ الْجَيْشِ أَمْسَى دَارِسًا خَلَقًا

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلةَ يصلي ، فلما كبرَ سلم ، ثم التفتَ إلى أصحابه فقال : اللهم إنه كان يحسنُ خفيّةً فأما تقيّمهُ فلا — اللهُ أكبر .

ولقي « ابنُ أبحر » عطاءَ بنَ أبي رباح ، وهو يطوفُ بالبيتِ الحرام ، فقال : اسمعْ صوتاً للغريص ، فقال له « عطاء » : يا خبيثُ أفي هذا الموضع ؟ فقال ابنُ أبحر : وربّ هذه البنيةَ لتسمعه خفيةً أو لأشيدنَ به ، فوقف له فتغنى :

عُوحي علينا ربةَ المودجِ إنك إن لا تفعلِي تخرجي
أني أتيتُ لي يمانية إحدى بني الحارثِ من مَذْحِجِ
نلتُ حَوْلًا كاملاً كَلَّةً لا نلتقي إلا على مَنَهِجِ
في الحج إن حجّتْ ؛ وماذا مِنّي وأهلُهُ إن هي لم تَحْجُجِ ؟
فقال له « عطاء » : الكثيرُ الطيبُ يا خبيثُ .

وَوَلِيَ قضاء مكة الأوقصُ الحزومي ، فما رأى الناسُ مثله في عفافِهِ وتُبْلَاهِ ، فإنه لناثِمُ ليلةٍ في جناح له إذ مرَّ به سكرانٌ يتغنى بصوتٍ للغريص ، فأشرفَ عليه ، فقال : يا هذا شربتَ حراماً ، وأيقظتَ نياماً ، وغنيتَ خطأً ، خذهُ عني ، فأصاحبه له وانصرف . وكان لأبي حنيفةَ رحمه الله جارٌ بالكوفة يغنى ، فكان إذا انصرف وقد سكر يغنى في غرفته ، فيسمع أبو حنيفةُ غناءهُ فيسجبه ، وكان كثيراً ما يغنى :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليومَ كريهته وسِدَادِ ثغري

ولقيه العسّسُ ليلةً فأخذه وحُبِسَ ، فمَقَّدَ أبو حنيفةَ صوتهَ تلكَ الليلة ، فسأل عنه من غلبَ فأخبر ، فدعا بسواديه وطوي ياتيه فلبسهما ، وركب إلى عيسى بن موسى ، فقال له : إن لي جاراً أخذه عسكُ الباردة فحُبِسَ ، وما علمتُ منه إلا خيراً ؛ فقال عيسى : سلموا إلى أبي حنيفة كلَّ من أخذه العسّسُ الباردة ، فأطلقوا جميعاً .

فلما خرج التقى دعا به أبو حنيفة وقال له سرّاً : ألسنتُ كنتُ أغنى كل ليلة : أضاعوني وأي فتى أضاعوا ؟ فهل أضعنالك ؟ قال : لا والله ولكن أحسنتُ وتكرمتُ

أحسن الله جزاءك ، قال : فمذُ إلى ما كُنت تفتيه ، فاني آتسُ به ، ولم أرَ به بأساً ، قال : أفعلُ إن شاء الله .

هذا جملة ما يُذكر في طرب القناء طوّلتُ فيه وأسهمت ، ليتبين لك منه القول الراجح والوجه الصالح .

(الباشا) —

نَعَالَى اللهُ مَا شَاءَ وَزَادَ اللهُ إِيْمَانِي

ما هذا الذي أراد من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق ؟ وما هذا الإبداع والتفنن في أطراف المعقول والمنقول ؟ وما هذا التضلع في علوم الأوّلين والآخرين ؟ وما عهدت قبل اليوم في العلماء من اجتماع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر ، وصحة القياس ، وسعة الاطلاع في تواريح الأمم على اختلاف أسننها وأجناسها ، يتنقن في تقرير البرهان وشواهد البيان تنقلُ النحل على جنَى الأزهار ، فيخرج بنا من التاريخ اليوناني إلى الروماني إلى الأوربي إلى الإسلامي فَعَجَباً لَهُ ! أَعْجَمِيّ وعربيّ ؟ وشرقيّ وغربيّ ؟ وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ، ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم ، فنفذ عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهية ، ثم خالفهم إلى التوسع في العلوم الدينية والمباحث العقلية ؟

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع في بني الإنسان ، ونور سامع يستضيء به جميع الأنام ، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ، ولا أهل ملة دون ملة ، ولا يقف الإنسان منه عند حد ، وَمَنْ طَلَبَ العلم وارتاحت له نفسه ، لم يمنعه تخلف اللغات ، ونفوق الأجناس عن اجتهاد ثمره من أي لسان كان ، وفي أية أمة كانت ، وفي أي عصر من العصور ، وما في الأديان دين يبعث أهله ، ويحضر بنييه على طلب العلم والتفاني الحكمة بأي وجه من الوجوه ، مثل الدين الإسلامي ، ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل ، فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته ، واعتقدوا أنهم على الهدى وَمَنْ سَوَّاهُمْ في ضلال .

(الباشا) — قل عاشت في كسل علماء الدين الاسلامي ، وسوء تراخيهم ، واشتغالهم عن العلم لا بالعلم ، ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى ، وعيل صبرى ، ولا تزال كلما تذكرته جاش في الهم والغم ، وتملكنى الأسف والحزن ، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسعتك في الاطلاع ، وتحركك في طلب العلم ، وتسلقتك بأسباب العلوم الأوروبية ، ولكنى مع ذلك لا أتعنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه ، خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع ، وتستدرجهم إلى الخلط والخط ، وقل في الناس من يحكم نفسه للتوسط في الأمور ، والاعتدال في المطالب ، والوقوف عند الحد . ولست أدرى إلى اليوم ، يعلم الله ، أى العالمين أضل سبيلاً وأسوأ مصيراً : العالم الذى يتخطى في ظلمات الخرافات ، ويضرب في تيدر الترهات ، ويغوص في لجج الأباطيل بلباس الدين ؛ أم العالم الذى يؤغل في علوم الأوربيين ، ويأتم بسنة المخالفين المدين ، ويفتر بموياه المؤمنين ، فيضله الله على علم .

(الصدى) — ليس هذا وقت الجدال في تلك المباحث الدقيقة ، والتفتوا بنا إلى صناع الغناء قليلاً ، فقد احتشد له المغنون .

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبت ، وهل لك أن توفق لى بين حالة المغنيين التى أراهم عليها الآن في احتشادهم على منصة الغناء ، وبين ما سمعته آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال ، فانظر إليهم تجد أحدهم يمرح ويقهقه ، والآخريثاءب ويتمطى ، وهذا يهتق ويمخط شمالاً ، وذاك يصيح بأعلى صوته : القهوه القهوه ، وتأمل في هذا الواقع منهم فوق المنصة على رجل واحد وبمكة الرجل الأخرى يخام منها نمله في وجوه الحاضرين ، وأين ما ينبغي أن يكون عليه الملقى من سكون النفس ، واجتماع الخاطر ، والشرائح الصدر ، وصفاء الروح ، لحسن تأدية الغناء ، واستهواء النفوس إليه ؟

(الصدى) — لا نؤاخذهم بما هم فيه ، فإنهم نشأوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات ، وأن في ممارستها حطة ونقصاً ، فصغرت لذلك نفوس الفنانين ، وهانت عليهم صناعتهم ، ولم يروا فيها سوى أداة للكسب والارتزاق على مثال

بقية الصناعات ، فهم والحدادون أو هم والبنائون سواء بسواء ، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها ، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه ، وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي ، وكما يحبى ، لا كما يرضى ، ولا يغيب عن فطنتك أنه لا بدّ المغنى من أن يشق في نفسه بتأثير غنائه في نفوس السامعين ، حتى تشور فيه نشوة الطرب ، ويتبادل معهم لطف الانفعال ، فتتصل القلوب ، وتتجاذب الأرواح ، وانضم به نفسه في مراقى الفن ، وتسمو به في صناعته إلى مدارج السكال ، وإلا كان المغنى إذا غنى في غفلة السامع واشتغال عنه كمن يقرأ للناظم كتاباً أو يسرج للأعشى مرآجاً ، فيحلّ به من التواني والفقر ، ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب بروق الصنعة ، ويحوّ بهجة الفن ، وإنك لتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معى نظارة إلى هيئة السامعين في هذا المكان ، فمن يملك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشغولين بمراقبة كل داخل وخارج عمام يحفظون بإشارة تحية أو إيماء تعطف ، فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام ، لتراف إلى الكبراء والحكام ، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقذارهم ، وعن شماتك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون أبداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتلوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء في الوقائع المختلفة والمسائل المشبهة ، لينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح ما لديهم من المشا كل والدعاوى ، ومن قد أملك طائفة من الأمراء والحكام لا هم لهم إلا أن يجتلبوا توقيع الحاضرين واحترامهم بالتأنيق في الجلوس والتكلف في الشرائع والانتفاع في الثياب والقتل في الشوارب ، أجسامهم حاضرة ، وقلوبهم غائبة ، وأبصارهم شاخصة ، وألبابهم ذاهلة على هيئة التماثيل والأصنام ، فاسألهم إن كانوا ينطقون ، ولئن نطقوا بكلام فإني ما يدور على أن اليوم كان شديد الحر ، وأن أوّان الرحيل عن مصر قد حلّ ؛ ومن خلفك ثلة من الأحداث ، لم تهذبهم الأحداث ، وشبان لم يرتبهم الزمان ، مرمى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد ، وأن تفرغ أجسادهم منها في قالب من حديد ،

فهم لا يتحركون حركة إلا بألف حساب ، خشية أن ينفرد نظام الثياب ، فإن قعدوا فكأن قاعدين للمصور في حفظ الأشكال والأوضاع ، وإن هم رقفوا فكأن مصلوبين على الأجداع ، ولئن تجاوز حديث الملابس والأزياء ، اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء ، ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان ، ما تنقبض منه النفوس وتتشعر الأبدان ، ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماع الغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم ، فكيف يتيسر للمعتمدين في هذا المقام أن يتقنوا في عملهم ، أو يتفقدوا في صناعتهم ، أو يحافظوا على أدب المجلس ، ويراغوا حرمة الفن ؟

قال عيسى بن هشام : وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا من السحاب ، فانقض على الواقفين عند الباب ، كأنه بارقة شهاب ، أو نازلة عذاب ، يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين ، في صدور القاعدين والقائمين ، لا يشك من رآه أنه أسير حل عنه الوثاق ، أو غبد من العبيد يطالب الإتيان .

فالتفت الباشا يسأل الصديق : أجدار هوى في البيت أم حريق !

(الصديق) — لا هذا ولا ذلك ، وإنما جاء الخبر لصاحب البيت بقدم جماعة من رجال الأفرنج ونسائهم .

(الباشا) — أترام يريدون إقامة العتاب إفرنجية مع الأغاني العربية ؟

(الصديق) — ولا هذا أيضاً ، بل هم قوم من السائحين الأوربيين في البلاد الشرقية يتشوفون في مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق ، فإذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا إليها بنسائهم وأولادهم لتسلياة خاطر بدرس العادات والأخلاق .

(الباشا) — قد تبين لي آنفاً أن صاحب العرس من أهل الصميد ، فأية صلة بينه وبين سباح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم في عرسه ؟ أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغیر دعوة ولا استئذان كالظفيليين .

(الصديق) — هم من المدعويين لا من المتطفلين ، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم ، أو أن يعرف أشخاصهم ، ويفقه أسانهم ، ولكن حضورهم في حفلة

العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ، يشرح به صدره ، ويزهو به عنده قدره ، ويزأخراً له يعلو به ذكره ، ومجداً للبيت يرتفع به حماده . وهو في دعوتهم بالخيار إما أن يرسل إلى بعض تراجمه المنداق فيعطيههم عدداً من تذكار الدعوة بغير أسماء معينة ليرزعهما على من يكونون في خدمتهم من السياح ، فينبغيها التراجمه إليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنهم تذكار للملاهي العامة ، ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأنمان معينة ، وإما أن يترقى صاحب العرس ، فيخطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة العلانية ، ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح ، فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة إلى العرس ، فإذا شرفه صاحب العرس بحضورهم ، هرع إلى حسن استقبالهم ، وبالغ في التلطف والترحيب بهم . وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء ، ونسى كل من في العرس سواهم ، وتفرغ طول ليلة خدمتهم ، كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر إليه كيف بقيه عجباً ، ويشمخ كبراً . وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن إلى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العظلاء والأمراء في صدر المكان .

(الباشا) — وما هذا الذي أراد في أيدي النساء يحملنه معهن كأنه الأسفاط^(١) في الخلى لهدية العروس ، فهل بلغ بهن الكرم إلى تكليف أنفسهن تقديم الهدايا لعرس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل ؟

(الصدوق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بهن مفاظر الحرم وصور النساء في زينتهن وتبرجهن وما تكون عليه هيئة الزفاف ، ليتهادين بها إذا رجعن إلى ديارهن ، وربما أسخت منها ألوف النسخ ، لتباع في الأسواق الأوربية ، وتلشر هناك للاستهزاء والسخرية .

قال عيسى بن هشام : ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات إلى الحرم ، كالصاعدات إلى الحرم ، تقدم إلى صدر المكان ، ونظر في الوجوه بأمعان ، ثم دنا من

(١) الأسفاط : جمع سنفط ، وهو الزعفران .

طائفة الكبراء والأمراء ، وقصد الأمير المقدم فيهم بلا مرء ، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام ، ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام ، فقام الأمير يمشى أمام الصفوف في خيلائه ، مشية القائد يوم بلائه ، وفتتح له الباب ففتتح المائدة ، ولا فتتح سميد القادسية ، والمتصم العمورية ، ومحمد للقسطنطينية ، نعم ولا فتتح جدّه الأعلى للأقطار الحجازية ، ودخلت في أثره صفوف الجوع ، وهم في سكون وخشوع ، دخول التقاة للصلاة ، والعفاة للصلات ، ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم القوارس البواسل ، على الحصون والمعقل ؛ لا بل هجوم الأسود الصارية ، على الأشلاء الدامية ، والذئاب الخاوية ، على الشياه الراحية ، والنسور ، على القهور ، والذباب ، على الشراب ، واشتدّ الزحام ، وزلت الأقدام ، وضلت للذاهب ، واصططكت المناكب ، وشخصت الأحداق ، وامتدّت الأعناق ، وتهذلت الشفاه ، وتحملت الأنفواء ، وتحركت الأشداق ، وتفاعرت الأطباق ، وتصاروت الأيدي بالمدى ، كالطبي في الوغى ، والتفت الساق بالساق ، واشتدّ الهول وضاق الخناق ، ثم انجلت المصمة عن شهداء التخم ، وأمراء البشم ، وقتلى الطعام ، وصرعى اللدام :

بأجسام يجر^(١) القتل فيها وما أقرأتها إلا الطعام

ولعبت الكؤوس بالرهوس ، والشمول^(٢) بالعقول ، والراح بالأرواح ، وذهبت العقار^(٣) بالوقار ، والبطنة بالبطنة ، فاختلط الحابل بالغابل ، والعالي بالسافل ، والرفع بالوضع ، والأمير بالحقير ، هذا يمزح ويقهقه ، وذاك يتمتم ويتهتم ، والآخر يبقى طعاماً ، وسواه يبقى كلاماً ، ولم نسمع بينهم من قول يفهم ويسقل ، أو حديث يؤثر وينقل إلا ما صمغناه يدور بين شاب متكلف متصنع ، وكهل مجرب متضلع :

(الكهل) — أليس من أسوأ الأسواء ، وشر البلاء ، ما نراه من حال هذا الصعيدي صاحب العرس ، كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده ، وانسأخ عن مألوف العادة في قومه ودياره ، وطفر طفرة واحدة إلى العمل بعادات القربيين ، والتقليد لمدع الأفرنج ، فجبرى

(١) يجر : يمتد

(٢) الشمول : الجر

(٣) العقار : الجر

في الاحتفال بالعرس على نخلهم وأسلوبهم مع جهله بها ، وعدم ملاءمتها لطبعه ، وكيف لا يُرتى لحال هذا المسكين ، وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز القريب عن ذرقه ، فهو في حيرة وذهول ، لا يدري ما يصنع ، ولا يعلم ما يفعل ، في وسط هذه السوق القائمة ولزحام الهائل ، وانظر إلى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة ، وارثكَبَ ما يخالف العادة ، ثم اشهد معي بأنه أساء إلى نفسه ووجَّى على أهله .

(الشاب) — ما أراه إلا أنه أحسن صنعاً ، وأجاد عملاً ، وأخذ بالسن الأرشد في التحلي بشعار المدنية ، والتعلق بالحضارة ، وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن في السير على النهج الغربي ، لهواً كان ذلك أوجداً ، وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة ، وورقة الأفكار القديمة ، فترفع الأمة ، وتنتفع البلاد .

(المكهل) — نفع يُرجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور ، واثنتا عشر عاماً قتيلاً على عهد الأرياف وأعيانها ، وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوربية ، ثم يهجرهم مساكنهم ومساكن آبائهم ، ويتركون مزارعهم ومراقهم ومساكنهم ليسكنوا معهم عتمة البلاد بعد عودتهم ، ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ، ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق ، لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تسمى خراباً ، وأن تصبح المزارع بأيدي الأجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الأقطان وزراعة الأراضي ، كما يقلدونهم في باطل المدنية وزخرف معيشتها .

(الشاب) — أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتعدين بين الأحواض والمستنقعات في قرية أبيه ، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه ، فيبدل الخيام بالمقاصير ، والمشاعل بالكهرباء ، والسماط « بالهوفيه » ، والقصاع بالصحاف ، والجرار بالأباريق ، والدفين « بالدينند » ، والعصيد « بالمانيونيز » ، والقول بالهايون ، والجلبة بعش الغراب ، والمش « بالموستاردا » ، والرطب بالمربي ، والدوم « بالمانيجو » ، والمجنز

« بالكريز » والزهرة « بالشمبانيا » ، والحليب « بالكاب » ، وعرق البلح « بالكيناك »
والزمار بالموسيقا ، والأذكار بالأوتار ، والأرغول « بالبيانو » والرباب « بالأوركستر »
والسحجة « بالبلو » ، ويدت أم شنب « بمس أوستن » ولعب الهواة بموكب الزفاف ،
ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام ، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة ، وكتبة
لمراكز والسياف ، بدل أمراء البورصة والمصارف ، ويضع على رؤوسهم معطف النخيل
والعراجلين ، بدل أكاليل الأزهار والرياحين .

(الكهل) — يكفيلك فقد أسهيت في الشرح والوصف . وأنا أقول لك : نعم يعجزني
أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ، ما دام من عاقبته عمران البيوت ، وحفظ الأموال
وبقاء الأحساب ، وإطعام النساكين ، وبر الأقارب ، وإسداده الخير للأصحاب والجيران ،
وإدخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلبث أذواقها ، بهذا ينتفع أهل البلاد ، ويرضى
ناسٌ بعضهم عن بعض ، ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما أراه ، ما دام من ورثته
عواقب الخراب ، وسخط الناس ، وعقوق الأهل ، ولصوق العار ، ووقوع الفضيحة ،
وسوء المصير ، ومن الذي يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة ، وهو يرى هذا الرجل
المريق النسب في أهل الصعيد ، أهل الشهامة والحمية وذوى الغيرة والأثقة ، ومن حوله
لخصيان على ما شاهدته الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صفاديق الخمر لشرب النساء في الحرم
وهو يعرف حكاية الأعرابي الذي سقوه الخمر في أحد الأعراس ، ولم يكن ذاقها من قبل ،
فما تارت سورتها قال لمن حوله من أهل البيت : « إن كان نساؤكم يشربنها فقد زنين
رب الكعبة » ، ولست أدري على كل حال ما الفرض الدافع لصاحب هذا العرس إلى
ختم كل هذه الفضائح والمعائب ، فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بإتفاق تلك الأموال
لطائلة في إقامة الاحتفال ، فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ما سمعته ونراه ، وليس فيهم
إلا كل منقذ لعمله ، معترض على فعله ، ويرميه بعضهم بالتبذير ، ويرميه بعضهم بالتقصير ؛
وإن كان الغرض من هذا التوسع في الاتفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والفنى بين الناس
وانتشار ذكره بالكرم والجود ، فلهذه الشهرة وجوه أخرى تعيده وتقيد الناس ، ولا ابتداء

الحامد سبل شتى ترضى النفوس ونسر القلوب ، ولو كان اقتصر في إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها ، وبذل النصف الآخر في باب من أبواب البر والإحسان ، مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجى وإقامة المستشفيات ، وإعانة ذوى الصناعات ، لخلد ذكره بين قوم بالعمل الصالح ، ولأقاموا لمجده صروحاً من طيب الأحداث وجبل الثناء .

قال عيسى بن هشام : وما شعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماع من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ، ويعودونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان . فلم يسمع لهم أحد ، ولم يلتفت إلى صياحهم ، فأخذوا في التصفيق بالأكف ، تنفيراً لهم كتفكير الدجاج ، فرينقلوا ولم يتحركوا ، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج ، فأطلقوا الأضواء ، وتركهم يتخبطون في الظلمات ، ويتساندون على الحدران يطالبون الأبواب ، فيستقنم إلى الخروج ، والتفتينا في خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان في هذه الحال ، ويتخاصمان في شدة السكر ، فلفم أحدهما صاحبه فسقط على الأرض يتخبط في قيئه . وينشد هذه الأبيان في هذره وهزئه :

شربت الخمر حتى قال صحبي : ألسن عن السقاء بمُسْتَفِيْق ؟
وحتى ما أوتستد في مبيت أنامُ به سوى الترابِ السَّحِيْقِ
وحتى أغلق « البوفيه » دوني وأنسيتُ الهوانَ من الصديقِ
وسمعنا الآخر يانشد وهو ينتفخ تيهاً وهجياً ، ويصغر خذّه صلفاً وكبراً :

شربت الخمر حتى خلتُ أنى أبو قابوس أو عبدُ المَدَانِ

وسمعنا في الخارج عزف الموسيقىما تقدم العروس لرفافه عند دخوله الحرم ، فسكت الغنّون ، وضجّ المكان ، واضطرب الحاضرون ، ووقف الجالسون ، وصعد بعضهم فوق الكراسى يتطاولون لمشاهدة العروس وهوى زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل ، حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً ، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصة الغنّين صمود الخطيب على المنبر ، فشخصت نحوه الأبصار ، ومالت إليه الأسماع ، وإذا هو يخطب

بخطبة هذه نسختها : « أيها الحاضرون والفاثيون ، هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور ، على منابر الجهور ، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور ، من سماء القلوب وأرض الصدور ، وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون ، فأنجحت عن بصائرنا غمام الأحزان ووبل الشجون ، ولو أنى لست من قرعان هذا الميدان ، الراكبين لحيازة قصب الرهان ، ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف ، بحروف الرماح وزمراح الحروف ، ولا من المتطين في شروح البلاغة متون الضوامر ، ولا من السابحين في بحور النظم والنثر على كل كامل وواقر ، ولا من السابحين في حلة سبحان ، ولا من المتدربين في حصون المعاني والبيان ، وقد حمل بين الميز والنزوان ، إلا أن ما أعره في هذا العروس من العلم والإقدام ، وما له في مستعمرات التريفة من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام ، وما أعتقه فيه من محبة الأوطان ومصادقة الإخوان ، كما أن ما أعده وأتحقه في العروس ، التي ترف إليه هذه الليلة ، من علمها بتدبير النزل وقروض العميلة ، وما هو مشهور عنها لدى كل قاص ودان ، مما يوجب حسن القبول والامتنان ، وما شهد لها به معلمو الكتائب ومدرسو المدارس ، بأنها أنس الحافل وبهجة المجالس ، وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح ، وأتوسمه في جباههم من الفرح والانشراح ، كل ذلك هو الذي جرأني على الوقوف في هذا الموقف الحرج ، وسط بحر هذا العرس المتموج ، وإني أنوجه إليكم بوجهي لتضربوا عن تقصيري صفحا ، وأتقدم لكم بنفسى لتطهروا عن هفواتها كشفا ، وأطلب منكم أن تشرّبوا معنى نخب الكؤوس ، في نخب العروس ، وتقولوا معنى فليجي هذا الشاب في هذا سرور ، ورخاء وجهور ، ممتعا بنشأة الرقاء والبنين ، وناشئة الأولاد الناجحين ، ما ناه القمري في رياض البساتين ، وصاح الأخدرى ^(١) بين الأعشاب ، آمين آمين . »

ثم نزل الخطيب ، فقابلته الأكف بالتصفيق ، والأغواء بالتهليل ، والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام ، فأنشد هذه القصيدة النادرة والمدحة الباهرة :

(١) الأخدرى : خاز الوحش .

بأوقات الهدوء الصافيات تبحل الأوس من كل الجهات
 لقد قام البشير بها ينادي على أهل العروسين الهداة
 وفي تلك الصدور الفرح يجرى كما تجري خيول الصافيات
 فبشرى أيها الشهم المندى بخير الغايات الآسات
 ظفرت بدرية في عقد ماسٍ من التلذذات الرافيات
 وقد زفوا بهذا الأفق بدرأً إلى شمس الهدى والمكرمات
 تغذت بالمعارف والمصالي فحازت زينة التعلقات
 يرجى أن يكون كذا بنوها لدى أيماننا المستقبيلات
 بهم تزهو الشيبية في المرامي وتغزو للحمى أقوى الحاة
 بهم ترقى المواطن مرتقاها وتصبح قدوة للتربيات
 كجيش في البلاد عزمى وجند في الحروب مبرزات
 وتمشى التيه في أوج المراقى وترفل منه في حلل الثبات
 فتصبح أنت خير أب كريم وتصبح تلك خير الأمهات
 ودمتم بعد ذاك بألف خير ونعمى بالبنين وبالبنات
 ولولا الاختصار وضيق وقت لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب ، وعاد الغنون إلى اللحن والتطريب ،
 فأخذت أجمل النظر وأقلب الطرف ، من ركن إلى ركن ، ومن صف إلى صف ، فلم أجد
 في الحاضرين بلا استثناء ، من هو ملتفت إلى سماع الغناء ، رأيتم بوجهون النظر إلى السماء ،
 ويكتمون من الإشارة والإيماء ، كمن يتضرع بالدعاء ، لكشف الحنة والبلاء ، فرفعت
 مثلهم نحو السماء بصري ، فذهيت من حيث أدري ولا أدري ، إذ رأيت نوافذ الدار ،
 متهوكة الأستار ، وفي كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب ، كالدمية في الحراب ، أو كالصورة
 تقالق في إطارها كالشهاب ، أو كالبدرد بدا مسفراً من خلل السحاب ، تنفذ منها مثل خيوط

الغزالة^(١) المغازلة ، وتجرد من اللحظات مثل سيوف الحكمة للمغازلة ، فتصيد طيور القلوب
الحوائم ، وتفتلك بمهج النفوس الروائم ، ثم تراها تومئ بكأش الصهباء ، إلى شقتها الحمراء ،
وتلصق واسطة العقد ، بزهرة من الورد ، فيشتبه على الرائي وجه الأمر ، باختلاف اليواقيت
كالجمر ، ياقوتة الحجر ، ياقوتة النهر ، وياقوتة الزهر ، بياقوتة النجر ، ثم لا تقفأ ترسل الإشارة
تلو الإشارة ، تارة بالمروحة وأخرى « بالسجارة » ، مع ابتسامات نوضح عن مكنون الصدور ،
وتفصح إفصاح للماني في السطور ، والرجال من تحنن بحاويهن على أعين النظار ، طوراً
بإشارات الأيدي ، وطوراً بلغة الأزهار ، وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه ، وتقلب
على أهل الفوافذ بهواه ، وأضرم فيهم نار المشق وجواه ، وخلع قلوبهم بدعواه ، وما بالفوافذ
سوى أزواجهم وبناتهم ، أو أخواتهم وبنات أخواتهم ، والمغنى يستقبل وجوههن في هذه
الأنفاس ، بوجه ليس فيه أدنى حياء ، فيقنن من الأصوات والألحان ، ما يثير من الفرام
ويهيج من الأشجان ، والخصمان يصعدون إلى الحرم بأوراق ، وينزلون منه بأوراق ، يتخيرون
فيها لأدوار السائرة على أسنة العشاق ، في وصف حرارة الأشواق ، ومرارة الهمد والفراق ،
وما زالت الحال تنزايد قحة ووقاحة ، وتتضاعف هتكاً ونضاجة ، حتى قام في وسط المكان
جماعة من الأصحاب ، يتقاذفون بالفاظ القذف والسباب ، ثم إنهم انتقلوا من التلاعن والتشائم
إلى التضارب والتلاكم ، فقام الحاضرون على الأقدام ، لمشاهدة ميدان النزال والخصام ، ثم
توسط رجال الشرطة بينهم لفض الخصامة ، وسوقهم إلى الحاكمة ، بعد أن تمزقت الثياب
تفرق الأوراق ، وتخضبت الوجوه بالدم المهرق ، فصارت الأفراح أتراحاً ، وانقلب الغناء
نواحاً ، وقلت لصاحبي : هلم بنا إلى الفرار ، من مواقف التهمة والعار ، وخرجت به أسوقه
أمامي ، وأقول له في بعض كلامي : لقد حق لك بعد الذي رأينا ونظرنا ، وبلونا وخبرنا ،
أن تلتهب بالغضب والحنق التهاياً ، أو يذهلك الدهش والعجب فلا تمي جواباً ، وهل بقي
بعد ذلك فرق بين سرور الدنيا وحزنها ، أو فضل لظفر الأرض على بطنها ؟ فأجابني بلسان
الحكيم المدرب ، والحليم المهذب ، وهو يتنسم استهزاء ، ويهز كتفيه ازدراء : لم يبق في
بفضل الحكمة فضل للسخط والغضب ، وعجبي اليوم مما أرى يكون من العجب .

العمدة في الحديقة

قال عيسى بن هشام : وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع ، لدرس الأخلاق وسبب الطباع ، وتبدلت الوحشة عنده بالانئناس ، في مخالطة الناس ، فصار يلج على ويأبج في الطلب ، أن أذهب به في هذا السبيل كل مذهب ، وأنا أداوره وأحاوله ، وأماظه وأطاوله ، وهو لا ينفك يستجزي ويستقصي ، وإذا استعفيته لا يعفي . فقلت له : لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات ، إلا ما اشتملت عليه الأزبكية من الخجلات المنديات ^(١) ، وما تضمنته من صنوف الرجس والنكر ، وفنون الفسق والسكر ، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنة والنهمة ، وأن أحلك بحال الريبة والشبهة ، وأربأ بسلك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر ، وتدخل معهم في تلك الغمر ، وتقتصر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون ، وشروى ما يعملون ^(٢) ، فلا تأمن حينئذ نقد الناقدين ، وطعن الطاعنين ، وقاسمتهم إني لك لمن الناصحين . فقال : ألى تقول ذلك ، وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية ، وضروب الفلسفة السامية ، ما أزدري معه عدل العاذلين ، وأحقر به لوم الجاهلين ، ولن يضير النفس الشريفة الطاهرة ، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة ، وقل أن يمدى المريض الطبيب ، وتذهب رائحة الدفر ^(٣) برائحة الطيب ، والامعان في رؤية النقيصة والذليلة ، يزيد النفس الفاضلة تسكاً بالفضيلة ، ولا يعرف قدر الرشد والهداية ، إلا من نظر في أعقاب الضلالة والغواية ، وبالظلمة يعرف فضل الضياء ، وبضدها تتبين الأشياء ، ذلك من فضل ما علفتني مما علمت رشداً ، ولقد كان من أدب الحكماء في أيام دولتنا ، وزمن صولاتنا ، أن يغيروا من هيئاتهم ، ويستقروا من سماتهم ، ويبدلوا من أزيائهم المعروفة بأزياء غير مألوفة ، ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم ، ويقفوا على جليلة أمرهم وحقيقة أحوالهم ، فلم يكن ذلك مما يضر بسمعتهم ، أو يحط من رتبهم عند

(١) المنديات : الخجرات (٢) شروى : مثل (٣) الدفر : النقي

ظهور أمرهم، ووضوح سرهم، فلا عليك إذا أن تسلك في ما شئت من المسالك، ولا نخش على شيئاً من تلك المعاطب والمهالك .

قال عيسى بن هشام : ولما لم يبق لي بد من اعتزال حكمه ، ونفي عزمه ؛ قصدت به من الأربكية روضتها الغناء ، وحديقتها الفيحاء ؛ فلما وصلنا إلى بابها ، ووقفنا عند «دولابها» ، وضمت فية أجرة العبور ، كما توضع النذور في صندوق النذور ، ودرت فيه دورتي ، ودار الباشا دورته ؛ فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته : هل كتبت على الداخلين في هذه الجنة الزاهية ، أن يدور الإنسان ذكورة الثور في الساقية ؟ فقلت له : نعم شاع التخوين بين الناس في جميع الأشياء ، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء ، لتكون رقيباً عتيداً ، لا يستطيعون معها اختلاصاً ولا تبديداً ، فهي ترقم من الداخل عند كل دورة ، ما ينقده الداخل فيها من الأجرة ، فلا يضيع منه مثقال ذرة ؛ ولما تجاوزنا الباب أعجب الباشا حسن النظر وازدهاد ، وراقه بهاء المكان واستهواه ، وتلكه الالتهاج وتولاه ؛ فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ! لمن هذه الجنة من كهراء البلد ؟ قلت : هي ملك كل واحد وليست بملك أحد ، أنشأتها الحكومة من « للمنافع العامة » لزهة الخاصة والعامة : ثم سرنا نطوف في أنحاء الحديقة ، بين أشجارها الوريقة ، وأغصانها الرشيقة ، وأزهارها الأنيقة ، والباشا يهتز طرباً ، ويميل عجباً ، لحسن هذا المناظر العجيب ، والنبت الخصب ؛ ثم وقف بنا وقفة بين رزد الظلال وخيرير الماء ، ورفع ببصره يقدس باسط الأرض ورافع السماء ؛ ثم رأيته ينحني للركوع انحناء القوس ، بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس :

أرض إذا جرّدت في حسنها فكرك دلتك على الصانع

وصمته يثور في الركوع والسجود ، قول صانع الوجود : « والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال . » وقوله أيضاً عز من قائل : « تُسَبِّحُ له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

ثم انشئت به في طلب الراحة ، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة ، ودارت
بيننا هذه المحادثة ، بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) — كيف لا يكون هذا السكان بالناس غاصبا ، وبالمرتاضين مزدحما ، يشاهدون
جماله ، ويتفياؤن ظلاله ، ما دامت الحكومة قد أباحتها لكل رافع وغادٍ كما تزعمه ؟ ومالي
لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب في أزيائهم ، بأبنائهم ونسائهم ، فهل وقعت الحكومة
على الغربيين ، وحرمتهم على المصريين ، فإنني لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا إلى
هذه الساعة ؟

(عيسى بن هشام) — لم تؤثر به الحكومة قوماً دون قوم ، ولكن المصريين كأنهم
ألفوا التهاون بالذات الروحانية وتعافوا عنها ، وأخصها معرفة ما حسن في الأشياء ، وتميزوا
الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاتقان في صنعة الوجود ، ورياضة الفكر والنظر في
مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تسبح بحمد خالقها ، أي تدل عليه بصنعة
فيها ، وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وفيد فكره في الوجود على الماديات ، فلا يكاد
ينظر في دهره نظرة المشاهدة والإمعان في خلق السموات وما يتألق فيها من الشمس
والأقمار والنجوم والكواكب ، ولا في خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات وبندبها
من الحيوان ويبحر من البحار ويرسو من الجبال ، وهي بجمال صنعتها وكمال وضمها .

أصبح بمن يمز : ألا تراه ففهم حكمة الخالق العجيب ؟

(الباشا) — جل الخالق الصانع ، ولكن لأي سبب أيف المصريين غفلتهم عن النعم
بهذه النعمة ، نعم الشهادة ولذة المطالعة ، وصار الأجانب يتعاقبون بها دونهم ويمتازون
بها عنهم ؟

(عيسى بن هشام) — لا سبب فيما أعلم إلا التماذي في التهاون ، والتراخي عن إيظاف
هذا الشعور الفرزي الكامن في النفس ، وتنميته بالرياضة والتفكير ، ومعاودة الإيمان
والتدقيق ، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة ، فاجتهدوا في تنميته وترقيته ، حتى صار
لديهم ملكة من الملكات ، وفناً جميلاً من أرقى الفنون ، فدرّبوا عليه ، ومرتّبوا فيه ،

وسرى في دماهم يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج ، وأراد أن
 يتحف أهله يوماً بادر إلى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع وتسابق بها إليهم كأنما
 عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم ، ولقد برعوا في الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه ،
 ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المراثيات الطبيعية ، بل تجاوزوه إلى المراثيات الصناعية ، فقيمهم
 من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ، ورسم من
 الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور ، أو دائرة من الشفق ، أو راع من الرعاة ، أو حيوان
 من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته في الأصل الطبيعي ، وبين قيمته في الشكل الصناعي ،
 وقد أن تدخل دار ميسور منهم إلا وتجد أنحاء الجدران مزدانة بالواح التصوير والتهاويل
 بما يحاكي المناظر الطبيعية ، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن النظر في داخلها إن
 حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة في خارجها ، ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة
 آثار القديمة ، والتنافس في اقتنائها ، والغلو في التحفظ عليها ، والضن بها ، فكم رأينا من
 قطعة من الحجر أو غيره تزدربها الأعين بيننا ، ولا يعاب بها المصري ، فيطرحها في كناسة
 منزله ، فلا تزال كذلك ، حتى يلتقطها الأجنبي في يحته وتنقيبه ، فتصير عنده في قيمة فريدة
 التاج أو بتيمة العقد ، وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار ، ويتحملون أهوال
 البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن وما
 عفا من الرسوم في هذه الديار ، وربما رأينا المصري ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل
 ويشيخ ويعمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق
 البريد ، وربما لم يلتفت إلى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت .

(الباشا) — تالله إن ذا لمن العجب ، ولو كان الأمر يجري على القياس ، لكان
 المصريون في مقدمة الأمم التي ينفو فيها الشمور بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن
 الموجودات ، لركة طباعهم ، ولطاقة شيمهم ، وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم ، ولما
 بزم الله به من حسن الاقليم ، واعتدال الجو ، وفيض الماء ، وخصب التربة ، ولا يحصر

موارد أرزاقهم ومعايشهم في استغبات الأرض ، وطول ممارستهم للفلاح والحراث والزرع والحصد ، وكل من رأى الاقليم المعمرى كالزبرجدة الخضراء ، في وسط رمال الصحراء ، لا بد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ، ويحسد على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذي يجلو البصر ، ويثلج القواد ، وينعش القلب ، ويلطف من هواجس النفس وبلايل الصدر ، فتصفو الروح ، فتخف من قيود العالم السفلى إلى الانصال بممارج العالم العلوى ، فترتاح هناك هنية مما تقاسيه في مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام ، وتفر من وجهها إلى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . واعلم — وهذه لفظة طالما أفادنى تكرارها على لسانك فاسمع لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب — أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ، فى الخلقة ما يشبهه ، ولا فى النطق ، فى الحيوان ما ينطق ، ولا فى الذكاء ، فى عوام الأرض ما يفوقه ذكاء ، وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات ، والخصلة التى يفضلها بها ، هى إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة ، وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتمام إلى معرفة خالقها ، وعبادة صانعها ، قال جل وعز فى محكم بيانه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكروا إنما أنت مذكر » . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات ، وهى أشرف اللذات وأصفها ، وأفضلها وأبقاها ، وما يتقرب العبد إلى الله رُئسفى فى عبادته بأجل من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكال خلقه ؛ قال وهو أحكم القائلين : إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فكيف عذاب النار » ، ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا من تجرد مثل بوم من عالم الأجسام والفناء ، إلى عالم الأرواح والبقاء ، ولا ينبتك مثل خبير .

ولو كانت الأمور تجري على القياس أيضاً ، لاشتغل المصريون بهذه المشاهدة ،

وسموا في نموها فيهم ، إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور ، فمن جهة انصرافهم إلى تقليد الغربيين ، والعمل على نمطهم في مختلف أحوالهم ، كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم وسكناتهم ، ولكن لعل هناك من خفي الأسباب ما حرمهم أطراد التقليد في هذا الباب .

(عيسى بن هشام) — لم يكن هناك من سبب يمنعونهم غير ميلهم إلى الفتور والانقباض سواء أكان في الماديات أم الأدبيات ، وهم على شدة ولعهم بتقليد الأجانب ، لا يقدرونهم إلا فيما خفف وهان من الزخرف المصطنع ، والبهرج الكاذب ، والملاذ الشهوانية ، مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام ، ونفاذ الأموال ؛ وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة ، فجهولٌ عندهم ، بل مردولٌ لديهم ، وإجمال القول في هذا الباب أن مثل المصري في أخذه بالمدنية الغربية ، كمثل المُنَحَّل يحفظ القشَّ الثافه ويفرط في الثمين النافع .

(الباشا) — يا أسفاً عليهم كأنهم تخلَّوا عن فضائل مدينتهم القديمة ، ولم يتحلَّوا بفضائل المدنية الحديثة ، فأصبحوا كالتي تقصت غزَّها من بعد فورة أنسكانا .

قال عيسى بن هشام : وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو ، حتى وصلنا إلى القارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة ، فرأينا صنماً جميلاً وشكلاً بدبياً ، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار ، فجلسنا على سررٍ هناك أعدت للزائرين ، وإذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين ، شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات إلينا ، فأقننا استرق السمع وانتقط اللفظ ، فتبين لنا من سياق كلامهم أن أحدهم عمدة من عمد الأرياف ، وثانيهم تاجر من تجار الثغور ، وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع في مجرى حديثه :

(العمدة) — وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله ، فقد طال بنا الجلوس ولم تر شيئاً ؟ وهل كان جُلَّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الأشجار ، ورطوبة الهواء ، وعفونة الماء ؟ والله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلقته خلف بلدتنا ، ولمررى إن الأور الذي يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمداً من الأور

الذى يسمح أمامنا ، وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التى لا تثمر ولا تغنى من جوع ؟ وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذى وعدتنا به وأطمعنا فيه !!

(الخليم) — مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء ، وإن كنا أخطأنا الفرض هنا ، لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها ، وما كنت أتخيل أن الأمر وصل بها إلى مثل هذا الخراب من الظلماء والفرلان إلا منذ أخبرنى أحد الأصحاب بمد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة خلواً يدها من الأشغال ، فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها ، والنجوال فى أنحائها ، ولا أقول فى هذه النازلة إلا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة : « حسبنا الله ونعم الوكيل . »

(التاجر) — وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرفأً للحسان ، وملعباً للقيان ، ولعلما دخلت هنا وحيداً فريداً ، فما أ كاد أنصب الحياة ، وأضع الحب ، حتى أقنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع .

(العمدة) — يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة إلا لمدة قضاء الحاجة ، والرجوع إلى البلد فوراً ، وإلا فقد عرض الواحد منا دراهمة للضياع ، وصدره للانتقاض ، وإلى الآن ترائى فى غاية الأسف والحزن على ما جرى لى أمس فى سهرتى مع فلان الموظف ، إذ جرئى للتزهد معه ، فطأوعته على هواه ، أملاً فى إنجاز حاجتى عنده ، فسحبنى من مكان إلى مكان ، ومن حان إلى حان ، يشرب هو وأصحابه على حسانى . وكأنا أجوافهم دنان متخرقة ، فلا تمنى أبداً من الحمر ، وكأنا كيسى كنز لا يفتى بالانفاق ، وما كدنا ننتهى من حانات الحمر ، حتى اندفعوا بى إلى بيوت القمار ، فأصبحت مصدع الرأس من الحمر ، فارغ الكيس من القمّر .

(التاجر) — ولم تطاوعه على أغراضه ، وتنقاد إليه مع أصحابه ، وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة ؟ وإن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم ، فيكفى فى ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » فى يده ، وتنخلص منه ومن أصحابه ، فلا تسيرهم ، ولا تعرض نفسك للتورط معهم كما فعلت .

(العمدة) — يحق لك أن تعترض وتلوم ، فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام ، فإن أفعالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الأرياف ، فنحن في اضطراب دائم إلى استرضائهم ، « والبالغ المناسب » الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة ، بل يلزم الاتفاق عليهم في كل زمان ومكان ، علاوة على تلك المبالغ ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة في الحال . وكمن كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير ، وما يدريك أن الذي تعصى عنه الليلة ، ولا تلفت بنظرك إليه في حانات الأربكية ، يصبح غداً قاضياً في المحكمة ، أو حاكماً في المديرية ؟

(الخليع) مقاطعاً — إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك ، قلنا عنها عوض من ليلتنا هذه إن شاء الله .

(العمدة) — أصدقك في وجود العوض ، وقد أخلفت وعدك معنا في هذه الحديقة ، وأذن الليل بالدخول ، وليس في اليد شيء من الضيد ؟

(الخليع) — صدقت بالله ، فاني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة ، لأنني كنت مقيماً بحلول مدة طويلة ، وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول ، ولكنني قد ربيت لك الآن سهرة في فكري تفوق في حسنها كل سهرة مضت ، فاني أعرف صاحباً لي أخبرني عن بيضة خدر من بيت فلان باشا ، فقوموا بنا ، وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل ، وسأكتم عنها أمركا إلى أن تصير معي في الموضع الذي أحثاره ، ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتي بكما ، فيكون دخولكما على حين غفلة ، فلا تستطيع الاختفاء ، ثم تضطر إلى البقاء في مكانها ، وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأوس والسرور ، ولكن لا أخفي عنكما أن مقدار ما معي من الدراهم الآن لا يكفي لإعداد معدات هذا المجلس ، وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لأخذ دراهم أخرى أن يعنى أهلي من الخروج ثانية ، كما هي العادة عند النساء في التضييق على الرجال .

(العمدة) — لا عليك ، فمندی من الدراهم ما يكفي وزيادة .

قال عيسى بن هشام : وقاموا في الحال للسعي وراء اللهو والمجون ، وقام الباشا يسبحي رزاهم للعلم بما سيكون .

العمدة في المجمع

قال عيسى بن هشام : وخرجنا في أثر الخليل والعمدة والتاجر ، وقد ألفت ذلك بمينها في كافر^(١) ، ثم أضيفت بعد ذلك شموع الكهرباء ، فعادت الشمس متوزعة في مصابيح الضياء ، كأنهجوم تلالاً في أفق السماء ، وتفتح دياجي الظلماء . ولما توسطنا ساحة « الأوبرا » و « الأوبرا بار » ، وقف الباشا وقفة الاعظام والأكابر ، يكفكف غروب الدمع والاستعمار ، ويقول سلاماً على إبراهيم ، إبراهيم في النار كيف لا يضطرم القلب استماراً ، ويجري الدمع مدراراً ، فما أستطيع أوارى^(٢) ولا أستطيع أوارى ، وقد تمثل أمانى في هذه البقعة ، وهي موسومة بسوء السمعة ، بطل مصر ، ورافع بنود النصر ، وقائد جيوش الحرب وهادئها ، في معاوئ الأرض وبواديها ، وموقد نيران الوقائع وصالحها ، وخائض غمرات المعامع وجاليها :

في كل منبت شعرة من جسمه أسد يمدُّ إلى القريسة تحليها وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد ، في مواضع الهزل والدد^(٣) ، ويقمعوا لإبراهيم صناً على صورته ، وفي وسط سوق القسوق وسرته ، مشيراً بيده إلى مواطن الهوى والفجور ، وأما كن الفحش والمهور ، ودبته ينههم عن تشييد الأصنام وإقامتها ، ويأمرهم بكسرها وإبادتها ، ويا بؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكمأة والفرسان ، في ميدان الضرب والطمأن ، بمصافحة المنايا ومقارعة الأقران ، تشير اليوم وسط هذا الميدان ، بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان ، فسبحان محوّل الأحوال ، ومبدل الأزمان . فقلت له : ما هذه الأفكار المحزنة ، أحنيناً إلى تلك الأزمنة ، وقد انقضت بخيرها وشرها ، وذهبت بحلوها ومرها ، وأين أنت من طريقك في الحكمة والسداد ، ومن سبيلك في الهداية والرشاد ؟ فحفض عليك من حزنك وهملك ، واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومية ، ولا تجعل لحوالك القديم عليك سلطاناً مطاعاً ، فيذهب ما استفدناه من العلم رجحاً مضاعفاً ، أما إقامة التماثيل في الميادين ، ومخالفتها للشرع والدين ، فقد أقامها حكامنا تقليداً للفريريين ، ولم ينكرها أحد

(١) ذكاء : اسم للشمس ، والكافر : الليل (٢) الأوار : حر النار (٣) الدد : اللهو واللعب

من طلبة العلم وعلماء المسلمين ، فاستندت إليها الأفكار ، ولم يوقظها التحريم والانكار ،
وأما وضع المثال في هذا المكان دون سواه ، وإشارته فوق الحصان بيمينه ، فلعل الأمر
بوضعه أراد أن يذكر هؤلاء العاقلين الذاهبين ، بما كان لأبائهم الأولين ، من الشأن
الرفيع ، والركن النميع ، أيام إمارته ، وينبئهم على ما انتشر ذكره في الآفاق ، وخلدته لهم
بطون الأوراق ، من افتتاح الممالك ، وافتتاح الممالك ، تحت قيادته ، وهو يشير اليوم بتلك
اليد ، ليستقرهم إلى مواقف العز والجد ، ويستنفرهم عن بواطن الخلاعة والبطالة ، إلى مواطن
الشجاعة والبسالة . فتبسّم الباشا من قولي ضاحكا ، وقال : ما عهدتك في الجواب محاولا
بما حكا . فقلت له : دَعْ هذا وانظر إلى هذه البنية الايونية ، ذات الأرائك الخسروانية .
فقال : أعظم به من بناء ، بين بيوت الكبراء . قلت : هو بيت طوي رَفَعَ اسماعيل قواعده ،
ويؤا الناس مقاعده ، يشاهدون فيه صنوف الألعيب ، وضروب الأعاجيب ، مما يؤخذ
عن أساطير الأولين ، وأقاصيص الراوين ، وما تَقَسَّنَ فيه كل غادة حسناء ، من جمال
الزينة وحسن الرواء ، وتَقَسَّنَ به كل قِمينة هيفاء ، من فنون الرقص والغناء ، اقتداء بالقربيين
في ديارهم . واحتذاء لأنارهم ، وقد بقي من بَمدِهِ تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع
والفلاح ، لتفككه الزلازل والسَّيَّاح ؛ ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم ، والموقف
الزدهم . فالتفت وقال : ما هذه الضوضاء العظيمة ، أما تسمي ما أرى أم ولية ؟ قلت له : لا بل
هو مجتمع عام ، تنزاح فيه المناكب والأقدام ، لمسامرة الأصحاب ، ومعاقرة الشراب ، وبيننا
نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير ، عند باب هذا الحان الشهير ، فسرنا في عقبيهم ولحقنا
بهم ؛ فسمعنا الخليل يقول لصاحبيه : كُونَا هنا في الانتظار ، حتى أعود اليكما بالأخبار ،
إنجازاً لوعدى ، وإيفاءً بعهدي ، فأجاباه باقبول ، وتقدما للدخول ، فقال العمدة للتاجر :
ما أحوجنى إلى تضييع الزمن ، ورياضة البدن ، بشرب كأس من العُقَّار ، ولعب دور من
« البليار » . وقال التاجر : وما أحوج يدي إلى ملامسة ورق القمار ، وأدّني إلى رنين الدرهم
والدينار ! ثم صعدنا وراءهما إلى قاعدة بأعلى المكان ، أعدت للعب والرهان . فتقدم العمدة
وهو يز أعطافه وأردائه ، فتسلم كُرَّة « البليار » وصوبلجانه . وتقدم التاجر وهو يرتعد من

الفرق ، في مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر والسمع ، في غمار ذلك الجمع ، فسمعتُ عن معنى أحد السياسرة المعروفين بالدهاء ، يقول في مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء :
 (السمسار) — لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية ، التي بفتنى الرجل فيها بكلمة ، ويثيري بإشارة ، فيصبح بها أغنى الأغنياء ، بعد أن كان معدوداً من الفقراء ، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كاه ضيق وعسر ، ولم يبق من حكاهم من يقطع الأقطاع ، ويهب الضياع ، ويبقى الغنى الحزيم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يسترجع ثروته ، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم ، فأصبح مضطراً إلى الإتفاق من تلبيده ، فسرى النقصان إلى رأس المال ، حتى إذا مضى سبيله لم يترك لأهله وذريته إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزّعه بينهم ، وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحد على هذه الحال إلا ويندثر بين المصريين ما بقي من بيوت المجد والغنى ، واعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد ، وهو منبع المنابع في الثروة والمال ، وكنز السكنوز في الغنى واليسار ، يقوم المصريون مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء ، ويدفعون عنهم الضراء بالسراء ، وما يخفى عليك أنه بيت البورصة .

(الغنى) — اسكت ولا تذكر لي اسم البورصة ، فقد سمعنا في هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر .

(السمسار) — ألتس من سعادتكم غرض انظر عن الاستشهاد بفلان وفلان ، فإن الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلها ، أما أحدهما فإنه كان يعتمد في المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير ، وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين : العرافة السودانية أو العرافة الافرنجية ، تلك بوعدها ، وهذه بوعدها ؛ ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلاً مجذوباً يصبح في الطريق بقوله : « اذهب يا يزيد » ، وكان لا يزال متردداً بين البيع والشراء ، لا يرجح بين المبهوط والصعود . فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها ، وسار من توه إلى سمسار ، فأمره أن يشتري له عشرين ألف قنطار ، فنصحته وحاول أن يحمله

عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحول ، وهبطت الأسعار في اليوم الثاني ، وتوالت هبوطها ، فكان ما كان من خسارته ؛ وأما الثاني فكان جلّ اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب الجرائد ، والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ، ولم يعمل برأى السامرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة ، وأعلمهم بطرق الصواب فيها .

(الفنى) — لن تزيدنى والله براعتك في البيان والبرهان إلا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ، ولا أعتبرها في نظرى إلا أكبر باب من أبواب المقامرة ، والمقامرة هي عين المخاطرة .

(السمسار) — أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون ، وملازمة لصاحبه في كل زمان ومكان ، ومن أراد أن يتوقى الأخطار ، ويسلم من الخواف ، فلا يباشر عملاً من الأعمال ، والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواء ، واسمح لى بأخر قول أقوله لك في هذا الباب ، وهو أنك أخبرتني بمقدار محصولك في هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك إلى اليوم ، لم تبعها تربصاً لصمود الأسعار ، ولم تبال بما يلحق القطن في طول خزنه من نقص الوزن ، وما يهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق ، فإذا كنت فضلت الانتظار ، لصمود الأسعار على هذه الحال في ثلاثة آلاف قنطار ، فما الذى يمنحك عن مثل هذا العمل في ثلاثين ألفاً من « الكونتراتات » ، دون كلفة ولا مشقة كالتي احتملتها في استخراج المحصول ؟ فإنك لا تدفع هنا ثمن أرض ، ولا تنفق على حرث ، ولا تؤدى ضريبة ، ولا تبذل ماء وجهك لوى الأطيان ، ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلت في قضية ، ولا وقعت في منازعة ، ولا تخوفت شيئاً من الآفات ، سماوية كانت أو أرضية ، بل هو ربح بأتيك عفواً صفواً ، ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تحطها يمينتك في التوقيع .

(الفنى) — يجوز أن يكون في قولك هذا بعض ما يقنع ، ولكنى لا أجد نفسى تطمئن يوماً إلى ولوج هذا الباب .

(السمسار) — أنا لا أكلفك أمراً عظيماً ، ولا أدعوك إلى أدنى خسارة ، وما عليك

إلا أن تجرب صدق نصيحتي ، فتشتري الفين من « الكونتراتات » ، فتتظربها صمود
 الأسعار مع أقطانك الخزونة ، وأنا أضمن لك الربح ، مادمت آخداً برأبي ، ولا تستبر
 في هذا الانكاش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، وخذ في النشاط والإقدام اللذين
 هما سبب تقدم الغربيين ، واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من
 التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال البورصة و « الكونتراتات » ، كالفارق ما بين السفر
 على ظور الجمال والظوران على أجنحة البخار ، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها
 بالطبع ، ولكل زمان ما يقتضيه من العمل وبحكم به من السير ، وأنت الخبير مع ذلك فبا
 ترضاه لنفسك .

(الغنى) — وكيف حال الأسعار اليوم ؟

(السمسار) — كما كانت أمس وهي فرصة ثمينة للشراء .

(الغنى) — خذلى اليوم خمسمائة قنطار للتجربة .

قال عيسى بن هشام : وتركنا هذا العصفور قد وقع في يد الصائدين المحتال ، والتفتنا إلى
 ذات الشمال ، لسماع ما يدور من الجدال ، بين رجل فرغ كيسه من المال ، وامتلأ
 رأسه من الآمال ، وبين تببيع محام من الأجانب ، يتلقط القضايا من كل جانب :
 (التببيع) — لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية ، وهي معروفة
 بحببها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا ، وإن حكمت مرة فقلما تبادر
 إلى التنفيذ ، أما المحاكم المختلطة فإنها لا تحسب غير الحق حساباً ، وسواء لديها الحكومية
 والأهلى . والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس ، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف
 قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ، ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها إلى
 الآن ، فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة ، ولكن أخبرنى قبل كل شئ عن تلك
 الشجرة هل لها ذكر في الحجة باسمها التاريخى المعلوم ، وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً
 إلى الواقع ؟

(صاحب القضية) — أما الشجرة فذكر في حجة الوقفية أنها « شجرة العذراء » ،

وهي قائمة على أرض سواد ، وأما نسبي فهو متصل بأحد عتقاء السلطان النورى ،
ولكن من لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة ، وأنا رجل من رعايا الحكومة ؟ ومن لى
بمحام أجنبى وأنت تعلم ما يلزم مثله من المبلغ الجسيم فى « مقدم الأتعاب » الجملة ؟
(التبعية) — هوّن عليك الأمر ، أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة ، فإنه سهل هين ،
يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب ، وأما المحامى الأجنبى فأنا أتكفل لك بإقناع
المحامى الذى اشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى « مقدم الأتعاب » ، وإنما
يتفق معك على مناصفتك فيما تأتى به القضية من الأموال ، وأما الأجنبى الذى تنازل له عن
القضية ، فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا ، لتسخيره فى مثل هذه القضايا ، وما عليك الآن
سوى النفقات والرسوم القضائية .

(صاحب القضية) — لا بأس بما نقول ، ولكن ليس عندي ما أستغنى عنه اليوم لتلك
النفقات ، ولو كنت واثقاً بعض الوثوق بكسب القضية ، لبادرت إلى بيع الحصة التى بقيت
ل من العقار ، ولكننى أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية ، فأصبح بلا مال ولا أمل .
(التبعية) — لو كنت تعلم بمهارة معلمى ، وما له من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ،
ومن الاتصال بقناصل الدول ، لاستخرت الله فى بيع الحصة ورفع القضية .

(صاحب القضية) — استخرت الله واعتمدت على هذا رأى .
(التبعية) — فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم ، ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط .
(صاحب القضية) — أمهلنى أياماً ، حتى أجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب .
(التبعية) — أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة إنما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق
والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها .

(صاحب القضية) — بينى وبينك مساء الغد فى هذا المكان .
قال عيسى بن هشام : وتركنا أيضاً هذه السمكة ، تتخبط فى الشبكة ، ثم حولنا النظر
إلى العمدة فى لعبة البليار ، فما راينا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية فأطارها
إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب ، فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً ، وقام هاجماً على
(١٣)

العمدة يريد به شراً ، وهو يُدْمِدِمُ ويطمطم ، والعمدة يجمعهم و يغمم ، وكاد يقع ما نرى عقباه لولا أن أسرع التاجر خال بينهما ، وأخذ بيد الأجنبي يستعطفه ويبالغ في الاعتذار اليه ، حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين من « الشبانيا » لعقد الصالح على حساب العمدة ، ثم عمد العمدة إلى الجلوس ، فلم يمهله الذي كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش ، فها هي إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكدر بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقه وشقه ، فذهب الخادم مسرعاً ، وعاد بصاحب « البليار » ومن ورائه بقية الخدم ، وهو يقول لهم بصوت عال : كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق ، فيخرقه ويقلعه ؟ ثم وقف للعمدة يطالبه بشمن ما أتلف ، وتعويض ما عطل ، وقدّره له بخمسة عشر جنياً لا يتجاوز عن درهم واحد منها ، فأخرج العمدة كيسه فأخرج ما فيه عدداً فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنياً ، فلم يقبل منه . فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً ، وجلس العمدة متكدرًا ، ولقد كان اللعب بالأفحوان ، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان ، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه ، حتى قام عنه زاعمًا أنه خسر فيه ثلاثة جننيات . وقد يجانبه يظهر التأسف والتندم ، فقال له العمدة : دع عنك الأسف والكدر ، فالضائع ضائع ، ومصيبتك على كل حال أخف وقعاً من مصيبي و بينا هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشأً باشأً وفرحاً مرحاً (الخليع) — أشرق أنسنا ، وسعدت ليلتنا ، وطاب وقتنا ، وانقضت حاجتنا ، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ، ويمد عنا نهارنا ، فقد تم مرادنا وهلم بنا .

(العمدة) — ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويُدنى منا نهارنا ، فاقصد ممنا قصه عليك مادهانا في غيابك .

(الخليع) بعد سماع القصة — وبلى ثم وبلى ، فأنا الموم إذ تركشكنا . فوقع لكنا دونه ولكن قدر الله لكنا ولطف بكنا ؛ أما مصيبي الآن فهي أعظم من مصيبتكنا وأبلغ ، فإذا أقول وماذا أفعل ؟ وكيف أدفع وبأى عذر أعذر ، وقد أخرجت البيضة من خدره والظبية من كناسها . واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا ؟

(التاجر) — الأمر أيسر مما تخشاه ، فما يفوتنا الليلة ندركه غداً .
(الخليع) — ذاك شيء لا يدرك في كل وقت وحين ، وهذه المرة هي بيضة الديك
بيضة الخدر ، وكيف يمكن فض هذا المجلس وتأجيله ، وقد مضى قطع من الليل وتمذرت
سبل الرجوع .

كيف الرجوع بها وحول قبابها سمر الرماح يمان للاصفاء ؟
لخصاني ناشدتكما الله مما وقعت فيه ، وأتقذاني من هذا البلاء العظيم .
(التاجر) — وما وجه الخلوص ، وقد علمت بتفصيل الحال ؟
(العمدة) — تالله إن الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً من كل ما نابنا ،
ولو كان الوقت نهراً لأسرعت إلى « البنك » فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم .
(التاجر) — إذا كانت الرغبة انتهت بك إلى هذا الحد فالأمر يسير ، ومعى الآن
ما يكفي ، وأنا أقوم لك مقام « البنك » ، فكم تطلب ، ولأى ميعاد تكتب ؟
(الخليع) — هكذا يكون الصديق ، في وقت العسر والضيق ، غياك الله وأبقاك .
(العمدة) للتاجر — أعطني عشرين جنياً تكون معى على سبيل الاحتياط .
(التاجر) — ولك الفضل هاك سبعة عشر جنياً تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التي
خسرتها هنا أمامك ، وألتبس منك كتابة ورقة على سبيل التقييد .
قال عيسى بن هشام : فما كان أسرع من الخليع في استحضار الدواة والقرطاس ، لإجابة
هذا الالتماس ، فطاب العمدة منه ، أن يكتب الصك عنه ، ثم خرجوا والعمدة يجرو أذياله ،
ويحك قذاله^(١) ، وخرجنا خلفهم في الحال ، تتبعهم متابعة الظلال .

(١) القفال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

العمدة في المطعم

قال عيسى بن هشام : ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته ، ويقصر من مشيته ، ويقول : ما هذا الذي أرى ، من فساد هذا الوري ؟ كأن ناعماً تقعهم في خابية^(١) ، جمعت أخلاط الكبائر ، أو غامساً غصهم في جابية^(٢) ، وعت أمشاج الجرائر^(٣) ، أو كما خطونا خطوة رأينا من العش والمكر أصنافاً وأضراباً ، أو حضرنا ندوة شهدنا من الخداع والتفادى فصولاً وأبواباً ، فما أنس من يعاشرهم ! وما أنحس من يحيا فيهم ! وما أشقى من يجاورهم ! وما أسعد من يجافهم ! واغوثاه من الانسان ، في هذا الزمان ؟ فقلت له : قدك^(٤) ، بل في كل زمان :

لن تستقيم أمور الناس في عصر ولا استقامت ، فذا أمناً وذا رعباً ولا يقوم على حق بنو زمن من عهد آدم كانوا في الهوى شعياً هكذا كان بنو آدم ، تأخر عهدهم أو تقدم ، فهم على ما هم فيه أبداً ، أمس واليوم وغداً ، وما عساك تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء ، وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء : « أنجمل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، وما عساك تقول في قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير ، ولولى قبل الأمير ، يهون عليه أن يفترى ما أسف من الدنيا ، وسفل من المطالب ، بمنطقة البروج ومجرة الكواكب ؟ وما عساك تصف خلقاً أفضل ماني أعضائه ، أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه ؟

أفضل ما في النفس يغتالها فتستعبد الله من جنوده

هذه المضغة التي بفيه ، ويقال إنها أفضل ما فيه ، لو نسجت مضغة على قدرها ، ححات^(٥) العقارب — حاك الله — لحمتها ، ولعاب الأفاعي — عافاك الله — صممتها ، لكانت في جانب هذا اللسان أخف ضرراً ، وأهون شراً ، وما عساك تنعت نوعاً نعمت الله

(١) الخابية : الحرة الضخمة (٢) الجابية : الحوض

(٣) الأمشاج : الأخلط والأوساخ . والجرائر : جمع جريرة وهي الائم (٤) قدك : بمعنى كفاك

(٥) الحمة : الابرة التي تضرب بها العقرب

واحداً منهم في آية من الآيات، بتسع صفات : « حَلَّافٌ مَهِينٌ ، هَمَّازٌ مَشَّاءٌ بَنِيْعِمٌ ، مَنَّاغٌ
لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنْيَمٌ ، عَقْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيْمٌ . »

قَافٍ لِعَصْرِ يَهُم نَهَارٍ وَحَفْصٍ وَجَنَسِي رَجَالٍ مِنْهُمْ وَنَسَاءٍ
وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةً وَضَعَهُ وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمِّهِ النِّفْسَاءِ

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر ، أفضل من أخلاق مَنْ علَّاهُمْ من
سادة البشر؟ ولعل ما أدركته من طمع الغنى ، ومكر السمسار ، وخداع التبَّيع ، وما تبيَّنته
من غش التاجر ، وغفلة العمدة ، واحتيال الخليم . هو دون ما تكنه صدور الكبراء ، وتجنُّه
قلوب الأمراء ، تحت حجاب التكلف والتطبع ، وبستهونه عن أعين الناس بستار التزويج
والتصنع ، وكلما اعتلى الإنسان درجة في اللقام ، وخطأ فيها خطوة إلى الأمام ، تنفَّع لها
بقناع ، وتلثم بثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسة تحت صفائح الدَّهَاء ، مضروحة بين
جنادل الرياء ، بل ربما كان أخلاهم أخلاقاً حسناً ، أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتاناً ،
كان لي صاحب تراه من لسانه غَضَنُفَرٌ رِيْئَالاً^(١) ، يحمي عريفاً ويحرم أشبالاً ، تنقيه
القياصرة ، وتجنِّشاه الأكَسرة ، فإذا كشفت عن قلبه ، وحسرت عن لُبه ، وجدته شاةً
تطف على سَخْلِهَا^(٢) ، وظئراً تحنو على طفلها^(٣) ، وأعرف آخر قد ضجبت أحرف الفضيلة
من ذكرها بقلعه ، ولو كها في فيه ، وهو مع ذلك يخمش وجهه ويديم جفونه ، إن سمع
أن مختلساً اختلس دانقاً دونه ؛ وفيهم مَنْ يملك من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة ،
والتلون بالألوان المتعارضة ، فتكون دموعه طوع إرادته ، وابتناساماته عند حاجته ؛ قال
حكيم آخر : ما أكثر ما تتحوَّل رُقعة الشطرنج وتقلب ! قال له : تقلب وجه الإنسان
أعجب وأغرب ، وقد تَبَقَّى الأخلاقُ الذميمة ، والصفاتُ اللثيمة ، مطويةً عن النظر ، محجوبةً
عن البصر ، حتى يُنَاح لها كاشفٌ من الحوادث ، فينزِع عنها القِدَامَ^(٤) ، ويحسر اللثام ،
فيظهر الطبع السقيم ، ويبدو الخلق الذمير ، ومن عوامل التبيين والبيان ، في أخلاق الإنسان ،

(٢) السخل : جمع سخلَة ولد الشاة

(٤) القدام : غطاء الأبريق

(١) الغضنفر والريال : من أسماء الأجد

(٣) الظئر : المرضعة

الغضبُ والجبن، أو السكر والحزن، ونحن الآن في ساحة السكر، فهلم بنا، نلحق بأصحابنا فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون، وسمعناهم وهم يتحاورون.

(العمدة) — دعوني من هذا كله، فقد صاحت عصافيرُ بطني، ولم يدخل جوفي اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التي أكلتها مستعجلاً، فهيا بنا إلى « السكة الجديدة » نعطف على « المطفي »، فإن طعامه دسم، وسمنه زبدة، ولحمه سمين.

(التاجر) — ما هذا « المطفي » الذي تذكره، وأين أنت من كباب « الخافي »، وحمام « لوكه »، أو طواجن « الفار »، وأرز « العجمي »؟

(الخليع) — ما هذا الخلط ونحن في وسط الأزبكية بين « النيو بار » و« سان جيمس بار » و« اسبلند دبار »، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين؟ وناهيك بهذه الأماكُن ونظافتها، وحسن خدمتها، وعلو قدر الواردين عليها.

(العمدة) — دعنا من هذه الأماكُن، فإن طعامها لا يسمن ولا يغني من جوع، خصوصاً وأنا على هذا الخلوة من بطني.

(الخليع) — وأنا لا يمكنني على كل حال أن أترك هذه الأماكُن وأذهب ممكلاً إلى الحوانيت التي تشير أن بها، وأخشى أن يراني بها أحدٌ ممن يعرفني فأصغر في عينه.

(التاجر) — إذا كان الأمر كذلك، فأنا على رأيك.

(الخليع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ، فضيفان يغلبان قويتاً، فادخل بنا « النيو بار ».

قال عيسى بن هشام: فدخلوا ودخلنا معهم، وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم، وما خلع الخليع طربوشه، حتى نزع العمدة عمامته، وما ضرب الخليع بيده على المائدة، حتى صفق العمدة بيديه. فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان، فتناولوا العمدة ونظر فيها نظر المريض إلى وجوه العود، ثم تناولوا للخليع ليقراها، فأخذها، وتأمل فيها، وشرع يسرد الألوان حتى انتهى منها، والعمدة لاه عنه، والتاجر منصت إليه.

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار؟

(العمدة) — أختار المرق ، ومن بعده لحم الفرن أو الكبش .

(التاجر) — وأنا أطلب كياباً وقرعاً وأرزاً .

(الخليع) — وأنا أختار « فاتحة الطعام » أولاً . ثم خلاصة اللحم بالبيض ، وأرزاً
فاكهة البحر ، ودجاجة بعش الغراب ، وسمناً بالكُمأة ، وهليوناً بالزبدة .

(العمدة) — ما هذه الأسماء الغريبة ؟

(الخليع) — هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها .

(التاجر) — كل ما يُعجبك والبس ما يعجب الناس .

قال عيسى بن هشام : فيذهب الخادم ويحضر للخليع بفاتحة الطعام من زيتون وفجل
وسمك ملح ورزبدة ؛ فيتأمل العمدة فيها ، ثم يعيل على قطعة الزبدة فيتناولها وهو يقول :
رزبدة وسمك ؟ فيطلب الخليع سواها ، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد
أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز ، وعطف على خبز الخليع يأكل منه ، فيأتيه الخادم
بصنب آخر ، فيتناوله العمدة ويفته في صحن المرق حتى يمتلئ ويقبض على المائدة ، ثم إنه
يخفي فالتحقى عليه وصفق يطلب صحناً آخر وخبزاً آخر ، وهو يعيل في هذه الأثناء على طعام
الخليع ، فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فنفلت
منه إلى الأرض فيقوم فيأخذها ويأكلها باليد ، ثم يأخذ جزءاً من عش الغراب فيقضم
منه فلا يألفه ، فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ، ويقول ما هذه القشور التي يطبخونها
هنا ، وهي عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير في الأرض بأرجلها فتستخرجها
ولأنها أكلها ، فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسه إنسان ولا حيوان ، ثم يأتي الخادم
المرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الصحن ، فيماود الطلب ، فيسل الخادم
ويقول له : إنما أنت هنا ياسيدي في مطعم لا في مخبز .

(الخليع) للخادم — ما هذا الكلام البارد « يا جورج » أليس لكل شيء ثمن هنا ؟
نحن نأكل بديارهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد .

(الخادم) للخليع — لا مؤاخذه فإن كلامي ليس موجهاً إليك .

- (الخليع) — إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبي ، وصاحبي هذا أعزُّ على من نفسى .
- (العمدة) — دعهُ يأتِ لنا بخبز ولو بالتمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال إن هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً .
- (التاجر) للخادم — أعطني أيضاً لونا من الخضر .
- (العمدة) للخليع — قل للخادم يحضر لى مع لحم الفرن فحل بصل .
- (الخليع) — كل شئ يجوز إلا أكل البصل فى هذه الليلة .
- (العمدة) — لا مؤاخذه فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير تردد .
- (التاجر) للخادم — إئت لى بشئ من الحلوى أو الفاكهة .
- (العمدة) — إذا كان فى الفاكهة برتقال أو بلح فأعطني منه .
- (الخليع) — ولا تنس « يا جورج » أن يكون فى نصيبى من الفاكهة « ما نجو » و « قشطة خضراء » و « موز » و « أناناس » .
- (العمدة) للخليع ممازحاً — ومن قال إنك لست من الناس ؟
- (الخليع) للخادم — هات زجاجة نبيذ أخرى بفبارها .
- قال عيسى بن هشام : ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف ، أسرع العمدة بيده إلى فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسها فى جيبه وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد ، ثم حضر الخادم بآنية من البقل الملوّن فيها ماء وقشر ليمون ، فوضع أمام كل واحد منهم إناء ، فهم العمدة بشرب إنائه فى الحال ، فبادره الخليع ونزعه بيده عن فمه .
- (العمدة) — لماذا تمنعنى عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتنى منه رائحة الزهر ؟
- (الخليع) — هذا يا سيدى ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الأكل .
- (التاجر) — من عاش رأى !
- (العمدة) للخادم — الخساب « يا خواجا »
- (التاجر) — القهوة .
- (الخليع) — الخلال مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة ، ويأتى الخادم بجميع

هذا ، فيتناول العمدة ريش الخلال فيقتخلل بريشة ثم يعيدها إلى مكانها ، ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ، ثم يمسح ما علق بها في غطاء المائدة ، ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكيفية .

(الخليع) — أربعمائة قرنكا .

(العمدة) — اقرأ جيداً فإن هذا غلط فاحش .

(الخليع) — قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا .

(العمدة) — ما هذا النهب والسلب ، وما هذا الاسراف والتبذير ؟ لو كنا ذهبنا إلى مكان من الأماكن التي عددناها قبل دخولنا هنا لسكننا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل ، ولو كنا توجهنا إلى المحل الذي أبيت فيه لسكننا وجدنا من الآكل ما يكفيننا بغير ثمن ، لأن في غرفتي برمة أرزٍ بحمام مما أحضرته معي من البلد ، ولا شك في أن الخادم يريد أن يستغلنا فزاد في الحساب ما أراد ، وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسي ، ولا أدفع هذا الحساب ، وسأكشف لك هذا الغش بكل طريقة ، فإنه يهون على أن أبدد عشرة جنيهات في الهباء ، ولا يهون على أن أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس . نعم إنه رفع كأس التوبيخ وهو في حدته فصك به قدحاً آخر ممثلاً لاستدعاء الخادم ، فانقلب الكأس وأهرق التوبيخ على غطاء المائدة ، فحضر الخادم فعز عليه ما رأى .

(الخادم) — ما هذه الليلة السوداء ؟

(العمدة) — هذا ما أقوله أنا أيضاً ، فقل لي ما هذا الغلط في الحساب ، وهل تريدون

أن لا يدخل محكمكم بعد اليوم أحد ؟

(الخليع) — هل في الحساب غلط « يا جورج » ؟

(الخادم) — وأي غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل ، وهذا هو بيان الثمن أمام

كل صنف ؟

(العمدة) — أي حساب وأي بيان ! ولكنك أنت الكاتب له .

(الخادم) — نعم أنا الكاتب له ، ولكنك أنت الآكل له .

(العمدة) — وهل أكلنا أربعين حنظلًا ، حتى ندفع أربعين فرنكًا ؟

(الخادم) للخليع — أرجوك أن تقنعه .

(العمدة) — وهل أنا جاهل حتى يقنعه ؟

(الخليع) وهو قائم — حاشا لله يا سيدى .

(التاجر) للخليع — إلى أين ؟

(الخليع) — أراهم وضعوا في لوح الشاكرات السياسية تلفرافاً جديداً أريد أن أقرأ .

(الخادم) للعمدة — أعطنى الحساب ولا تعطنى عن الشغل .

(العمدة) — هاك عشرين فرنكاً لا أدفع سواها .

(الخادم) — ليس هنا محل المساومة في ثمن الطعام بعد أكله .

(التاجر) — زدهُ فرنكين .

(الخادم) — لقد كان الأولى بكم أن تأكلوا في غير هذا المكان ما دمتم بهذه الصفة .

(التاجر) — لا تقلط « يا خواجا » فإن حضرته يأكل في مثل هذا المكان وفي

أعظم منه ، ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال .

(الخادم) — وهل أنا خائن ؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك .

(التاجر) للعمدة — حقيقة إنه لقليلُ الحياء .

(العمدة) — وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ .

(صاحب المحل) — وقد حضر مع الخليع — ماذا جرى ؟

(العمدة) — خادمك يسرقنا ويشتمنا .

(صاحب المحل) — هذا كلام لا يقال عن محلنا .

(التاجر) — وذاك كلام لا يقال لنا .

(صاحب المحل) للخليع — عهدى بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء ، فما هذا

الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة ، وقد شاهدتهُ من مكاني يفعل أفاعيل انتقدها جميع

الحاضرين فإنه كان يبلع الزبدة ، ويطوى الخبز ، ويمدّ يدهُ إلى صحن سواه ، ويميد

إليه فضلة ما يأكله ، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلثمها ، ويلوث المائدة بالمرق والنبذ ، ويمسح يده في الفطاء ، ويكسر الكأس ، ويختلس الفاكهة فيضعها في جيبه ، وبهم يشرب ماء الفضل ، وينكش أذنه بريشة الخلال ، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويقامزهن ، فقمنا مستقبحات مستنكرات ، وقام كثير من المترددين على المحل اشتموا رزاً من هذه الأفاعيل ، ولا أشك في أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل .

(الخليع) — لا تُلَقَّبُهُ بلقب شيخ ، فإن معادته من الخائزين للرتبة الثانية ، وله سعى في رتبة القمايز ، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء في الأرياف .
(صاحب المحل) للعمدة — لا تؤاخذ الخادم باسمادة البك فهو على كل حال خادمك والمحل محلك .

(العمدة) للخادم — يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل ، ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدت عن العشرين فرنكاً ، ولكنني أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء .
(صاحب المحل) للخادم — أسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لئلا أكيد المعرفة والمساحة فيما حصل .

قال عيسى بن هشام : ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دَورين من الشرب لإكرام صاحب المحل في مقابلة إكرامه لهم ، فطلب العمدة ثم طلب ، وشرب ثم شرب ، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى ، ويتئاءب ويتمطى ، ويشكو للخليع ففعل الكاس ، وهجوم النعاس . فيقول له : هذه عادة تكون عند الامتلاء ، ولا يصرفها إلا كزوس الصهباء ، فهيا بنا الآن ، نذهب إلى الحان . فخرجوا وخرجنا من ورائهم ، نستنهي بقية أنبائهم .

العمدة في الحان

قال عيسى بن هشام : وأخذوا طريقهم إلى الحان المقصود ، والحوض المورود . وفيما نحن
 نسير ، بين تقدير وتفكير ، إذ القفت الباشا إلى ذلك الفندق الكبير ، بل الخورنق
 والسدير^(١) ، فرأى فيه شمس الكهر باء مشرقة ، وبنابيع الضياء متدفقة ، يلوح فيها زنجي
 الليل بقميص أبيض ، ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضض ، وعمد المصابيح كأنها أغصان
 الأشجار ، أزهرت بالأنوار ، مكان الأنوار ، فصار كل عمود منها عمود نجر ، يُهَجَّرُ قُرَّةُ
 الدُّجْنَةِ أَى نَجْر ، وكأن منشور الشموع في ظلمة الخلك ، منشور النجوم في قبة الفلك ،
 ورأى تحتها صفوفاً من الرجال ، بين صفوف من ذوات الجبال ، على سُرُرٍ متقابلين ،
 وأرائك متكئين ، يُسعدهم الجدّ المقيم ، ويُرفِّفُ عليهم الرِّقَّةُ والنَّعِيمُ ، فطفق يسألني : أتراء
 محفلاً ليوم أنس ؟ أم زفافاً في بيت عرس ، أم تراها ليلة مهرجان ، لقميل من الجان ،
 نسوا تفاوت الجنس ، فأَسُوا إلى الأنس ، وهجروا جوف الأرض لظهرها ، ودرجوا من
 بطنها إلى حجرها ؟ فقلت له : نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر ، ويقطعون
 الحزن والوعر ، ويطيرون في السماء ، ويمشون على الماء ، ويمخرقون الجبال ، وينسفون
 القلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويبدسون الرُّبِّيَّ مهاداً ، ويحملون الفقار بحاراً ،
 ويحملون البحار بخاراً ، ويسمعون من بالمشرقين ، أصوات من بالمغربين ، ويستنزلون
 لبصرك أنأى الكواكب ، ويمظنون في عينك أوهى المناكب ، ويمجدون الهواء ،
 ويذيبون الحصباء ، ويستحدثون الأنواء ، ويزنون الضياء ، ويستشفون خبايا الأحشاء ،
 ويكشفون خفايا الأعضاء . فقال لي : أُنْذِرُكَ لتحدث عن جن سليمان ، في هذا الزمان .
 قلت : هؤلاء سباح الغربيين أهل المدنية والحضارة ، الناطرون إلى الشرقيين بدين الممان
 والحقارة ، فإن نظروا إليهم من جهة العرة فنظرة العقاب من شماتة رضوى وثبير^(٢) إلى
 جنادب^(٣) الرمل وضفادع القدير ، وإن نظروا إليهم من طريق العلم ، فنظرة معلم
 الاسكندر عالم العلماء ، إلى صبي يتهجد في العين والياء ، وإن نظروا إليهم من باب الصناعات

(١) الخورنق والسدير : قصران معروفان

(٢) الشماتة : جمع شماتة ، وهو رأس الجبل . ورضوى وثبير : جبلان معروفان

(٣) الجنادب : جمع جنذب وهو الصغير من الجراد

فَنظَرَةُ « فِيدْيَاس » صَانِعُ التَّمَاتِيلِ وَالذَّمَى ^(١) ، إِلَى بِنَاءِ يَقِيمُ أَكُوَاحِ الْقَرْىِ ، وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْغَنَى ، فَنَظَرَةُ صَاحِبِ الْمَفَاتِيحِ الَّتِي تَنْوُهِ بِالْعَصْبَةِ إِلَى أُجِيرٍ يَنْضَعُ عَرَاقَاتِهَا فِي الْقَرْيَةِ ، وَإِنْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْفَضَائِلِ الْنَفْسَانِيَةِ فَنَظَرَةُ الْحَكِيمِ « سَقْرَاط » ، شَارِبِ السَّمِّ غَرَامًا بِالْفَضِيلَةِ ، إِلَى الشَّرِيرِ « أَرِسْطَرَاط » حَارِقِ الْمَعْبَدِ وَأَمَامًا بِالرَّذِيلَةِ ، تِلْكَ دَعَوَاهُمْ فِي نَفُوسِهِمْ ، وَقَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ .

وَهُمْ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَهْلُ الْفَرَاغِ وَالْجِدَّةِ ، الَّذِينَ أَبْطَرَهُمُ الْغَنَى ، وَأَهْلُ الْاسْتِمْتَاعِ بِدَعِ الْمَدِينَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي أَعْيُنِهِمْ جَدِيدٌ ، فَانْتَقَمَتْ مِنْهُمْ الطَّبِيعَةُ فِي خُرُوجِهِمْ عَنْ سَنَنِهَا ؛ فَسَلَطَتْ عَلَيْهِمْ دَاءُ الْمَلِّ وَالسَّامِ ، فَأَصْبَحُوا هَامِينَ عَلَى وَجُوهِهِمْ فِي الْأَقْطَارِ وَالْبِلَادِ ، وَحَطَّتْهُمْ الْقُدْرَةُ إِلَى الْاسْتِغْنَاءِ مِنْ ذَلِكَ الدَّاءِ بِالتَّنْقُلِ فِي الْبِلَادِ الْمُنْحَطَّةِ عَنْهُمْ فِي دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ ، وَالْإِقَامَةِ فِي الْأَقْطَارِ الْبَاقِيَةِ دُونَهُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ الْغَرِيزِيَةِ .

وَالضَّرْبُ الثَّانِي : مِنْهُمْ أَرْيَابُ الْعِلْمِ وَالسِّيَاسَةِ وَأَهْلُ الْاسْتِعْمَارِ وَالْاسْتِنْفَاضِ ^(٢) ، يَسْتَمْلِكُونَ عُلُومَهُمْ وَيُعْمَلُونَ أَفْكَارَهُمْ فِي احْتِلَالِ الْبِلَادِ وَأَمْتَلَاكِ الْبَقَاعِ وَمَغَارَعَةِ النَّاسِ فِي مَوَارِدِ أَرْزَاقِهِمْ وَمَزَاحِمَةِ الْخَلْقِ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، فَهُمْ طُلَّاعُ الْخُرَابِ أَدْهَى عَلَى النَّاسِ فِي السَّلَامِ مِنْ طُلَّاعِ الْجِيُوشِ فِي الْحَرْبِ .

قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : وَانْتَقَطَعَ الْحَدِيثُ بِدُخُولِ أَصْحَابِنَا فِي الْخَانِ ، وَاصْطَفَا فِيهِمْ حَوْلَ الدَّيَّانِ ، فَأَخَذْنَا مَجْلِسَنَا بِقَرْيَتِهِمْ ، نَنْظُرُ مَا يُصْنَعُ بِهِمْ ، وَإِذَا الْخُلُيعُ يَلْتَفِتُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ ، وَيُبَادِرُ الْخَادِمَ بِالسُّؤَالِ :

(الْخُلُيعُ) لِلْخَادِمِ — أَلَمْ يَشْرَفْ دَوْلَةُ « الْبَرَنْس » هُنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ؟
(الْخَادِمُ) — هُوَ فِي دَاخِلِ الْمَكَانِ وَسَيَسُودُ إِلَى مَجْلِسِهِ فِي الْحَالِ .
(الْعَمْدَةُ) مَدْهُوشًا — هَلْ يَجِيءُ هُنَا الْبَرَنْسَاتُ ، وَهَلْ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَجْلِسَ لِلشَّرْبِ فِي مَكَانٍ يَحْضُرُونَ فِيهِ ، فَلَمْ أَخْتَرْتُ هَذَا الْحُلَّ ، وَلَمْ لَا نَذْهَبْ إِلَى مَحَلِّ سِوَاهُ ؟
(الْخُلُيعُ) — لَا بَأْسَ عَلَيْنَا هُنَا ، وَسَتَرَى كَيْفَ أَفْعَلُ حَتَّى لَا تَخْرُجَ مِنْ هُنَا إِلَّا وَالْبَرَنْسُ مَصَاحُفُكَ وَمُجَاسَلُكَ .

(١) الدِّمَى : جَمْعُ دَمِيَّةٍ وَهِيَ الصُّورَةُ الْمُتَقَشَّةُ مِنَ الرِّخَامِ أَوْ الْمَاجِ (٢) اسْتِنْفَاضُ الْبَكَانِ : نَظَرُ جَمْعِ مَا فِيهِ حَتَّى يَعْرِفَهُ . وَأَهْلُ الْاسْتِنْفَاضِ : الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَجَسَّسُونَ .

(العمدة) — لا تهزأ بي ولا تمزح ، فأين نحن من البرنسات ؟

(التاجر) للعمدة — لا تستبعد ذلك ، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة وتقوماً
تُرايية ، ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم .

(العمدة) للخليع — وهل لك معرفة سابقة به ؟

(الخليع) — كيف لا أعرفه ولي معه جلسة في كل ليلة ؟ وكثيراً ما أوصلته آخر الليل

إلى قصره .

(العمدة) — إنك لتبالغ ؟

(الخليع) — لا مبالغة ودونك البرهان .

قال عيسى بن هشام : ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس إلى مجلسه ، فيومئى البرنس
إليه بالسلام ، فيثبته إلى مائدة عليها صنوف وألوان من الخمر والنقل ، فيجلس بجانبه مع
الجالسين حوله يخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه :

(الخليع) — لا زال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال .

(البرنس) — وأين أنت ؟ فقد سألت عنك مراراً .

(الخليع) — أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه ، وما منعنى عن المبادرة إلى

مجلسكم العالى إلا اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمدة الأرياف والآخر من تجار الثغور ،
أصفاً بي للبقاء معهما وأتجأ على أن أصحبهما .

(أحد الجلساء) بمازحاً — لا بل أصحبهما .

(البرنس) منكثراً — وهل هذا « زريبة » يا بك .

(جميع الجلساء) ضاحكين — لله در أفندينا في هذه النكتة : فما أطفها وأرقها !

(البرنس) — أنا لم أعلم التنكيت ، ولكن يصادفنى منه بعض كلمات في بعض الأوقات .

(أحد الجلساء) لآخر — أنظر بالله يا أخى حدة البرنس في لطافته ، وشدة في رفته ،

وقوة إدماجه في ألفاظه .

(الجلّيس) — وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة في تعبيرك ! وما أبلغك في كلامك !

أأنت تأخذ هذه الجلل عن الجرائد ؟

(البرنس) للخليع — ماذا تشرب ؟

(الخليع) — القفويامولاى ، فلا بد من الرجوع إلى صاحبي أولاً حتى أتخلص منهما

(البرنس) — وهل هما من الأغنياء المعترين ؟

(الخليع) — أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر في بلده أعظم خان ، والعمدة

عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية ، وللتاجر وابور للخليع وعنده وعدة بالثالثة .

(البرنس) — لا نحرمننا من وجودك ، ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا .

(أحد الجلساء) لآخر — قم بنا نقسح لها .

(الجليس) — انتظر قليلاً حتى يأتي « الدور » المطلوب مع نحن بلح البحر الذى

أوصى عليه البرنس آنفاً .

قال عيشى بن هشام : وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما ، فينهض له العمدة

وأنفاً لتبجيله وتمظيمه ، فيسقط من يده « قم السجارة » على الرخام فينكسر فينحني إلى

الأرض يجمع شظاياه ، ويظهر عليه من الأسف والكدر ما لا يقدر ، فيجره الخليع إليه

ويقول له :

(الخليع) — لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا « القم » ،

فإن البرنس ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه .

(العمدة) — ليس أسفى على « القم » فى ذاته ، بل لأنه تذكار عندى من حضرة

مأمور المركز ، كنت أهديته فرساً فأهدانى إياه ، فهو ثمين عندى من هذه الجهة ؛ ولكن

قل لى : كيف يدعونى دولة البرنس إليه ، وكيف ذكرتى له ؟

(التاجر) — أى نعم قل لنا كيف كان ذلك ، وهل جرى لى ذكر عنده أيضاً ؟

(الخليع) — قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ، ويقال فى المثل : « أرسل

حكماً ولا توصه . »

(العمدة) — أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى ، فإنى رأيت يضحك

كثيراً وأنت تكلمه .

(الخليع) — أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته أجره .
(التاجر) — وعلى ذكر السمسار ، هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه في هذا العام ؟
قال عيسى بن هشام : فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس ، فطأطأ العمدة إلى ركبة دولته ، فدفعه بيده ، فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً ، فتبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس ، فامتنع واستمر واقفاً ويداه إلى صدره ، حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح .

(البرنس) لأحد جلسائه — لا تنس أن تذكرني غداً بتصوير الفرس « سيرين »
فان « الدوك أوف بروك » أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض السباق بلوندرة .

(الجليس) — الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الري .

(البرنس) للعمدة — ما ذا تشرب يا حضرة الشيخ . . . يا بك ؟

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر — التمس السماح يا مولاي فاني لا أشرب شيئاً .

(التاجر) معاملاً من الألم — المفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك لا يابق في حضوركم .

(البرنس) — لماذا جئنا هنا إن لم تشربا ؟

(الخليع) — يشربان حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الأدب .

قال عيسى بن هشام : ويتناول الخليع « علبة السجارات » من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة ، فيتحاشى العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهراً — وربما كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه — ثم يأتي أحد باعة الزهور فيهمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له ، ويأمر الخادم أن يعطيه كأساً فيشربه وينصرف ، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من « الشمبانيا » فيسمح له ، ويلتفت إلى العمدة مخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة — كيف حال المحصول عندكم ، وكَمْ رمى الفدان من القطن ؟

(العمدة) — رمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم .

(التاجر) — المحصول جيد ، ولكن الأثمان فى هبوط ، وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هى باقية ؟

(البرنس) لأحد جلسائه — أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه اليوم أكثر من عشرين جنياً ، ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه .

(الجليس) — لا بأس به إلى الثلاثين .

(البرنس) — ما الذى تراه فى مسابقة الخيل غداً ؟

(الجليس) — أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك .

قال عيسى بن هشام : ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فسح واحدة منه وقدمها إلى البرنس ووزع البقية على الحاضرين ، فيجد أحدهم صوفاً متلبداً فى الموز فيعافه ويتركه على المائدة .

(أحد الجلساء) للعمدة — هل هذا الموز من زراعتكم وهل تمضجونه فى الصوف عندكم ؟

(العمدة) — كلا يا سيدى بل هو موز « النيو بار » ، ولم يمتك فى جيبى غير مسافة الطريق ، ومعنى أيضاً يرتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضرا .

(أحد الجلساء) — أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة ؟

(التاجر) — حضرته لا يشتغل بالتجارة ، وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر .

(العمدة) للخادم — أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر — يظهر أن الفدان روى بمشرة .

(الجليس) — فى البنك العقارى .

(البرنس) — وما معنى انكليزى ؟

(الجليس) — يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام : وفي هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيأتي في أذن البرنس كلاً ، فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع في أثره ، ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً ، فلا يبقى منهم أحد ، وتخلو المائدة للعمدة ، فيشرب مؤثر الكأس التي تركها البرنس ، ويميل على ما بقي في آنية النقل فيأتي عليه أكلاً .

(التاجر) للعمدة — ينبغي أن تطالب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس .

(العمدة) — أنا لا أطلب شيئاً إلا في حضور دولته .

(الخليع) — أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة ، وهذه عادته إذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته .

(العمدة) — ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب .

(التاجر) — لعل له هنا حساباً جارياً .

(الخليع) — نسأل الخادم .

(العمدة) للخادم — ألم يدفع دولة البرنس شيئاً ؟

(الخادم) — لم يدفع شيئاً قبل خروجه .

(الخليع) — وكم الحساب ؟

(الخادم) — مائة وواحد وعشرون فرنكاً .

(العمدة) — أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب

ومع ذلك فلننتظر عودته .

(الخادم) — إذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود ، وإن أردت أن لا تدفع

نحن ما شر به البرنس فأنا أقيده في حسابه .

(العمدة) — وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع إلا نحن ما شر به دولة البرنس وحده .

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات ، فينهض العمدة لمقابلته ، ويبلغ

عليه في الجلوس معه ، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال :

(العمدة) — على بمصير الحساب وبين لي فيه ما شر به دولة البرنس ، وما أكس

دولة البرنس ، وبكم شرب أصحاب البرنس ، وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس ،
واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب ، وعد لأدفع لك كل الثمن المطلوب .

(الوكيل) — أنا لا أشرب شيئاً .

(العمدة) — كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا ، كما تفضل دولة البرنس بإرضاء
خاطرها ؟

(الوكيل) — لا بأس أن أشرب كأماً واحداً من « الكنيك » .

(العمدة) — لا والله لا تشرب إلا « شهبانيا » ، كما شرب معنا دولة البرنس .

(الخليع) للعمدة — لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك ؟

(العمدة) — سعادته وكيل مدير بنا ، وحضرته (مشيراً إلى التاجر) من أكابر التجار ،
وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر .

(الخليع) للوكيل — تشرفنا بهذه المعرفة ، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابي
وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور ؟

(العمدة) للوكيل — أظن أن سعادتكم حضرتكم إلى مصر في عقب كشف الرتب
لندم إلى الداخلية .

(الوكيل) — نعم كنت اليوم في الداخلية وسيدتهى الأمر إن شاء الله على ما تحب .

(العمدة) للخادم — زجاجة شهبانيا أخرى .

(الوكيل) — يكفي فإني أريد أن انتقل إلى داخل المكان في مجلس إخواننا القضاة
وكلاء النيابة .

(الخليع) — لا لزوم لا نتقال سعادتكم فأنا أدعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من
أعز أصدقائي .

(الوكيل) — لا تكلف خاطرك بذلك فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم .

(العمدة) للوكيل — إذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم
زجاجة الشهبانيا هناك .

(الوكيل) — إن أردت ذلك فلا بأس .

قال عيسى بن هشام : فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ، ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا ، فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون ، فيشدد فيمتنعون ، فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكرأ إلا شربوا معه ، ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع ليشرّب معهم ، فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصة فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتنتلون ثيابه ، ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره .
ثم لبثنا مدة ننتظر العمدة ، ونترقب له الرجعة والعودة ، حتى أقبل يتهادى في مشيته ، بعد أن أفاق من غشيته ، وعهد إلى الخروج والخليع عن يمينه يفاحيه ، والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه .

العمدة في المرقص

قال عيسى بن هشام : ولما خرجوا من ذلك الحفل ، ونحن أتبع لهم من الظل ، سمعنا العمدة يشكو للخليع في طريقه ، ما يجده من انقباض الصدر وضيقه ، ويسأل التفرج لكربه ، والترويح عن قلبه ، ويذكره بما كان من الوعود ، ويطلبه بزيارة ذلك المجلس العذود ويقول له : تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا ، فهلم بنا الآن إلى ما وعدتنا ، لنرتباً عنا لهم بربيات الخدور ، ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور ، ونجلى أعيننا بنجل العيون ، وننمش أنفسنا بناعسات الجفون ، ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصباح ، قبل أن يصبحنا جيش الصباح ؛ فيقطع عليه الخليع كلامه ، ويدفع عن نفسه ملامه ، بأن طول الانتظار ، يذهب بحسن الاصطبار ، ولا صبر لذوات الدلال ، على خاف الوعود من الرجال ، وقد جاءني رسولها في غفوتك برسالة ، تشكو فيها ما لحقها من السامة والملاة ، وتُنحي على العتاب لمر ، وأن ما فعلته معها ليس بفعل الحر ، إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقت من السجوف واليكل^(١) ، وتحملت في بحيتها ما تحملته من الخوف والوجل ، حذر الوشة والرقباء ، وخشبة الأهل والقرباء . ثم إنها أقامت طويلاً في انتظار اللقاء ، وهي على مثل حرّ الرمضاء ، فإذا الوعد بلا وفاء ، وإذا الدين بلا قضاء ، وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب ، وتستمر محاباً لا يسع ولا يصوب ، فذهبت بحسرتها ، ومضت لطيتها^(٢) ، وفاتنا ما كنا بتفنيه ، وأياسنا ما كنا نرتجيه ، وتلك فرصة أضعتها ، لفرقة شيطانٍ أطعناها . فيقول التاجر : إذا ما الذي اكتسبناه ؟ بعد الذي احتسبناه ؟ وماذا أفدناه ، بعد الذي فقدناه ؟ وأين منا ما نجمع به شملنا ، ونبدد به ليلتنا ؟ فيقول له الخليع : لم يبق أمامنا في هذه الساعة ، سوى ملاعب الرقص والخلاعة ، عسانا نجد فيها بديلاً ، مما لم نجد إليه سبيلاً . فيخرج العمدة نراه فيمدها ، ثم يحشش بها ويردها . فيقول له التاجر : لا تم تم فذرهم الأنس ميسر . ويقول للخليع : تقدم ، فما من شيء عليك ميسر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء ،

(١) السجوف : جمع سجع وهو الشر . واليكل : جمع كله وهي ستر رقيق .

(٢) مضى لطيته : أي لتيته التي اتواها .

إلى حان للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم ، وجلسوا وجلسنا في صفوفهم ، وأرانا
 للسكان حومةً وغى احتدمَ وطيسه ، وميدانَ حرب اصطدم خيسه ^(١) ، هجاجتهُ الدخان ،
 وممارسهُ الدنان ، وسلاحهُ الأباريق والأقداح ، ودروعهُ الغلالة والوشاح ، ونيلهُ أصم
 القوارير ^(٢) ، وطبولهُ توقيع العيذان والمزامير ، ومغافرهُ العصائب والآكاليب ^(٣) ،
 وأعلامهُ المآزر والناديل ، وقوادهُ وشجمنهُ ، وقوادهُ وغلانته ، وكان منصة الرقص في
 حصنهُ الحصين ، وصاحبُ الحان هو قائد الكمين ، وكان للفنين هم السكاة والأقران ،
 والراقصات الحماة والفرسان .

أولاتُ الظلم ^(٤) جئنَ بشرٌ ظلمَ وقد واجهنَّنا مُتظلمات
 فوارسُ فتنةٍ أعلامُ غىَ لقيتكِ بالأساوِرِ مُعلَّات
 وترى كل ذات ثدي حاسر بارز ، تنادى : هل مِنّ منازل أو مبارز ؟ ثم تبخر
 وتجول ، وتخطر وتصول ، فتزري كل طامع في وصالها ، بسهام الاحاظ ونصالها ، ثم تشر
 بها الدنان تارة فتسيل بدم العُقار ، وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النُضار :
 وقد أغمَدَنَ في أزرٍ ولكن سيوف لحاظنَ تَجَرَّدات
 قدَحَنَ زنادَ شوقٍ من زُئود بنارٍ حُلِيمٍ مُتوقدات
 وترى في وسط تلك المعركة ، من كل هَلُوكٍ مُهْلِكَةٌ ^(٥) ، تنساب في حلة رقصها وتسمى
 كأنها حية في قيصرها أو أفعى ، لعاب الأفاعى القاتلات لُمُأْبها ، وأنياب الأسود الضاربات
 أنيابها ، تنفث السم رائحة ، وتنش غادية ، وإن رأيتها شادنةً وسَمَمَها شادية ، فترى
 القوم فيها صرعى كأنهم أهجارٌ نخلٍ خاوية .

قال عيسى بن هشام : ولما طال جلوسنا ، وضائق أنفاسنا ، وكاد يُغمى علينا من
 كربة الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من أكنافه : رائحة عَكَر الخمر ،
 ورائحة عَرَق الأبدان ، ورائحة زيت المصابيح ، ورائحة الدخان والحشيش ، ورائحة أنفاس

(١) الجيش : الجيش (٢) صامة القارورة : سداها .

(٣) المغر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٤) الظلم : ماء الأسنان وبريقها .

(٥) الهلوك : الفاجرة .

المخمرين ، ورائحة تلك المراحيض التي لم يدخلها ماء ، ورائحة الأرض التي تسقى بالأفذار ولم تسطع فيها شمس ولم يتغير عليها هواء ، فإذا امتزجت هذه الروائح بعضها ببعض ، انعدمت منها في جو المسكان سحابة سوداء تملأ الأدواء ، وتساقط الأوباء ، فتسندشها الأنوف ، وتقتصها الرئات ، وتصوى بها الأجسام ، وتتضاءل منها ذبالات المصابيح تضاًؤها في أحواف المنازل وبطون الكهوف . وكاد الباشا يحنق ، وهم به الغشيان ، فهم بالقيام ، نأسكت به وقت له :

(عيسى بن هشام) — أصر مثلى على هذا المقام ، ولم أشهد في عمرى معركة ، ولم أخضر معمرة ، ثم يجزع منه مثلك ، وقد مارست الحروب ، وشاهدت الوقائع تحت سحاب العجاج ، وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى ، لا تبالي برائحة الجيفة ، ولا برائحة الدم مزوجاً بصدا الحديد ؟

(الباشا) — لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والقلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح ، ولم أشتق تلك الروائح منحصرة كالمحصارها في هذا المكان ، ومع ذلك أنجلد تلك لابقاء به كيلا يفوتنا شيء مما نحن بصدد من بداية الأمر إلى نهايته .

وبينما نحن كذلك إذا بصديق لى دنا منى قسماً على وأظهر لى تعجبه من دخولى هذا الحقل ، فأظهرت له تعجبي من دخوله أيضاً ، فأجابنى بقوله :

(الصديق) — إن السبب في دخولى هنا هو البحث عن رجل أحتال على فى بعض الشؤون ثم غلب عن نظرى ، وأنا أعلم أنه يأوى إلى مثل هذا المكان ، فدخلته على كره منى بعد أن حرمت على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد ، وحكم الضرورة مطاع ، ولكن قل أنت ما الذى جاء بك إلى هذا الوكر ، وكر الأفاعى ، وأدخلك فى هذا المش ، من الشيطان ؟

(عيسى بن هشام) — أدخلنا فيه حب الاستطلاع والاستكشاف عن الأخلاق والمعادات ، ولكننى فيه غريب لا أفتق كثيراً مما أرى ، والحمد لله الذى سخره لنا فى هذه الساعة ، لتبين لنا ما غمض وتبدى لنا ما يخفى .

(الصديق) — لك ذلك متى وفوق ما تريد .

قال عيسى بن هشام : وجلس الصديق معنا يحدثننا ويرشدنا ، ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر في هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكرأً ، فاخترق صفوف الجالسين ، وقد سكنت ضوضاؤهم ، وهذأت حركاتهم ، لسماع الفناء من إحدى القيان البارعات فيه ، فاعناقهم نحوها مشرقة ، وأبصارهم إليها شاحصة ، كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران في سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى ، حتى وصل إلى منصة الرقص والفناء ، فضرب عليها مراراً بعضاً في يده ، ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب المدول عن الفناء إلى الرقص ، فلم يسموا لندائه ، فالتفت إلى زمرة من الجالسين ، وطلب منهم مساعدته على غرضه ، فنادوا معه : الرقص الرقص ، ونادى الراغبون في السماع : الفناء الفناء ، فانبرى لهم السكران بهزاً بذوقهم ، ويسفهمهم في سوء اختيارهم ، فأجابه سفيه منهم على سفاهته ، فهجم عليه السكران بعصاه ، فقفز صاحب الحان من مكانه إلى السكران فأخذ بتلايبه . ويقوم طالب الفناء حينئذ من مكانه ، فيشيع السكران ضرباً وصفماً ، فيتعلق السكران بمخناقه وينادي : البوليس البوليس ، فيجتمع غلمان الحان يجرّونه إلى الخارج ، وهو تمسك بعنق الضارب له لا يخليه ، حتى إذا صاروا إلى الباب أدركهم جندي البوليس ، وقبض على المتضاربين ، فيتعرض له صاحب الحان ، ويمتنعه من القبض على الضارب ، ويقول له : ليس لك إلا أن تأخذ هذا السكران وحده ، فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكرأً من الخارج يريد في محلنا ، وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للاضرار بنا ، وإحداث الفشل في محلنا ، فيأبى الجندي إلا أن يسوق المتضاربين معاً ، فيفمره صاحب الحان ليلين له فيبقره أحد غلماننا قائلاً له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندي من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه ، فإن حضرة معاول القسم جالس عندنا داخل « البار » مع صاحبه .

(صاحب الحان) للجندي — لم يبق لك من وجه لسحبهما إلى القسم ، وتعالوا بدخول جميعاً عند حضرة المعاول في « البار » .

(الجندي) — هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك ، وكيف يكون
 حضرة المعاون موجوداً الآن في « البار » والنوبة عليه الليلة في القسم !
 (صاحب الحان) — ما عليك إلا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك ، فيجيب
 الجندي صاحب الحان إلى ذلك ، فيدخل قيرى المعاون جالساً بجانب صاحبه خالماً رداءه
 على كتفيه وطر بوشه على رأسها ، وهو يستقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها .
 (صاحب الحان) للمعاون — لقد تعطل الحل يا حضرة الأفندي في هذه الليلة ، وتعطيله
 لا يرضيك ، فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً ، فعربد بين
 الجالسين ، وأخلّ بنظام الاجتماع ، ثم تعدى على هذا البك بالشتم والضرب ، وهو من
 أجلّ المترددين على الحل ، والغريب أن جندي البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمم
 على سجنه مع ذلك التعدى إلى القسم ، وهو من أبناء السكرام ، ولا يليق بكرامته أن
 يساق مع هذا السكران إلى المحاكمة .

(المعاون) للجندي بعد أن يلبس طر بوشه — ما هذا الذي أسمه ؟
 (الجندي) رافعاً يده بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم هنا ، والأمر إليكم .
 (المعاون) للجندي — إذا كان الرجل السكران في حالة سكر بين ، نغذه وحده إلى
 القسم ، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجه ، فلا لزوم لذهابه
 منك ، ويكفى أن حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً إلى القسم لأخذ شهادته على
 هذا السكران .

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندي) .
 (الجندي) — إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجه
 فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة ، والأيام يمتنا .
 (صاحب الحان) — أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك في دوام الرعاية بك .
 قال عيسى بن هشام : وخرج السكران أمام الجندي مدفوعاً في ظهره ، يقع ويقوم ،
 ويستمدى ويستعجد . وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجري فيه ، فإذا صاحب الحان ومعه

الملك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوس تغدو عليهم وتروح ، جلسنا ناحية نستمتع لهم ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون — لماذا أوعزت إلى صاحبك بالقيام عند جلوسنا معك ؟

(المعاون) — أنا لم أوعز إليها بشيء ، ولكنها هي التي قامت مفضبة .

(صاحب الحان) — ولأى سبب أغضبتها ؟

(المعاون) — لم آت سبباً يغضبها ، بل هي التي افتحلت سبباً كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً .

(صاحب الحان) — لاشك أن ما حصل هو من باب الدلال دون سواه ، وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما .

(المعاون) — لا دخل للدلال هنا ، ولكن جرى في أمر حضرة الملك والسكران ما هو ، على خلاف هواها ، فاتها كانت ترغب في التضييق على الأول والتفريق عن الثاني ، لأن حضرة الملك هو من أكبر أصحاب الغنى ، والمغنى من الد أعدائها .

(صاحب الحان) — لقد حرت في أمر هذه الفتاة ، فإن ضروب حماقتها لا حد لها ، وفي كل ليلة تأتيني بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه ما لا يعوض من خسارتي ، ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لما أبقيتها في الحل يوماً واحداً ، ولا كابدت إعطاءها في كل شهر مقدار ما يأخذها وكيل المديرية مرتباً من الحكومة ، ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة تساقها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك وانكساراً على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها .

(المعاون) — نعم إن حماقتها عظيمة ، وطالما شددت عليها لتجتنب المنازعات والاشاجرات حتى لا يقال إن علاقتها بي هي التي تجرئها على ارتكاب ذلك ، ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح .

(صاحب الحان) — صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً .

(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهاءها من الغناء ، فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من

حضرة البك صاحبها عاتم عليه أمر الخاصة مع السكران ، فيقول لها) :

(البك) — أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني ، وفي غاية التكدر لما وقع له من قلانة بسببي ، فانها احتاجت غضباً لما علمت بمساعدته لي ، وهي تبغضني لملاقتي بك ، فبحياتي عليك إلا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وإزالة ما في النفوس ، فتعود راضية على حضرة المعاون ، ويتم الصفو لنا جميعاً .

(صاحب الحان) — أنا أوافق على هذا الرأي .

(المعاون) — وأنا لا أرفضه .

(البك) — وأنا أرسل في طلبها .

قال عيسى بن هشام : وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه ، فتشتمل جذوة نار من الغضب ، وتقلب لبوة هاجت لفقد أشبالها ، فتشتم وتب وتنفذ وتلمن وتنفل وتبصق ، وتنفض على المغنية فتأخذ بهرقمها فتزِيلها من مكانها ، وتلتفت إلى المعاون فتتوعدده بالشكاية والظلم فيه لدى رؤسائه ، ثم إلى صاحب الحان فتتهدده بأنها لا ترقص في إيلتها ، فلا يسمع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة ، فيجرها إلى خارج البار بالقوة لئتمكن المعاون أن يتسلل هارباً ، ثم أخذ ينصحها ويحذرها ، ويقول لها : إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن ، وقلبه مملوء منك حقدًا وغيظًا ، فإذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدي إلى المنصة للرقص أوعزت إلى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك إلى القسم ، والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب ، والمعاون هناك ينتظرك لتشفي منك .

قال عيسى بن هشام : فوقع هذا القول منها وقع الماء في النار ، وإنذار الحيز على أهل الدار ، فهدأ جاشها ، وسكن طيشها ، وصعدت للرقص على منصتها ، تغاوة من حسرتها وغصتها . وعدنا للجلوس أمام الميدان ، ننظر ما يكون من الغلبة والخسران .

قال عيسى بن هشام : جاء دور الرقص ، فضجت الغوغاء ، واشتدت الضوضاء ، وامتدت الأعناق بالصقير والنعيق ، واشتغلت الأكف بالتصفيق ، ترحيباً وتأهيلاً ،

وتكبيراً وتهليلاً ، إذ قامت على المنصة هلوك ورّها^(١) ، عشاء مرّها^(٢) فطساء قوّها^(٣) ،
عجفاء شوها^(٤) مزججة الحاجبين ، محمّرة الخدين ، مبيضة الساعدين ، مخضبة اليدين ،
قد ألبست وجهها من الطلاء نقاباً ، وأسدت على أطرافها من الدهان ثياباً ، بأصباغ شتى
وألوان ، بين أبيض ناصع ، وأسود فاحم ، وأحمر قان ، تملّون تلون الحرباء ، في غير
البيداء ، وقد وارت ما تعرض من جسمها ، وتعرّى من لحمها ، بأنواع العقود والقلائد ،
والأساور والمخاضد ، والدمايلج والجلالجل ، والمناطق والخلاخل ، فأخذت في الرقص
والهجلان ، على توقيع الضروب والألحان ، وبجانها خادم ما شككتنا من قبح هيئته ،
أنه إبليس اللعين في طلمته ، رُكبت منه أقبح هامة ، على أسوأ قامة ، بوجه قد قد من
الصخر ، وعين كعين الصقر ، وأنف كمنسر النسر ، وفم يرمي بالزبد كالبحر ، وشفة
مهدولة ، وعمامة مجدولة ، وفي يمينه قدح وإبريق ، يسقيها منه بكأس من حريق ،
لا بكأس من رحيق ، وإعاطيها من غسيلين أو قطران^(٥) ، ويجرعها من حميم آن ، وكما
أترع لها كأساً ، همست في أذنة همساً ، ثم تشير بطرف السكف ، إلى بعض الجالوس في
أول صف ، فيصيح اللعين صيحة الأسد في عريسته^(٦) ، وقّع بصره على فريسته ، فيجيبه
غلام الحان جذلاً وابتهاجاً ، ويأتيه بالزجاجات أزواجاً ، فيفيض عنها الفدام ، ويصفقها
أمامها تحت الأقدام ، ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب ، وهي تشرب وتطلب ، لا تكنفي
ولا تنقع ، ولا تروى ولا تنقع ، كأنما يمتح لها من قلب^(٧) ، ويصب في وادٍ جديب ،
أو يملأ من ماء منبثق ، ويقرغ في دنٍ منخرق ، فإذا دبّت في عروقها نمل الحر ،
واشتعلت في جوفها اشتعال الحجر ، جدّت في لعبها ودورانها ، واشتدّت في قفرها وجولانها ،
وتلوّت كالحية في طرّقها ، ولعبت كالسلحفاة بعنقها ، والخادم أمامها يغازلها وتنازله ،
ويغازلها وتنازله ، ويراقصها وترافقه ، ويقارصها وتقارصه ، وهي ترسل على الحاضرين
أقوالاً بذئنة ، وتخطبهم بألفاظ قبيحة رديئة ، فتفتّر لها الثغور ، وتنتشر الصدور ، ليس

(٢) المرّها : التي ايضت بواطن أجفانها

(٤) العجفاء : المهزولة

(٥) القليل : ما يسيل من جلود أهل النار

(٦) القلب : البئر

(١) الرّها : الحفاء

(٣) العجفاء : المهزولة

(٥) العريسة : بيت الأسد

(٦) القلب : البئر

فيهم إلا كل مستحسن مستزيد ، ومستبسلح مستعيد ، إلى أن تخور قواها ، وتغور
عينها ، وتقلص شفتاها ، ويكلج شداها ، وينضح العرق من أطرافها وتراقبها ، ويمقد
الزبد بنحرها وفيها ، فتضطر إلى إزالته ، وتعد لإزاحته ، فتتناول المنديل تمسح به من
وجهها وذراعها ، فيتلون بأشكال الصبغة وأنواعها ، فيعدو المنديل كأنه قوس قزح ، بما
نصب من أديمها وارتشح ، وينكشف التويبه والتليس ، ويفتضح التلغيق والتدليس ،
فيظهر ما بطن ، ويبرز ما كن ، وتقلب إلى صورة سحابة ، تترامى في سراب فلاة ،
أو غول ، تكشر وتصول ، أو دب ، يهتز ويدب ، فحوّنا عنها الوجوه استنكافاً
واستنكاراً ، ولوينا الأعناق استقباحاً واستقذاراً ؛ ومال الباشا على الصديق يسأله في
دهشته ، ويقول له في نغرتة : أعلى مثل هذه تذوب القلوب ، وتنشق المرائر والجيوب ؟
وهل وصل العنى بالناس إلى هذا الحد ، ولم يبق فيهم تمييز للفرال من القرد ؟

(الصديق) — نعم إن هذه — التي تهرب منها الوحوش لفظاعتها ، ويتمود منها الشيطان
لدمامتها — هي عند هؤلاء الحاضرين دمية القصر ، وفريضة العصر ، كم ذهبت بأموال ،
وأودت بأرواح ، وكم أضاعت شرفاً ، وأزالت مجداً ، وأذلت رقاباً ، وأفسدت حكماً ،
وكم فرقت بين المرء وزوجه ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألهبت العداوة بين الأخ
وأخيه ، وكم خربت بيوتاً عامرة ، ودنست أنساباً طاهرة ، وكم بذرت للشر أسباباً ، وفتحت
للسجون أبواباً ، وهؤلاء الذين تراهم جلوساً في هذا المستنقع الوبيء ، والمرعى الويل ، يقضون
نيه ليالى الشهر تبعاً ، وشهور العام ردافاً ، لا تتوهمهم من أسافل القوم ، ولا من أدنياء
الناس ، بل فيهم الكبير والأمير ، والسرى والوجيه ، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس
بين إخوانه جلسة الكبرياء ، فهو أحد أبناء الأمراء ، مات أبوه وترك له أموالاً لجة ، فالتف
حواله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ ، فبدأ في تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول
السومة ، والمركبات المطهمة ، ثم تنقّى بالإسراف الفاحش في مهرجان زواجه ، ثم ثلث
بسلیم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر ، وأخشن هذه اللعناء التي لم يبق له منها إلا
التمتع بالنظر ، وهي لا تنظر إليه ، ولا تسأل عنه ، بعد أن استفرغت أمواله ؛ وانظر عن

شمالك إلى هذا الجالس الذي يقتل شاربيه ، ويحملك بعينيه ، ويفزع بحاجبيه ، فهو من أبناء الكبراء أيضاً ، ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ، ولم يمتص على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعها في محالب هذه الخداعة الغرارة ، فهو لا يصبر عنها ، ولا يقطع الحجب إليها في كل ليلة ، وهي تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل ، وما كان لأمه من حلى وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المكان ؛ وانظر أمامك إلى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبعجلاً ، فهو من كبار الحكام في الأرياف ، وقع في أشراك هذه المرأة ، فكادت لفتاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه ، وتستقطعه عن منصبه ، وهو مع ذلك لا يسلوها ، ولا يلهو عنها ، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ، ومرفقها ملهى ، فإذا هو عاد إلى مقر وظيفته عاد بغير له ، فيسمى في استقواء العمد والأعيان لاقامة الولائم والحفلات ، واستئجار هذه الراقصة لأحياء لياليها ؛ وانظر إلى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ، ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته ، فهو من أعيان البلد ، لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه النಾಯية ، فأخذ يبذل عندها في شيخوخته ما كان جمعه في شببته .

(الباشا) — لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء ، لقلنا الهوى في الناس دائم قديم ، والولوع بالحسن أمرٌ بدريه ، والعذر غير مدوم ، ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان ، والهروب منها مندوب إليه ، فهل تعلم لذلك من سبب خفي ؟

(الصديق) — السبب فيه حبُّ التباهي والتفاخر والأثرة والاختصاص ، وقد اشتهرت هذه البغى باتقان الرقص والتفرد فيه ، وأنفسُ الجهلاء مومة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عُمرى النواظر ، عُمرى البصائر ، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهرة في قنبا ، وإن قُبِحَ منظرها ، وساء مخبرها ، هو الفخر كل الفخر والسبق كل سبق ، وهم يحبون على الحكاية والتقليد ، فلذلك تفذ فيهم سهمها ، وسرى في عروقهم سمها .

(الباشا) — إن كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ، ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم ، أفلا كان هناك من سلطان يرعهم ، وحكم يكف الأذى عنهم ؟

(الصديق) — لا واعظ ولا ناصح ، ولا سلطان ولا وازع ، وقل ينفنا من يشغل للناس في نفع الناس .

قال عيسى بن هشام : وانتهت الراقصة من رقصها ، فدخلت حجرة لتغيير اباها ، وإصلاح ما فسد من حالها ، ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها ، وسارت تتكسر في مشيتها بين الجوع وهم يرمقونها رملق الشهوة ، ويتطلعون إليها تطلع البهيمة ، فتزحزحت لها المجانس ، وحلت لها الحبي ، وأعد لها كل فريق كرسيا بجانبه ، وتناثرت عليها الاشارات بالتفضل بالجلوس ، فلم تعبأ بشيء من ذلك ، ولم تلفت إليه ، واستمرت في تكسر هاوتها ديها ، حتى وصلت إلى مقام صاحب الحان ، فوقفت معه ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة ، وجاء خادما في عقبها ، فاستوقفه إليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف ، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ، ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعا في يده ، فانصرف الخادم إلى الراقصة مكلمها وأشار بيده إلى الحاكم يستمعها له ويستدعيها إلى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الإباء والرفض في أول الأمر ، ثم انتهت بها لاجئة الخادم إلى الرضاء والقبول ، فقصدت مجلس الحاكم وقصدت الخادم غلام الحان ، فما جلست حتى كان القلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجات من الشبانيا ، فبزلها كلها عيظه (١) ، فقارت وفاضت ، وانتشرت كلها حببا ، والقلام متلاها عنها لا يسرع الإملاء منها ، حتى إذا لم يبق منها مقدار صباية (٢) صبها الخبيث في الأقداح وقدمها للفاجرة ، فبادرت إلى لمس كل كأس لمسة يدها وفيها ؛ ثم يعود القلام بمد هنيئة لأخذ الزجاجات الفارغة ، فتأمره بإحضار سواها ، وهكذا يتوالى الحال في طلب الأدوار ، حتى يبلغ إلى الدور الخامس في مدة يسيرة ، وجميع الجالسين لا يتمحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجما أو يرقبون هلالا ؛ ولما انقطع ورود الزجاجات ، التفت العاهرة إلى خادما وهو على بعد منها ، فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة ، وبطرف لسانه أخرى فهتت بالقيام ، فأمسك الحاكم بأذيالها ، فصغته صغمة مزاح على قفاه ، بعد أن لعنت أمه وأباه ، استرضاء له

(٢) الصباية : البقية في الأناء

(١) بزل الحمر : ثقب إناءها ، والميزل : المنقب

عن تركها إياه ، فحشّ وبشّ اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة ،
وتمكن الألفة ، ونسلّ من حضرته إلى حيث أشار الخادم ، فتهدّط على الفتاة التي عن
يميننا ، وفيها ذلك الشاب الذي أفنى في حبها ماله وأضاع في هواها شرفه ، غناطته بلسان
اللوم والعدل ، تسأله لأيّ سبب دعاها ، ولأجل أية علة ألقها من مكانها ، فيتلعثم
المسكين ، ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها ، فإن المحامي أخبره بنجاح قضيتها ،
فتبسّم له قليلاً ، ثم تلتفت عنه إلى سواء ، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس
معه لحظة ليقصّ عليها تفصيل الخبر ، فتتفر منه ، فيرميها بسوء الوفاء ، وخيانة العشرة ،
ويمكّتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء ، وما أتلفه في معاشرتها من نضار
وعقار ، فتناطسه على وجهه لكمة العلم المؤدّب ، وتجلس إلى جانبه ، وتسأله أن يدع عنه ذكر
تلك الليالي ، والأيام الخوالي ، وأن يحفظ عنها « قصة الأضراس » في باب الاعتبار ،
وروت له هذه القصة التي هي عندهنّ عماد الصنعة وأساس الفن : « زعموا أن فتى كان يهوى
فتاة وتهاوى ، فمأشاً تحت جناح الحب زمناً سعيداً ، ثم طرأ على الفتى سفرٌ بعده عنها في
طلب المال ، وجاءت ساعة الوداع ، فأنهملت العبرات ، وتواتت الزفّرات ، وأقسمت له
بأن العيش لا يطيب لها من بعده ، وأن الموت أهون عليهما من بعده ، وسألته أن يبقى
عندها أثراً منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين ، وتشم منه ريحاً وقت هيام الذكرى ،
فقال لها سأترك لك بضعة منى ، وانتزع لك أثراً من بين حلمى ودعى ، ثم عمد بيده إلى فيه
فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع ، وناولها إياه يقطر
بالدم ، فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلاً ، ووضعته في حقة نديسة . وسافر الفتى سفره
ومضت عليه الأيام والليالي ، ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم يفز بطالبته ، رقيق
الحال ضعيف الركن ، فذهب إلى دار صاحبتة ، وقد أضناه الشوق ، وبراه النوى ، فلما
طرق الباب ولحنته من النافذة تنكرت له وأنكرته ، فناداها أنا فلان فاسمحي لي بالدخول ،
قالت له : ومن فلان فإني لا أعرفه ؟ قال لها : خليلك وحبيبك ، صاحب العهد الوثيق
والعشرة الطويلة ، قالت له : كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت ؟ قال لها : أنا صاحب

الضرس ، قالت : أولئك ضرس عندي ؟ قال : نعم ، قالت : فادخل ، فدخل . فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس ، وقالت له : دونك ، إن كنت تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس ، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس . ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس إلى مجلس ذلك الشيخ الوجيه ، فيقوم لتحييتها واقفاً ، ويؤدي لها نواجذهُ مهللاً ، فتجلس معه وغلام الحان قوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات ، فلا تلفت إليه ، فيديم الوقوف ، فتأمره بالانصراف ، فيعود خائباً ، وتقول للشيخ : إنها لا تريد أن تحمله في جها مغرمأ ، ولا تقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلمهم اصحاب الحان ، فيخرج الوجيه من حزامه عقداً يتلألاً فيضمه بين يديها ، فتبسم له وتنعطف إليه وتقيم عنده مدة مضاحكة ومغازلة ، ثم تقوم لتنصب على سواه شبا كها وترمي اصيد القلوب أشرا كها .

نَحْيِي وَجُوهَ الشَّرْبِ فَعَلَ مُسْلِمٌ^(١)

يُضاحِكُهُ وَالْكَيْدُ كَيْدُ مُحَارِبٍ

قال عيسى بن هشام : وأقننا نتأمل في أفعال هذه البغي الفاجرة ، ونفكر في أفعال هذه الخداعة الماكرة ، ونعجب كيف يقندر مثلها على خذل الرجال ، قترمهم في مهابى القواية والضلال ، وهى عارية من ثوب الجلال ، مجرّدة عن جميع المزايا والخصال ، مفرغة فى قالب الوقاحة ، معجونة من حمأة الدمامة والقهاحة ، وما زالت الفاجرة تنقلب بين الجالسين وتنقل ، وتتجول بين الصفوف وتتحوّل ، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو ، وتنفى آونة ثم تبدو ، منطلقةً اللسان بالسب والثلب ، منبسطة اليد بالنهب والسلب ، ممتدة الكف بالالطم والضرب ، دائبةً فى التكب والشرب ، وهى فى تفعلها تقطب تارة وتتجهّم ، وتفتّر تارة وتتبسّم ، وتنسبط حيناً وتنقبض ، وترضى ساعة ثم تمتعض ، وتعامل كلّ إنسان بما يلائمه ، وتجري معه على ما يوائمه ، فتضلّ الألباب والنمى ، ويقع الجميع فى أسر الهوى ، وآية جها وميلها ، أن تصفع الصبّ بنعلها ، فإذا أضافت إلى الضرب بالنعال ، شقّ القباء ونشّف السبال^(٢) ، كان فى ذلك بلوغ الآمال ، بدنو ساعة الوصال ، واستوى المضروب

(١) القرب : جمع شارب الخمر . (٢) السبال : مقدم اللحية .

يفخر أصحابه وخلائه ، ويباهى أُنْداده وأقرانه ، كالظافر في ساحة العلمان والضراب ،
والفائر بالفتائم والأسلاب : فيعالي في إظهار الابتهاج والانتعاش ، وتنبسط يده في الكيس
ويدها في الكأس ، والعلام على رأسه بالآنية ، يصب لها زجاجة كل ثانية ، وهي تصب
الكؤوس في الهاوية ، كأن حلقها قناة وكأن الساق ساقية ، وحانت منها التفاتة إلى
الخليع وصاحبيه ، فإذا العدة يشير بيديه ، ويفزع بحاجبيه ، ويقول للخليع في اشتماله
والتهابه ، ويخاطبه في ارتباك واضطرابه :

(العدة) للخليع — لقد أسعدنا الجد ، وحلت لدينا عاقبة الصبر ، واثن فائنا الأنس
بالغائب ، فما أكل أنسا بالحاضر ، وهذه الراقة التي اجتمعت على محبتها القلوب ، واقتنت
بها العقول ، هي عندى الفضالة المنشودة ، والأمنية المطالوبة ، ومن يبلغنا إياها سواك ، ومن
علينا بها غيرك ؟

(الخليع) — هذه هي الفتاة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب ، ولا عيب فيها غير
المزاحمة عليها ، والمورد العذب كثير الزحام ، والوصول إليها من دونه أهوال .
وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوم أتعبتك النفس — انظر
رأيت الذى لا كلمة أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
(التاجر) — نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة ، فاز من حازها ، وخسر من
فاتها ، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء ، لصبا إليها القلب وولمت بها النفس ، ولكن
لرب الميل ما يشغل عنها ويبعد عنها .

(العدة) — ليس يفوتنا على كل حال أن نتمتع بها الليلة بالجماسة والمغازلة ، ونروى
بمحادثتها الخليل ، ونشفي بكلامها الهيام .

(الخليع) — حبذا لو جلست معنا ساعة ، ولكنت ترى من المزاحمة فيها والمنافسة
بين الحاضرين في الغرام بها والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متمسراً ، ودرك
الطلب متمذراً

(العدة) — أما المزاحمة عليها ، فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول
إليها ، وأما المنافسة في الغرم عليها فالأمر مستدرك والدراهم موجودة .

(التاجر) — ما أشكُّ بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر ، وستنتهي ليلتنا بمك الختام .

قال عيسى بن هشام : ويدعو الخليل خادم المرأة ويهمّ بإعطائه شيئاً من الدراهم ، فيسابقه التاجر ، فيمنعهما المدة ويقوم مقامهما ، فيبقى الخليل في أذن الخادم قولاً ، ويطول الخطاب بينهما همساً ، ثم يذهب الخادم ، فيعود بمولاته تيمناً دلالاً ، وتثنى اختيلاً ، وتهدى الرضا من خلال النخع ، فتسلم على أهل المجلس ، وتخص الخليل بابتسامة ، وتجلس بجانبه ، وتساله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس ، فيقطع عليها هذا الحديث بالتهقئة ، ثم يبدأ بمقد التعارف بينها وبين المدة ، ويطنب لها في علو شأنه ورقعة مقامه ، فترحب به ، فيرفع المدة يده إلى رأسه مراراً تشكراً لها ، فتلمح فص الخاتم يتألق في إصبعه ويتوهج ، فتضع يمينها في يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر ، فيسيل الرجل طرباً وابتهاجاً ، ويعتقد أنها كلت به حياً وغراماً ، فلا يروعه إلا أصوات الأسمدة ينزعها الغلام عن الزجاجات تبعاً ، وكلما أفرغ أرباعاً عاد بأربع ، حتى هال التاجر من ذلك ما هاله ، فمال إلى الخليل يناجيه ، فسكن الخليل من روعه ، وأزال الهواجس عنه ، فيميل التاجر إلى الأفراح يسكب ويشرب ، وإلى المرأة يهازل ويغازل ، ويعاطي ويناول ، والمدة على حاله باهت شاخص ، ومولع موله ، والخليل مسرور مبتج ، لا يرسل السكاس عن فيه ، إلا ممسكاً بأخيه ، والمرأة تكدع وتكيد ، وتقول للغلام : هل من مزيد ؟ ثم يخرج المدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر إليها بالحديث ، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له : قد آن أوان الانصراف ، وحانت ساعة الختام ، وتقوم مودعة ، فيتلهف المدة ويتحسر ، ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف في مجلس آخر ، فتضحك له ضحكة القبول ، وتلطم الخليل بالمروحة على خدّه ، وتناديهم إلى صاحب الحان فتجلس معه ؛ ويأخذ الناس في الانصراف ، والخادم في رفع الكراسي ، وإغلاق بعض الأبواب ، ولا يبقى في المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة : ذلك الحاكم الواقف ، وذلك الغلام الوارث ، وذلك الشيخ المتصابي ، وهذا المدة الغرور بتاجره وخليمه ؛ فإذا طال عليهم

الانتظار، وبئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف، يصحبهم الهم ويرافقهم الكدر إلا العمدة فإنه يلح في الانتظار أشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر.

سُكران: سكرٌ هوى وسكرٌ مُدَامَةٌ ومضى يُفِيقُ فَنَى به سُكران! ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الخان، وهو يتمتر في مشيته، ويحمر في عيانه، فيقف بين يديها يستنجزها الوعد، فتغضى عنه، فيلح عليها، فتلجج في الإعراض، فيخرج من جيبه كيس الدراع ويبسط به راحته راجياً متضرعاً، فتظهر له الجفوة، فتشده به الصبوة، فيترامى عليها، فتدفعه برجلها عنها، فيقع على الأرض، فينثر ما في الكيس، فيعمد الخليلع لالتقاطه، فيسبغه إليه صاحب الخان، ويتأثر العمدة واقفاً، فيمد يده إلى المرأة فيأخذ بصفيرتيها يجذبها نحوه، فتسبه وتلعنه، وتمسك بصاحب الخان، ويستمر العمدة في الشدة والجذب، فتخونه الضفيريّتان، فيترامى على ظهره طريحاً وهما في يده، والمرأة باقية في مكانها تصبح وتستهين، فينقض من أقصى المكان رجل رث الهيئة قبيح الطلعة، وسخ العمامة، يرفع في يمينه هراوة، ويتأبط في شماله صرة ثياب، فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة، ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالصفيرتين، ويتوسط بينهما التاجر، فيسأل الرجل عما يعميه في الأمر، فيقول له إنه زوج المرأة، وإنه يدافع عن حريمه، ولا يرجع عن غريمه، فيتعرض له التاجر يتمعه عن الفتك بصاحبه، فينصحه الخليلع بالرجوع عنه، لأن الرجل من أهل «الحماية»، وفي التعرض له إلقاء باليد إلى التهلكة، فإنه فوق القانون يجني ولا عقوبة عليه؛ فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليلع لينقذه من بلائه، فيتقدم الخليلع، فيكلم الزوج طوراً، والخليلة تارة، وصاحب الخان أخرى، فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الخان من دراهمه، مرضاة للمرأة عن إهانتها، وعوضاً لها عن خسارة الضفيريّتين؛ ثم يقوم صاحب الخان وينادي غلامه وهو مشغول بإطعام الأنوار، فيسأل عن حساب العمدة فيكونته له، فيلتمت إلى العمدة قائلاً:

(صاحب الحان) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيناً ممن المشروب ، وانظر ماذا تعطينا من العوض في تعطيل الحل بهذه الأفعال الصبائية .

(العمدة) — ما هذه الحسبة ، وما هذا الكلام ؟

(صاحب الحان) — أما الحسبة فصحيحة ، وأما ما أتيت به فإنه لا يليق بمقامك ، وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ، ولكنها الخمر أم الشرور ، وإن خالها الشارب أم السرور ، وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها عن أهل التناقص فيها ، والنساء غيرها كثيرات في الحل ، وإن كان لابد لك منها ، فأنا أسعى في الصلح بينكما عند تشريفك الحل في الليلة الآتية ، وأرجو أن لا تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة ، فإني لا أرضى لك الإهانة ، ولا ترضى لنفسك الفضيحة .

(العمدة) للتاجر — هل عندك ما تسد به هذا المبلغ ؟

(التاجر) — لا وحق العشرة وحرمة الصحبة ، فلم يبق معي من الدراهم لاقيل ولا كثير .

(العمدة) للخليع — دبرني يا صديق في أمري ، وانظر لي طريقة الخلاص .

(الخليع) — يمز على والله ما نحن فيه ، ولكن عزت الحيلة ، ولو كان صاحب الحان يقبل مني ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها عنده ، ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ، ولو كان في الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت .

(العمدة) — إن كان الأمر يتقضى بالرهن ، فهذه ساعتى أئمن من ساعتك ، وهي عندي أعز على من روى ، لأنني أخذتها هدية من دائرة « البرنيسيس » يوم بعث لها أطيانها ، وعليها حروف اسمها منقوشة ، وقد قدرها لي الجوهري بخمسين جنيناً .

(الخليع) — إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهناً ، وعندك الخاتم ترهنه مكانها .

(العمدة) — هذا هو الأصوب ، وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة ، فخذها يا حضرة الخواجة رهناً عندك ، حتى أسدد لك المطلوب في القد .

(صاحب الحان) — أنا لا آمن لهذه الفصوص اللعاعة ، فقد غشوني فيها مراراً بإحكام التقليل في صداعتها ، وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصنعة ، ليكشف لي عن حقيقة هذا الفص .

(التاجر) بعد أن يعن في القص — كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه ، وأنا مستعد لرهنه عندي على خمسين جنيها ، فانتظروني ربنا أذهب إلى محل مبيتى وأرجع إليكم بالمبلغ.

(صاحب الحان) مكتهراً — ليس عندي وقت للانتظار ، فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل ، وهذا جندي البوليس واقف أمامنا يتمجاني في مطاوعة أوامر الحكومة . (الجندي) — نعم مضى الميعاد ، ولا بد من الإغلاق حالا ، فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل .

(الخليع) للعمدة — أعطه الساعة ، فلا حول ولا ... وايس هناك ما تخشاه عليها فإننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلني في الصباح بقهوة الموسيقى .

(صاحب الحان) بعد التأمل في الساعة — هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها ، فأتروك الحاتم معها أيضاً .

(العمدة) — هذا لا يصح مطلقاً ، فإن البائع المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيها ، على فرض صحته .

(الخليع) — ما دام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين ، وأنا أرجو الخواجا أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل المحل . (صاحب الحان) — إني أتجاوز عنه لأجلك .

قال عيسى بن هشام : ويشدد جندي البوليس في طلب الإغلاق في الحال ، فلا يسع العمدة إلا التسليم في الحاتم والساعة ؛ وبينما الجميع يتأهبون للخروج ، والمرأة واقفة تهزأ وتسخر ، إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخرين أهرت الشدقين ، فأخذ يحيل في الحاضرين نظره يمينا وشمالاً ، ثم تقدم إلى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكها ، وقال لها : قد فات الوقت ومضى الميعاد ، وأغلقت الحانات ، وأنا قاعد في انتظارك بالبيت ، وأنت واقمة هنا تلعبين وتسخرين ، فأين هذا الصيد الذي ألتاك عني وأنا لك أمرى يا عاهرة؟ فتجيبه مع الذل والاكسار بأنها أخطأت ، ولكن لها العذر ،

فقد وقعتْ حادثة مع بعض العمدة يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع ضفيريّتها ، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة ، فيزجر الرجل ويتوعد ، ويمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب ، فتستعطفه الناجرة ، وتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع في مخاصمة أخرى ، وتطلب منه الإصرار إلى البيت في صحبتها . وخرجنا مع الباشا نتموّد من كيد النساء ، وننأسف على وقوع الرجال في أشراك المكر والدهاء ، وكيف نزل الصبيّ بهم والجبل ، حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل ، ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيّ ، والموطن الرديّ . وقد خرجوا من الثروة والشرف ، ودخلوا في البؤس والتلف ، ونزلت بهم أنواع المرض والسّم ، وحُصِبَ عليهم سوط الأحران والنقم ، ثم التفت الباشا إلى الصديق ، يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) — ألا تخبرني أيها الناقد الخبير ، كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة في هذا مكان ، وكيف يترددون عليه لِماليّ متاعباتٍ ، ولا يدركون ما يدركهم فيه من الخلاك والوبال ، وقد كاد يقضى على الإقامة فيه بضع ساعات ، فما وجار الضمع وما وكر الظربان^(١) ، وما قبر الميت — برحمتنا الله وإياك — بأثنين رائحةً ، ولا أقدر مكاناً ، ولا أسوأ مقاماً من هذا الذي كنا فيه .

(الصديق) — يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ، ويكثرّون من التردد عليه ، بحكم التدرج وإلف العادة وقوة التماذي ، وكأنا أبدأهم تلقّح شيئاً فشيئاً بسمّة ، فلا تحس بضرره وألمه ، كالمرّيض يذهله المُرَقْدُ عن ألم الداء وبتر الأعضاء ، وإن شئتُ فكألهنديّ تدرّج ويرتقي في تناول الأفيون ، وهو مُسمِّ قاتلٌ ، حتى ينتهي بجسمه إلى حالٍ لو أسمعته معها غريبٌ أو لَسَبَتُهُ^(٢) حية لم يؤثّر سُمُّها فيه .

(الباشا) — أقدت بما شرحت ، وقد بقي عليك أن تفسر لي ما أشكل عليّ من أمر رجلين مع العاهرة ، أحدهما الذي يقول إنه زوجها ، والثاني الذي أخذت بيده أمامه إلى بيتها . (الصديق) — أما الزوج ، فإنه رجل من سفلة الغاربه المنتهين إلى دولة أجنبية ، تحميه

(٢) لسبته : لدغته

(١) الظربان : دويبة كالهرة منتنة الرائحة .

من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها ، وهذه المزية هي التي تؤهلها عند الماهرة للتأهل به ، فتدخل حينئذ في حمايته ، وتخرج ببركته عن دائرة المحاكاة والعقوبة إذا أتت في فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة ، ويمش الرجل معها زوجاً بالاسم ، وديوثاً بالفعل ، وذلك في مقابلة شيء من الدراهم يتناوله منها في كل ليلة ، وهذه الطريقة قد تألفها الناس ، ولم تقتصر على المواهر ، بل تعدت إلى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد ، فترى صاحب القضية يتنازل في الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرين من رعيا الدول الأجنبية ، ليخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطة ، إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة ، الذي يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس إلى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل ، يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول عما يُنشر فيها ويطع ، يملؤها بما تسو له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرف الناس ، ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذيء من الكلام ، فاذا عول أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وأرى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبي ، وقال لك : ما دَمَ الأمراء ، ولا هَجَا الأشراف ، ولا طَعَنَ في الناس إلا صاحب الاسم المسؤول ، فعليك به ، فاذا التستة وجدته بائع فعال يصفق بها في عرض الطريق وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يتمتع بمحابتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ، ولا سبيل إلى محاكمته إلا في بيت القنصل .

وأما الرجل الذي سحبت الماهرة بيدها إلى بيتها ، فهو صاحب ودّها ، وحميب قلبها ، تفضله في آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها ، ويبدل نفسه في سبيل رضاها ، ولا تعجب من سوء معاملتها لها ، وسوء غطرسه عليها ، فذلك مما يزيد بها فيه حباً ، ويولمها به شغفاً ، والنفس الدنيئة الخفيفة لا تميل إلا لمن يبادرها بالاهانة والتحقير ، ولا تنقاد إلا لمن يتنازلها بالضر والاذى ، فهو يضر بها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ، ثم يتمتع بها دون المتهاككين عليها ، وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضاري عندها على تلك الدواجن التي تدب حولها .

(الباشا) — لا شك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغي على بغيها في الناس، وسلبها للأموال، وفكها بالأرواح، وقُلْ لِمَثَلِ هذا الجزاء المعجل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة .

(الصدق) — لا تستبين أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهة في دنياها من الجزاء، فإنهم جميعاً في معيشة كلها هموم وأدواء، ومن تأمل في حقيقة أحوالهم خفف من سخطه عليهم، ووجدتهم أحق بالشفقة من القسوة، فإن هذه الأموال التي يهتف بها، والأسلاب التي يسلبها، لا تليث في أيديهم إلا ريثما ينفقها في الخلى والحلل، والعاهة لا تنتهي حاجاتها من الزينة، ولا تخلو من حبيب تكلفه، وخليل تقوم عليه، فهي على الدوام في عسر شديد ودين ثقيل، وإن جميع ما عليها من الخلى والجواهر، وما يتأق في عنقها من القلائد، وفي معصمها من الأساور، وفي رجلها من الخلاخل، إنما هي كلها في الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائع والجوهري في أسر لا فكك لها منه طول الحياة، وهي كما رأيت تقضى أيلها إلى الصباح في شرب السموم من الخمر، وفي تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان، وفي اشتغال الفكر بمراقبة الناس، وتكلف التعجب إليهم، وفي التفتن للتحايل عليهم، ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاضات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان، فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلة الأعضاء، مفككة المفاصل، فترتمى على فراشها كالرمة في مكان هو أقدر من ذلك الحان وأفسد منه هواء، وربما لم تذق في يومها طعاماً، ولم تتناول في ليلها غذاء، فإذا قامت من نومها بعد نصف النهار، كالذي يخطئه الشيطان، مصدعة مخمورة لا تشتهي طعاماً، ولا تسيف شراباً، حتى إذا تماسكت قليلاً بادرت إلى إصلاح الفاسد منها، ومدارة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس، وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء، فتعود لما كانت عليه .

لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوصب، ولا خلاص لها منها إلا بحلول الأمراض والأوجاع، ثم يُقضى عليها وهي في المعصية بعيدة، عن ذوى الخنو والإشفاق من الأهل والأقارب، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم .

قال عيسى بن هشام : وما راعنا في طريقنا إلا صوت الديك يؤذن بالصباح، وصوت المؤذن يؤذن حتى على الفلاح، فأسرعنا نطلب مأوانا، وندرك أم مشوانا، ونحن نسأل رب الأرض والسماوات، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات .

العمدة في الرهن

قال عيسى بن هشام : ولما ارتفع وجه النهار أو كاد ، ومسحنا عن النواظر كل الرقاد ،
بأذرتنا كل الأبدار ، بالخروج من الدار ، لنلحق بأولئك الرفقاء ، في المكان المعين للقاء ،
فقصصنا « قهوة القراز بالموسكى » ، فوجدناها تتموج بالداخلين ، وتضطرب اضطراباً بالواقفين
والقاعدين ، فوقفنا هنيئة نرسل النظر إرسالاً ، ونتصفح الوجوه يميناً وشمالاً ، حتى اهتدينا
إلى « الصديق » جالساً فجلسنا عن جانبه ، ورأينا العمدة جالساً بجانبنا مع صاحبيه ، فإذا
العمدة يثن تحت الموم المتقاطرة ، من سواد ليلته الغابرة ، حيث ناله فيها من الهوان ما ناله ،
وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله ، ورهن ما رهن من حلية ومتاع ، من غير لذة
ولا استمتاع ، فهو متخاذل متضائل ، « له شقٌّ مائل ، ولونٌ حائل ، ولعابٌ سائل » ، وسحنة
مُعبرة ، وأنامل مُصفرة ، وجفونٌ محمرة ، وأحداقٌ جامدة ، وأعضاء هالمة ، ورأسٌ
متصدع ، ونفسٌ متقطع ، يفتح تارة فاه ، ويحكّ طوراً في قفاه ، فيخاله كل من يراه ،
نعمو^(١) سفر أضناه السرى وبراء ، أو حلف تسخير أدمته العصا والهبه السوط ، ليبلغ
من جهد « السخرة » منتهى الشوط ، وإذا التاجر بجانبه يقلب حذقيه ، ويتحلب
بشفته ، ويصعد أنفاساً كالخريق ، في ميزاب^(٢) من الريق ؛ كأنه ذئب يهم بالعشيان ،
ويخشى صولة الرُعَيان ، أو صائدٌ يخاف أن يحبونه كبد ، ويفلت منه صيده ، والخليع بينهما
يطرق برأسه ، ويكتم ما في نفسه ، متفكراً ينكت الأرض بعصاه ، ويحاول أن يبلغ من
الغرض أفصاه ، دائماً يرم الخديعة ويهيء المدة ، ليستقطها على رأس التاجر ودماغ
العمدة ، ورأينا هنالك من دونهم نفرا ، لا يحولون عنهم نظرا ، كأنهم الطيور الجارحة
تتربح حمامة سائحة ؛ فاستخبرنا من الصديق ، عن شأن هذا الفريق ، فقال ، هم جماعة من
الفئة الباغية الماكرة ، والطائفة الراجحة الخاسرة ، طائفة الوُسطاء والسياسة ، وشاهدنا
الخليع^(٣) حيي إليهم بالاحظ والنظر ، كأنه يعاهدكم على النجح والفقر ، ثم سمعناه يقول
للعمة تهويناً لأمره ، وتيسيراً عليه من عمره :

(١) النضر : المهزول من الحيوان (٢) الميزاب : القناة يجري فيها الماء .

(الخليع) — لا تهتم يا مولاي ولا تقم، فالخطب أهون مما تظن، والأمور بأمر الله ميسرة، والحاجات بأذنه مقضية.

(التاجر) — إن كان التيسير من جهة الاقتراض، فأنا لا أتصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد، عهد المكسة والمضاربة، وفي هذه الحالة أراي أوتي الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي، فاني له أرجح جانباً وأرجح معاملة، وأنقص في قدر «الفائدة» من سواي.

(العمدة) — لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت سعة، وفي الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة، والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل، إلى غير ذلك.

(الخليع) — ولا تنس ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشبهة بين الأهل والجيران، وصدق من قال: «بيع الشيء خير من رهنه، والرهن بيعٌ وغبن»، وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة، وأنا أضمن أن توقيعتك وحده يكفيك، وثقة الرهن عند الاقتراض (التاجر) للخليع — ما أحسن هذا الحوائث، ولكن لا تنسى أنت أيضاً ما قيل: «إن الذي يقرضك على الشهرة والسمعة، لا بد أن يأخذ فائدة شهر في جمعة»، ولن يخطر أحد من أرباب الأموال بماله من غير رهن إلا ممن ضمن الفائدة الجسيمة والربح الطائل.

(الخليع) للتاجر — ما بالك تفسر علينا في الأمور مع إمكان تيسيرها، ولا يأخذك شكٌ فيما أقول، فأنا أضمن الحصول على القرض، في هذه الساعة، في هذه القهوة في هذه الجلسة، ولا محل للتحوف من جسامة الفائدة، ما دام وقت الحصاد قريباً، والتسديد عتيقداً. (العمدة) للخليع — هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء، وهكذا تكون محاسن الشيم، يا أبا المكارم والمهم.

(التاجر) — قد قلت ما عندى، وكل إنسان حرٌّ في عمله.

(الخليع) للعمدة — قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض؟

(العمدة) — يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسداد الحاجة في الحالة الراهنة.

(الخليع) — هذا التقدير ضعيف ، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل و بماذا يفيد ؟
وعليك قبل كل شيء تسديد ما اصابنا هذا في ذمتك من الدين ، ثم يتبعه ما لصاحب
الحان لفك رهن الساعة والختام ، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت
الذى تريد سكناه في حلوان ، وما يتبعه من أثمان الفرش والأثاث ، هذا غير ما يجب أن
يكون في يدك للبذل والانفاق في أوقات الأناس والطرب ، وأنت بلا شك في حاجة عظيمة
إليها بعد كل هذا الكدر والتعب ، فلا بد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيهه على
الأقل ، ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار إن
كانت مدته قصيرة .

(وهنا يُوسى الخليع إلى جماعة السامرة بالحضور ، فيتقاطرون عليه ، فيهمس في أذن
أحدهم كلاماً ، ثم يجهر بالخطاب فيقول) :

(الخليع) — إعلموا أن معادة البنك هو المدة فلان الفلاني من كبار المزارعين الذين
يمتلكون من الأطيان والمقار ما هو معروف مشهور ، ولم يسبق له اقتراض مال قط ،
وليس عليه دين مطلقاً ، وأطيانه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك ، وقد حلت
به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق في مدة وجوده بالقاهرة ، وهو الآن
في حاجة إلى اقتراض خمسمائة جنيهه يقوم بتسديدها في أوان الحصاد الآتي ، ولست أَرْضَى
له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجري عندهم
من طول التحري والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد .

(أحد السامرة) — مرحباً بسعادته مرحباً ، وما هو بالجهول عندنا ، فإننا نعرفه كلنا ،
وبما وصفته من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه ، كان المرحوم والدي مع المرحوم
والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة ، وطالما سمعت من والدي وأنا صغير السن أنه لا يوجد
بين أعيان التطر مثل المرحوم في الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس ، ولكنك
تعلم أن الدراهم عزيزة النال في هذه الأيام ، وقل من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن
يوازيه أضعافاً مضاعفة ، ولو كان الأمر لي وحدي لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون

ميثاق أو رهن أو فائدة ، إكراماً للصحبة القديمة بين والدَيْنا ، وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ، ولكن شريكى فى الأشغال رجل متفرج من أبناء هذا المصر ، لا يعرف حقوق المودة القديمة ، ولا يرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجيباً للشروط القانونية ، ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضائقى أولاً و « بتشريف » مقدار « الفائدة » ثانياً ، فإن انتقم معى على أن تكون الخصمات بئامانة إلى وقت الحصاد باشرت معى الأمر ، وقت بالخدمة الواجبة على لسعادة البك .

(التاجر) — سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم ، أيبكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض . . . ما سمعنا بهذا فى آباءنا الأولين ؟

(السمسار) للتاجر — لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف ، فإنه لا يستعظم مثل هذه « الفائدة » فى الأحوال الحاضرة إلا مَنْ يعتقد بتحريمها ، على أن الربا محرم عندنا أيضاً ، كما هو محرم عندكم ، ولكن « الضرورات تبيح المحظورات » .

(العمدة) — حضرته ليس من المجاورين ، بل هو من التجار المشهورين .

(السمسار) — إذا كان حضرته من التجار ، فلا بد أن يكون واقعاً على ضيق الحال ، وقلّة المال ، وكساد السوق ، وعالماً بمقدار « الفائدة » فى قرض من غير رهن ، ثم إنه لا يجهل فى الأشغال تكاليف المشاركة . . . والمساهمة . . . والقاسمة . . . إن شاء الله .

(التاجر) — نعم نعم ، ولكن يجب إنقاص مقدار « الفائدة » على كل حال ، فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخصمات بسبعائة وخمسين رضيت أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمت بذلك عليه .

(السمسار) — ما أصعب المعاملة مع التجار ، وما دمت حكمت حُكْمَكَ فلا مردَّ له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البك ، فتفضلوا بالذهاب معى إلى المحل على بركة الله لاتمام الأمر مع شريكى .

(الخليم) — لا حاجة إلى ذهابنا جميعاً ، ويكفى أن يذهب معك سعادة البك وحده فإن المسألة صارت بسيطة ، ونحن نتمكث هنا فى الانتظار .

قال عيسى بن هشام : وقام العمدة مع السمسار وأقننا جالسين في مكاننا نتشغل بالحديث مع الصديق ، ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مدة من الزمن ، وإذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس ، فأسرع الخليع والتاجر إلى لقائه واستخباره عما جرى له .
(العمدة) — امن الله الحاجة والاضطرار ، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار .
(الخليع) — وماذا وقع بك ودهمك ، هل خاب الأمل في عقد القرض ، أم عقدته وسرقت منك الدراهم ؟

(العمدة) — لم تسرق كلها بل نصفها .

(التاجر شاهقاً وخليعاً محملاً) — وكيف كان ذلك ؟

(العمدة) — ركبت مع الرجل وذهبتا إلى محل شريكه ، فأجلسني هناك ناحية ، وكتب الصك وختمته ، ثم إنه انفرّد بشريكه يناقشه ويجادله ، ثم أخذ عاد إلى عابس الوجه يقول لى : إن الأمر متعذر متعسر ، وإنه بذل كل ما في وسعه من طرق الاقتناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ ، فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه . ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع تخيلية مسمما ، ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفجر الشدة وتنقضى الأزمة ، فأريته شدة ما به من الحاجة إلى الدراهم في هذا الوقت ، وليس في الاستطاعة تأجيل الاقتراض ، وهممت بالرجوع اليكما لترشداني إلى باب آخر يأتي بالتيسير المطلوب ، فدنا منى شريكه عند ذلك ، وقال لى : يمعلى والله أن أردك خائباً ، وأرفض رجاء شريكى ، ولكنك تعلم مقدار العمر والضيق الذي لحق بهذا القطر في هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل ، وانتشار الدودة ، وكثرة المضاربات ، وظهور الأوبئة والطواعين ، وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى أنه لا يوجد في محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيهه هي أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشغل له في استثمارها بكل احتراس واحتياط ، وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ، ومع ذلك فقد فكرت طويلاً ، وعولت على أن أضنها بين يديك ، لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك ، وجعلتها أول خدمة جليلة أقدمها إليك ، فأمرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان ، فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ،

ثم سلمه إلى ، فعدده فوجدته أربعمائة تماماً ، ثم وضعتها في جيبى ، وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب ، فتلصكاً في الإجابة ، واعتذر إلى بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده ، بعضه لربح اليتيم ، وبعضه لتفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة ، إن وقع مني تقصير في التسديد عند الميعاد لا سمح الله ، كما هي المادة السائرة اليوم ، فهاتنى الأمر ، ونهذت الدراهم ، وطلبت منه أن يرد لى الصك فى الحال ، فلم يلتفت لقولى ، واشتغل عنى بالكلام مع بعض الواقفين إليه ، وأنا مقيم على مثل الجهر ، وكما أشرت إليه بإشارة من بعيد ليكلمنى لوى وجهه عنى ، وأظهر الاشتراز منى ، فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجه ، فلم أجد له أثراً ، فاشتد فى الكرب ، وحررتنى الغيظ ، فلم أتمالك نفسى وهجت على صاحب الخلل ، فأسكت بتلاييه أطلابه برد الصك ، فأظهر لى حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حل خنائه من يدي ، وقال لى : إنه لا يمنعه عن إجابة طلبى إلا غياب الشريك ، فإن الصك كتب بحضوره ، ولا يجوز أن يسأله إلى بدون علمه ، فلي أن أنظر أوبته ، ويتهما نحن على هذه الحال وإذا بمادة عمر بك صهر مديرنا قد دخل علينا ، فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى خجلاً منه وحياء أن يسمع ما يجرى بيننا ، ويرانى فى مثل هذا الموقف ، فسقط منزلتى فى عينه وعين صهره ، فتقدمت إليه وسلمت فرداً على التحية بالتكريم والتعظيم ، فلاحظ اللئيم صاحب الخلل ما أنا فيه ، فانهز الفرصة وقص على سمادة البك قصتنا على حسب هواه ، وطلب حكمه فى الأمر ، فقال له سمادة البك : لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلاً من عيون المديرية التى يديرها صهرى ، وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة ، ثم النفث إلى وقال : وأنت لا يجدر بك أن تخلف حضرة الخواجة ، وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة ، وإذا كانت نقطة الخلاف فى المائة جنيه التى حجزها عنده لتفقات القضية ، فأنا لا أشك فى أنه سيردها إليك بتامها عند إيفاء الدين فى ميعاده ، وأنت بحمد الله فى ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد ، وإن كنت لم تتعامل مع الخواجة إلا فى هذه الدفعة ولم تجرب مقدار أمانته ، وحسن عهده ، فإنى أكفل لك صدقه ووفاءه ؛ فاضطربت من كل الوجوه إلى التسليم والإذعان ، وأخذت الدراهم ، وسلمت على سمادة البك ، وقلت له عند خروجه :

لا يظنن سيدى أننى اقتضت هذه الدراهم للضرورة والعسر، فإن الأمور ميسرة بفضل الله، ونعمة الله وافر على، كما يعلمه سماعة صهركم المدير، ولكنى وجدت فرصة لا تعوض فى أثناء إقامتى بالعاصمة، وهى مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات، وهو فى حاجة الليلة إلى استئلام العربون، ولا يمكنه أن يمهأى ريثما أستحضر له المبلغ من البلد، فاضطرت للاقتراض على هذه الصورة، فقال لى: نعم ما تفعل، وبارك الله لك فى البيع والشراء، ثم إنه حلنى سلاماً وكلاماً لسماعة المدير، وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجه، وحضرت إليكما، ولم يدخل فى يدي من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً إلا أربعمائة جنيه فقط، فهذا معنى قولى لك لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها.

قال عيسى بن هشام. وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام، وهو يمد إليه يديه ويحرك شفثيه، فتبيننا من هيئته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الأجرة، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله: (السائق) — خلصنا من فضلك ياسيدنا السيد، فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى. (العمدة) — أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك فيه الكفاية.

(السائق) — من يقول يا حضرة الشيخ إن خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت فى أثناءها من مكان إلى مكان، ثم عدت بك إلى هذه القهوة، وأنا لا أبرح مكانى حتى تعطبنى الأجرة اللائقة بهذه المدة، وإن كان الذنب من جهتى لأننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجه الذى استوفىنى قبل ركوبك ظناً منى أنك من كبار عمد الذين لم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجرة المركبات، ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات، وجعلتنى أفضل «برنيطة» الخواجه على عمامة السيادة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، خلصنا يا سيدى.

(الخليع) للسائق — اسكت عن هذا الكلام البارد، وهك قرشاً سادساً خذه وانصرف.

(السائق) — كن محضر خير يا حضرة الأفندى، واعلم أننى لا أقبل زيادة قرش

أو قرشين مطلقاً، فإما الأجرة اللائقة، وإما الذهاب معى إلى صاحب المركبة ؟

(العمدة) — دونك قرشاً آخر فتركنا وذهب لحلاك .

(السائق) — كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش في أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار ، فهل نحسبها أجرة ركوبك من هنا إلى محل الخواجه ، أو أجرة انتظاري هناك زيادة عن الساعة ، أو أجرة ركوبك من محل الخواجة إلى دكان الكوارع وانتظارك مدة الأكل ، أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك في الطريق عند بائع الفاكهة ؟

(التاجر) — دكان الكوارع و بائع الفاكهة !! « وَاحَرَّ قَلْبُهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْمٌ » (١) .

أهكذا يكون شرط الصحة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ، ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاماً ؟

(العمدة) — ما أُلجأني إلى ذلك وحق الصحة إلا الجوع المفرط واحتياج الجسم إلى ما يقيمه ، فإني أحسست بالنور ظلاماً في عيني من خلو البطن ، وأشهد أن الجوع كافر .

(السائق) — أدركوني برحمتكم ، فهذا جندي البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها في الخالقات حيث خلقتها واشتغلت عنها بكم .

(الخليع) — لقد صدعتنا وشغلتنا نغذ هذا القرش أيضاً وأنا أخلصك من جندي البوليس ، وإلا فاني أقوم إلى « القسم » وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ، ولا تجد في « القسم » من يرحمك .

(السائق) — ما باليد حيلة ، أعطني ما تريد وقم أشهد عند جندي البوليس بأنني في انتظاركم حتى أخلص من الخالقات ، والله يعوضني خيراً ولا يحكم عليّ بركوب أمثلكم مرة ثانية .

(الخليع) للعمدة عائداً — قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات ، فلننظر الآن في تدبير ضرورتنا ، وهلم فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ، ثم ننتقي بصاحب الحان لك الرهن ، ثم نثلث بمشتري المقتنيات اللازمة لك .

(العمدة) — نعم لك ذلك ، وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاء الله خيراً .
(التاجر) بعد استلام المبلغ — أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ، ولكن
يتعذر على أن أرد إليك الصك في الحال لأنني تركته بالمنزل ، فالأليق أن تبقى المبلغ حتى
أتيتك به غداً .

(الخليع) — سبحان الله ! ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء ، وهل يجوز
بينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم ؟ فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيئان ، ما دام
المبلغ تسدد لك ودخل في جيبك .

(العمدة) — صدقت صدقت ، فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقي والتحرز في مثل
هذه الأمور ، وقوموا بنا إلى صاحب الحان .

(الخليع) للتاجر ضاحكاً — أنظر إليه ، فلا يزال قلبه يحن ، وهوام يميل إلى سكان
تلك المعاهد والديار .

(العمدة) — أقول لك الحق ، إن غيظي من معاملة تلك المرأة القاسية شديد ، وحقني
عظيم ، ولست أنسى ضروب تغفنها في التذلل على والتنع مني ، ولا أغفل عن تلك النظرات
التي كانت ترسلها إلي بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها ، وبودي لو أراها مرة ثانية
فأوسعها عتاباً وأشبعها تأنيباً .

(الخليع) مبتسماً — أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك ، تريد من العتاب أن ينتهي
بك إلى العتبي ، وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف ، وما ألد الرضى بعد الغضب ، وما
أمتن الصداقة بعد العداوة ، لكنني أقول لك قول الشفق الناصح : إنك مهما حاولت مع
هذه المرأة ، فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها ،
وإنما الرأي لك أن تلتمسها نهاراً وتدعوها للغداء معك في بعض جهات النزهة ، وأنا أفضل
نزهة الأهرام على سواها ، فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمنزل عن
العذال والرقباء .

(التاجر) — ما أدق الحيلة ، وما ألطف الرأي !

(العمدة) للخليع — لله درك ، فما حار من أنت حاديه ، ولا ضل من أنت هاديه ،
وهياً بنا إلى الخان أولاً لفك الرهن .

(الخليع) — ولعلنا نصيب خادماً للمرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا ، ولا شك
عندى فى إجابة سؤلنا .

(العمدة) — نعم نعم ، وليكن الاجتماع بها غداً نغير البر عاجله .

(الخليع) — لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله .

قال عيسى بن هشام : وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان ، بما لا يأتيه حيوان مع
حيوان ، ثم بادرنّا نحن أيضاً إلى القيام ، على أن يكون الاجتماع غداً فى الأهرام .

العمدة في الأهرام

قال عيسى بن هشام : ولما وقفتُ بنا الركاب في ساحة الأهرام ، وهناك موقف الإجلال والإعظام ، قبالة ذلك العلم الذي يطاول الروابي والأعلام ، والحضبة التي تعلو المضاب والآكام ، والبنية التي تشرف على رضى وشمام^(١) ، وتبلى ببقائها جذة الليالي والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام ، وتغنى بدوامها أعمار السنين والأعوام ، خلقت ثياب الدهر وهي لا تزال في ثوبها القشيب ، وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب ، ما برحت ثابتة تماطح مواقع النجوم ، وتسخر بثواب الشهب والرجوم ، وتحدث حديث المشاهدة والعيان ، ما تعاقب الفتيان^(٢) ، وتناوب اللوان ، عن قدرة هذا الإنسان ، في بدائع الصنع والإتقان ، ونهى عن قوة هذا الضميف الضئيل ، في إقامة هذا الأثر الجليل ، وكيف جاز لهذا القاني البائد ، أن يصدر عنه مثل هذا الباقي الخالد ، وجل صنع التقدير الخالق ، في تصوير هذا الحيوان الناطق ، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة ، والأفعال المتفارقة المتعارضة ، فبينما تراه يصعد إلى أجرام السماء وعولها ، ويبحث بفكره في رموها ومعالها ، ويسير بمله في أنحائها ومناكبها ، ويهتدى لحساب أقدارها وكواكبها ، إذ تراه يمر عترة برجله ، فيكون فيها منتهى أجله ، أو يكبو في طريقه ، فيفحص بريقه ، ويهوى بإذن الله إلى مكان الخلد^(٣) ، وهو طامع في شجرة الخلد ، فهو ذاك الذي كبر وصغر ، وعظم وحقر ، وعزّ وذل ، وكثر وقل ، وصعد وهبط ، وعلا وسقط ، وصالح وفسد ، وعرف وجحد ، وسعد وشقى ، وفنى وبقي ، وسبحان القاهر فوق عباده .

ثم انتقلنا من التفكير إلى التفسير ، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره ، ويقول لنا في تعبيره : (الباشا) — كنت أعتقد ، وأنا في سالف الأوان ، أن هذه البنية لمصر تاجها الذي تفاخر به الشيجان ، وأعجوبتها التي تباهى بها الأنظار والبلدان ، وشاهدتها الذي يشهد لها بالمدنية والعمران ، ولكنى أراها اليوم ، بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى العقل ،

(١) جيلان مروجان (٢) الفتيان : الليل والنهار (٣) الخلد : القارة العمياء .

وبحث في حقائق الأمور ، أن لا مزية فيها ولا خير منها ، سوى أنها أحجار مرصوفة ، وجنادل مصفوفة ، لا تمايز عن جبل من الجبال ، أو تل من التلال ، فهل تعلمان لها من معنى غامض القوى على فهمه ، أو سر خفي عز على علمه ؟

(الصديق) — ليس لها على الحقيقة من سر خفي ، ولا من فائدة بادية ، سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطفاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تنقل مدة من الدهر في أجسام أخرى ، فكان همهم في حياتهم مصروفاً إلى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم في قبور مشيدة قائمة على الدهر ، لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها . والناظر في الآثار المصرية يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن في البنين والتصوير عند المصريين ينتهي أغلبه إلى المعابد والقابر ، وكانت قصورهم وبيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ ، قانعين بذلك في جانب تسخير الأمة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأثقال لا ببناء مثل هذا البنين واتخاذ قبراً لهم تحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلى إلى الرجعة — ولكن إلى المتحف متحف الجيزة — فتسخير الأمة المصرية ، وتمطيل أعمالها ، وتمزيق أبدانها ، وإهراق دماؤها ، وإزهاق أرواحها ، في بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط ، واعتقاد سخيف ، من ملك جاهل ، لفائدة له موهومة ، أو من عمل كاهن ما كر ، لمنفعة له معلومة ، ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر ، ولا من عزة لمعتز وما هو إلا الظلم والفسم ، والضلال والجهل ، وما لهُذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدي عدل على سابق الشقاء في الأمة المصرية ، وما كانت تقاسيه من فظاعة الظلم والهوان ، ومران الاسترقاق والاستعباد ، ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة في ارتقاء المدنية والعمران ، لكانت هذه الأحجار والصخور ، مرتفعة في بناء القناطر والجسور ، وتالله لبأى القناطر الخيرية مثلاً ، في نظر الباحث المدقق ، أحق بالعرزة والفخر من أولئك الملوك عبَاد الأوهام ، ومستعبدى الأنام ، وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يذكركم سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسي اسمه نابليون ، فخطب من

فوقه على جنوده بكلام يَهْرُ فيهم أريحمة التفاخر والتباهي ، ويخضعهم به ليظفوا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ، ويعانون أهوال الوقائع ، ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهاؤ به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة ، وما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه : أن الملك الذي شيده أمر أن يكتب على جدران عتب القراع منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إني ابتليت هذا البناء في ثلاثين عاماً ، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه في ثلاثمائة عام » ، ولو عقل المسكين أنه سيأتى عصر من العصور يمكن فيه لأحققر صعلوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة ، فيجعله كالمهن المنفوش والهباء المنشور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية ، لما اغتر بسعة القوة والسلطان ، ولما تحدى بشيء سلمه ليد الحدثان ، وليس للحدثان من أمان ، اللهم إنيك تعلم أنه عمل ضائع ، من جهل ضائع ، لا ينبغي للمصري أن يراه إلا بدمع منهزم ، وقلب منقطر ، لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه ، وهو أن أجداده وآبائه . قال عيسى بن هشام : وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا ، وبينهم تلك العاهرة الفاجرة ، فأشارت عليهم بالجلوس ، فاتخذوا لهم مجلساً في ظل من ظلال الأهرام ، وانبطخوا على بساط الشرب والنقل ، فقطعنا من بيننا حديثنا ، وانتهينا إلى جوارهم ، نسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم ، فإذا العمدة يقول للتاجر ، متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث للدقق والعالم المحقق : (العمدة) — هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل هذه الأهرام ، وسبب وضعها ، وتاريخ تشييدها ؟

(التاجر) — كيف لا يكون لى علم بذلك ، وقد وقفت على قصتها تماماً ، وقرأتها مراراً في كتاب « قصص الأنبياء » عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام ، بحيث يمكننى أن أقصها عليك حرفاً بحرف : « ذلك أن الملك « سودون » كان ملكاً على مصر قبل الطوفان ، فرأى في منامه رؤيا أفزعته ، فاستدعى السحرة والكهنة والنجمين ، وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً إلى الأرض ، فقالوا له : إن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً ولا يبقى على شيء .

فيها ، فارتاع الملك ، واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم ، فأشاروا عليه
 بابتداء هذه الأهرام ، حتى إذا حل الخطب انتقل إليها واستمعصم بها مع أهله وحاشيته
 وذخائره وكنوزه ، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل ، فأتموا له هذا
 البناء في مائتين وخمسين عاماً ، ثم كساها بالدباج وفرشها بالحرير ، ونقل إليها من نفائس
 الجواهر وذخائر السكنوز ما تعجب الناس في حمله ونقله شهوراً كثيرة ، ثم إنه جمع السحرة
 فخصنوها له بالأرصاد والطلاسم ، ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته ، وطغى
 الطوفان فلم ينج منه إلا أهل السفينة وعُوج بن عُنق وهذه الأهرام ، وعوج بن عنق هذا
 هو حفيد آدم عليه السلام ، ولد في زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه ، وذكروا أن
 ذلك الطوفان الذي علا الهضاب والجبال لم يبلغ حد ركبتيه ، فكان يخوض فيه مع السفينة
 فإذا أحس بالجموع مد يده إلى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك فيدينها من عين الشمس
 ويأكلها مشوية ، ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعميث في الأرض فساداً
 دهنراً طويلاً ، حتى بعث الله موسى عليه الصلاة ، فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق
 فدعا الله أن يكفيمهم شره ، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل
 بلدة حل بهم غضبه ، فأرسل الله تعالى طيراً له منقار من الفولاذ ، فما زال ينقر الصخرة
 من وسطها حتى تقبها ، فمقطت في رقبة حاملها وصارت غلا له يمنعه عن الحركة والانتقال ،
 فجاء موسى بعصاه ، وكان طولها عليه السلام أربعين ذراعاً وطول العصا أربعين ذراعاً ،
 ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعاً ، وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ،
 ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض ، لأنه من أولى العزم ، فوقع عوج بن عنق
 في النيل فحسره عن أرض مصر سنة كاملة ، ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه
 فكان إذا مر عليه مارٌ عند رأسه قال له : « إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمي فامنع عني
 ما يؤلمني من هذا الذباب » يعني الوحوش المفترسة ، وبقي على هذه الحال إلى أن مات ،
 فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل ، واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخره كهوفاً
 ومغائر تسكنها ، وكفى الله العباد شره وفساده .

(العمدة) — سبحان الخلاق العظيم ، أرجوك بالله يا أخى أن تشتري لى نسخة من

هذا الكتاب أهلها معي إلى البلد ، ليقراها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند حلولنا من الأشغال .

قال عيسى بن هشام : وكان الخليل في هذه الأثناء مشغولاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها ، يضاحكها وتضاحكه ، ويشاربها وتشاربه ، فلما انتهى التاجر من قصته ، أقبل الخليل على العمدة بلاطفه ويؤانسه ، ويقول له :

(الخليل) — هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أساءاً ، وأنتم سروراً ، وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا ؟

(العمدة) — حقاً إنه يوم سعيد وأنس ، غير أنني كنت أود أن يكون هذا المجلس في البيت لا في الخلاء ، وتحت السقف لا تحت السماء ، فإنك ترى كثرة السباح والعربان من حولنا ، وفي ذلك من التضيق على حريتنا ما لا يخفى عليك .

(الخليل) — لا نخش الناس ، ولا تشغل نفسك بالخلق ، واغتمم الذات بكل جسارة وإقدام ، وليس للانسان سوى ساعة الصفو ، إن لم يستنمها ترك الدنيا بصفقة المعبون ، وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السباح في الصعود إلى الأهرام ، حتى لا يفوتنا شيء من أسباب التفره .

(التاجر) — دعنا من هذا الاقتراح ، فليس هو من شأننا ، وآية لئله بالله عندك في صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر في كل خطوة ؟

(الخليل) — هذا أمر سهل جداً ، وقل من يزور الأهرام إلّا ويصمد فيها مسافةً على قدر جهده ، وانظر إلى هذه النسوة الأمريكيات الصاعدات النازلات في أيدي العربان أمام عينك ، هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً ، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً ؟ وعلى كل حال فلا بد لنا من الصعود قليلاً ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو واللحلاعة ، والسيدة توافقتني على هذا الرأي .

(العمدة) — وأنا أوافق عليه أيضاً ، أرجو الله أن نعتز في صعودنا على فص من العصوص المتينة التي طالما عثرت على مثلها في التل الكفرى بناحية بلدتنا ، ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها ؟

(التاجر) — أنا أنتظر كما معها .

(الخليع) — لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات .

قال عيسى بن هشام : ويقومون للصمود ، ويتسلق التاجر في آخرياتهم ، ويحاول التخلف عنهم ، فيدفعه العمدة بكل قواه ممازحاً له وساخراً منه أشدة تخوفه وحذره ، والخليع والمرأة يقرئانه به ، ويضحكان لضحكه ، وما كادوا يصعدون قليلاً ، حتى حانت من العمدة التفاتة إلى الأرض ، فهال ما بينه وبينها من الفضاء ، فامتقع لونه ، وارتعدت فرائصه ، وصال على الدليل البدوي مستمعيناً به أن ينزله إلى الأرض ، مستندراً أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصمود ، فيدركه الخليع فيسند مع البدوي ، فيسقط من أيديهما ، فيحمله البدوي على ظهره وينزل به ، فما يبلغ الأرض إلا وتسرع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهي تناديهن جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذي وقع من إصبعها ، فيلحق بها الخليع ، فيبحث فلا يجد شيئاً ، فينزل معها فيطلقها العمدة بالتخفيض والتموين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ، ويغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط في حال الصمود بل في حال الجلوس ، ويطلب من العربان أن يدركوه يقرئاً بالمرأة يقرئ به الرمل عساه يجده فيه ، وهذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ، ولا يرقأ لها دمع ، ولا تنتهي لها شكوى ، والخليع يطيب من خاطرها تارة ، ويميل على العمدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذي كدر عليهم الصفو ، وأبدلهم بالأنس حزناً ، وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور ، وما من لذة إلا وهي مشوبة بالألم .

فَسَدَ الزَّمَانُ مَا لَدَيْكَ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ

على أن المصيبة هيمنة ، ما دامت في المال دون النفس ، ومن ذا الذي يدري بما هو مخبأ له في الغيب ، والحمد لله على اللطف في القضاء . ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم إلى المرأة ويقسم لها أنها لا تبیت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع ، فتشكره وتقول له : أنى لها بمثل ذلك الفص ، وهو من الياقوت النادر المثل في لونه وصفائه ، فيميد عليها القسم بأنه سيأتيها في الغد بفص أثمن منه وأجل ، ثم إنه يشد على يدها توثيقاً للوعد ، فتشد على

يده للتقبيل ، فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص ، فيخاف خاتمته الذي امتلأه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتها بغيره ، ويعودون إلى مجالسهم ، ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس ، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم :

(العمدة) — ما أحسن المجلس ، وما أضيّق الوقت ، وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار !

(التاجر) — املك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في ذلك الحان

المنحوس .

(الخليع) — وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان ، مثل ما تتمتع

بها الآن ، وقد شاهدنا بأعيننا ما حوّلنا هناك من المزاحمة والمخاصمة ؟

(العمدة) — وما العمل حينئذ ؟

(الخليع) — العمل أننى أكلفها أن تتأرض هذه الليلة وترسل إلى صاحب الحان

بمقدّر حضورها عنده .

(العمدة) — نعم الرأى ما ترى .

قال عيسى بن هشام : ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب ، فتمتنع أولاً ممثلة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التي تقضى عليها بدفع عشرة جفيات إليه تمويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها ، فيلتفت الخليع إلى العمدة ينتظر رأيه ، فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التمويض ، ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأنس والسرور ، فيبرى العمدة قضاءها في البيت ، ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في « البارات » ، ويرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية المديمة الجديدة التي تمثّل في « التياترو » العربي ، فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير ، فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً ، وينصرفون على هذا العزم المؤكد ، والميعاد المحدّد ، ويعنّ « للصديق » أن تتخلف عنهم ، ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم ، وأن تقضى هذه المدة الوجيزة ، في زيارة قصر الجزيرة ، ثم نلتحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص ، وديوان الروايات والأفصيص .

قصر الجيزة والمتحف

قال عيسى بن هشام : ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار ، وملققي السيارة ^(١) من سائر الأقطار ، فدخلنا روضة تجري الأنهار من بينها ، كأنها الجنة بعينها ، ولما رأى الباشا منسالك الروض منضدة ، وطرقه مرصعة مزودة ، حسبها أرضاً مفروشة ، يسط منقوشة ، وأشكل الأمر عليه ، فهم بخلع نعليه ، فقلت : طريق سعيد ^(٢) ، لافرش منجد ، وحصباء ومرور ^(٣) ، لا بساط وفرو ؛ ثم شاهدنا قصرأ يكل عنه الطرف ، ويقصر دونه الوصف ، فسرنا نرتاد خلاله ، ونتفأ ظلاله ، فإذا الأسود مقصورات في المقاصير ، والأسود ^(٤) مكشوفات في القوارير ، ورأينا النور في الخدور ، الرئال ^(٥) في الحجال ، والذئاب في القباب ، والظباء في الخباء ؛ فقال الباشا : لمن هذه الجنان ، وكيف يسكنها الحيوان ؟ وما علمت من قبل أن الليوث الضواري ، تسكن مغالي الجواري ، وأن أوابد ^(٦) البيد ^(٧) تنحجب في خدور القيد ؛ فقلت له : سبحان القادر العظيم ، هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم ، لما كانت حُجراته مطامع للأقمار ، ودرجاته منازل للأقمار ، كان إذا نادى صاحبه فيه «يا غلام» ، شقيت أقوام وسعدت أقوام ، وأبى نداه البؤس والندى ، بأسرع من رجع الصدى ، وكان من احتفى بظل هذا الجدار ، نحاتته غوائل الأزمان والأدهار . هنا كان يفصل الأمر ويحكم ، وينقض الحكم ويرم . هنا كانت تنفرط فرائد القلائد ، من أحياد الخرائد ، فتختلط عشور أزهاره ، وترضع لجين أنهاره . هنا كانت تنثر الحلى من قدود الجساز ، فتشبه بأثمار الأغصان . هنا كانت تصدح القيان على المزهار والأعواد ، فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد ... فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة ، وموطأ لأقدام الخاصة والعامة ، وأصبحت أرضه تنكثرى ، وجنى أشجاره يباع ويشترى ، ودوى فيه صياح النسور وزئير

(١) السيارة : القافلة ، وأصحابها القوم يسرون (٢) طريق سعيد : أى مذلل

(٣) المرور : حجارة بين زقاق برقة (٤) الأسود : جمع أسود وهو العظيم من الحيات

(٥) الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام (٦) الأوابد : جمع أبدة وهي الوحش

(٧) البيد : جمع يبداء وهي القلاة

الأسود ، وامتلات أرجاؤه بمواء الذئب وهممة الفهود ، وزال ما كان فيه من عز وطول ،
ونجد وصول ، وأيد^(١) وحول ، وصدق الكتابُ حَقَّ عليه القول :

في هذه الدار ، في هذا المسكن عَلَى هذا السرير ، رأيت الملك قد سَقَطَا
وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر ، ومليك ذلك العصر ، من الجدِّ الصاعد ،
والبهت المساعد ، وما صار إليه بعد ذلك من أفول السعد ، وما دهاه في القرية إلى
أن سكن اللحد .

نالوا قليلاً من اللذات وارتملوا برغبتهم فإذا النعماء بأساء
ثم وقف الباشا هُنيئة فكر فيها واعتبر ، وتلا : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُرَدَجَر ،
حكمة بالغة فما تُغْنِي البُذُر . »

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة ، حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة ، فدخلنا نشاهد
ما أبرزته يَدُ البحث من الخفاء إلى الظهور ، وما أعادته قوة التنقيب من البلى إلى النشور ،
وما صانته أُلحاد القبور من يد الفناء والدثور ، وجمعت أحياء الرموس من العفاء والدروس ،
وما أجنَّته أرحام المعابد والهياكل ، من بقايا المواضي وخفايا الأوائل ، وما انسدت عليه
سجوف الأحقاب ، من ودائع الأسلاف للأعقاب ، وما انشقت عنه الأرض من مكنون
الدفائن ، ومكنوز الخزائن ، وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع الصنع الأنيق ، بليت في
اصطحابها جِدة الأيام والليالي ، وانحنى عل احتضانها ظهور العصور الخوالي ، ومضت
دول بعد دول ، وذهبت أَوَّلُ في إثر أول ، واندثرت مدائنُ ونشأت مدائن ، وبادت
مواطنُ وقامت مواطن ، وانقلبت الأغوارُ أمجاداً ، والأبحار أطواداً ، وغدا العمارُ خراباً ،
والغمار^(٢) سراباً والسراب غماراً ، وانخراب عماراً ، وهي هي مصونٌ شكلها ، كما تركها
أهلها ، لسانٌ صادق ، وخبرٌ ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عن غير :

مضت غبرات العيش وهي غواير^(٣) على الدهر مكتوبٌ عليها حباثس
وأقما هناك تنقل بين الأصنام والتماثيل ، وتأمل في القصور والتهاليل^(٤) ، وتفتكر

(١) الأيد : القوة (٢) الغار : جمع غمر وهو معظم البحر (٣) غبرات : غبر الشيء
بقيته وغواير : جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد (٤) التهويل : زينة القصور ، النقوش
والخلى ، الواحد تهويل .

في هذه العظام المنشرة ، والرثبات المنظرة ، بما عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة ، كيف كانت ملوكاً الأمم ، ثم بقيت على بلى الرمم ، وتوالى القدم ، في حال الوجود مع القدم .
ورأيانا بجانبنا رجلاً من ذوى العمام ، مع فتى من الطراز المتحاذق المتعالم ، ظهر لنا من أمرهما ، وتبين من شكلهما ، أن الرجل عين من أعيان المدينة ، وأن الفتى ابن له وزينة ، وإذا هما يتناظران ويتحاوران ، فيما يريان ويبصران ، فدنونا منهما وأنصتنا إليهما .

(الابن) — أشهدت مشاهد عزنا ، ورأيت معاهد فقرنا ، وعلمت كيف كان مقدار مجدنا ، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا ؟ قلله درهم ، ما كان أرقامهم في الفكر ، وأبدعهم في العمل ! ولو أن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفخرة ، ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة ، كما سبق المصري منهم سابق ، ولا تعاق بأثره لاحق ، وسكان له من بينهم الكعب الأعلى ، والقدح المملئ ، وهذه الآثار في يده يفاضل بها ويفاخر ، وينشد عليهم قول الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(الوالد) — ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها وتفاخر يفوق ما يكون السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة ، وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية .

(الابن) — كيف يكون منك هذا القول ، وهي بشهادة العالم أجمع : أئمن من كل نمين ، وأنفس من كل نفيس ، لا تقويم لها ولا تقدير إلا بالقناطير المنظرة من الذهب والفضة ، وكيف غاب عنك تهافت هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شئ منها بالمال الجمم ، تنافسهم في التمتع بمشاهدتها ، يتحملون لذلك الأسفار البعيدة ، والمتاعب الشديدة ، ولا يعقل ، وهم هم أهل الهدى والعلم ، أن يشتغلوا بباطل ، أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل .

(الوالد) — لكم دينكم ولى دين ، وما أزال أكرر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئاً مما تشمرون به فى هذا الباب ، وما أراهم هذه الأحجار والتدثيل لايساوى فى نظرى

إلا أنقاض بيوت عفت ، أو طولول دراست ، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ ، كان التعلق بها والتعجيد لها مما يقضب الخالق ولا يرضى الخلق ، وأما قولك إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا ، لأنها من صنع آباءنا وأجدادنا ، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية ، فإنه إنهم ونكر استعبد بالله منه « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً » ، ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام ، أهل الدين والإسلام ، لا تفاخر إلا بتفاخرهم ، ولا نفتسب لغير أصلهم ، وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ، ويتفننون في تقليدها ، فتخرج من أيديهم ، وهم بين الروث والطين ، أتقن صنعاً من هذه الحجبة في القصور ، المصونة في البلور .

(الابن) — علم الله لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة في مزايا هذه الآثار ، مثل ما في اللغات الأجنبية ، لعلمت منها ما لم تكن تعلم ، على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة ، أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع ، تمثال شيخ البلد ، وهو قطعة واحدة من خشب الجيز ، فما أدق الصنع ، وأتقن العمل ، وما أكمل الشبه ، وأجمل الصورة ؟

(الوالد) — نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر ، فدعني على غباوتي وجهلي ، وبارك الله لك في علمك وعقلك .

(الابن) بصوت خفي — « وأغفر لي أبي إنه كان من الضالين » — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا ، وهلم بنا فقد حل لليامد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالأمس لتناول العشاء معه في « أوتيل شبرد » .

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما — ماذا تقول في هذه المناقشة ، وما دار من الكلام بين الولد والوالد ؟

(الصديق) — ما عساي أن أقول غير ما قاله الله عز وجل : « فَخَافَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَكْفُونَهُمْ غَيْبًا » ، وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذا

الوالد الساذج : قبور مقلوبة ، ورموس معكوسة ، وأحداث منبوشة ؛ فإن كان الغرض من عرضها العبرة أو الموعظة ، فإن فيها هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش ، إلى خشب النعش ؛ ومن مساند الحجر ، إلى مساند الحجر ، ومن ظهور الصافنات الجياد ، إلى بطون الديدان في الأكفان والأحادي ، نعم الموعظة الحاضرة للنظر واللمس ، والحكمة البالغة للعقل والنفس .

(الباشا) — هذه هي الحقيقة بعينها في نظري الآن ، وقد كنت أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فيما مضى من دهرى عند ما كنت أرى تهاقت الغربيين عليها في زمن ولادة السابقين ، ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم ، هو لأجل توغلها في البلى والقدم ، ومحللها من التاريخ ، وما تحمله منقوشًا عليها من أساطير الأولين .

(الصديق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشياء قيمة عند الغربيين فإنما هي كما تقول ، لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء ، وولوعهم بالاختصاص بالنادر ، ولذلك علت قيمتها عندهم ، وارتفع قدرها بينهم ، وليس المصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارًا تفوق في القدم مثلها من بقية المتاحف ، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدًا واحدًا ، لما استفادوا منها شيئًا ، ولا أفادوك عنها شيئًا ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر ، سوى النزول اليسير من المقلدين الغربيين ، ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة « الهيروغليف » ، أعنى لغة آبائهم وأجدادهم ، كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبراء بها من الأمم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها ، ولو تمتعت الأمانى لقلت : عسى الله أن يخفف بقيمتها العالمية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون ، وما على المصريين من أعباء الضرائب والكوس ، وباليات المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فإنها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها في خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى متحف ، وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق ، وثانيًا على متحف الجزيرة ، وما تنفقه ثالثًا على المتحف الجديد بقصر النيل ، فإنها تعد بالملايين .

(الباشا) — كنت أرى رأيك هذا وأتني أمينتك ، لولا أن يقال : إن الحفظ على هذه الآثار ، والحرص على بقائها بمصر ، مزية أدبية لها قدر عظيم ، يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف ، وشدة ضنهم بها ، فلا يرغبون البتة في بيعها والتخلي عنها ، ويرون فيها نفخهم ومجدهم ، فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل .

(الصديق) — إن حرص أهل الممالك على ما في متاحفهم من الآثار ، وتأخيرهم بها ، هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار ، وإشارة إلى الجهد القديم والعز الجديد ، ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين ، وما هي إشارة الجهد والشرف في هذه الرمم البالية ، رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين — ولأن الغربيين في غير حاجة إلى قيمة أثمانها ، فهي عندهم من الكماليات ، أما عندنا فالأمر بالعكس ، ولم تأت هذه الآثار من جهة الفتح والفصر ، وإنما جاءت من طريق التبش والحفز ، والمصريون في حاجة إلى المال لإنفاقه في ضروريات المعاش ، وقبلما يمر عام إلا ويكشف المكتشفون في مصر من هذه الآثار الشيء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة ، فما ضر المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد ، وعن تلك الأشباه المتعددة ، وانفقوا بقيمة أثمانها في بعض شؤونهم العامة ، وبقي في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي للفخفة والمباهاة ، ومباراة الأمم في تشييد المتاحف ، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوروبا وأميركا بالحانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الأحياء المختلفة من أقطارهم ، وأن يفضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدي الملاحين بدرهم أو دينار ، فلم لا يجوز التخلي عن بعضها للانتفاع بأثمانها ، وهي على ما تراه — ما لا يباع فانه يتقسم — وجملة القول أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم ، إما بمشاهدتهم لها في ديارنا ، أو بانتقالها مسلوحة إلى ديارهم ، وأي عار على الأمة المصرية أن تنصرف في بعض الآثار المشابهة التي تنبت لها الكهوف والتلال في كل يوم ، لتنفق بأثمانها في ترقية شأن المعارف ، وبث الأدب بطبع تلك الكتب الخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية في المطبعة الأميرية ، التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام

الحكومة السابقة ، حكومة الجهل والظلم ، وخبروني ، ناشدتكم الله ، أئى نفع وفائدة للأمة
المصرية الإسلامية فى أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة فى الأنتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء
والحكماء فى الكتبخانة ؟ وأئى الأمرين أعظم نفماً وأكثر رجاءً ، أن يعرض على أعيننا
تمثال « إبيس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعسيس » وثخذ « امينوفيس » ، أو أن
تداول الأيدى كتاباً المرازى ، ومقالة للفارابى ، وفصلاً لابن رشد ، ورسالة للجاحظ ،
وتصيدة لابن الرومى ؟ ما تجرى الأمور عندنا — شهد الله — إلا على التناقض ، وما تسير
إلا على خلاف المصلحة .

قال عيسى بن هشام : وجاء أوان الخروج ، فقمنا نسعى ، لنالحق بأصحابنا فى الملهى ،
ونشاهد ما يتم عليه حالهم ، وينتهى إليه مآلهم .

العمدة في الملهى

قال عيسى بن هشام : وعدنا إلى المدينة ، وقد مد الغروب حبالته ، ليقطنص من الأصل
غزالته ، فطارث نفسها شمعاً^(١) ، واضمحلت قرصها شمعاً ، وجدت نافرة إلى كناسها ،
وهي تصعد الشفق من أنفاسها ، ثم اختفت شقائق الشفق ، تحت أكام الأفق ، ولما
أن اخضر من الليل جانبه ، وطر شاربه ، وتوقدت مصابيح السماء ، في قباب الظلماء ،
قصدنا دار التشخيص والتمثيل ، وبيت التصوير والتخييل ، فدخلنا مع الداخلين ، نساء
ورجالاً ، أجناساً وأشكالاً ، واخترنا لجلوسنا الكرامى دون العرف ، لتيسر لنا المشاهدة
من كل طرف ، ثم جلسنا لحدد النظر ، فيمن حضر ، وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات
اختلفت أزيائهم ، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم ، وعلا ضجيجهم وصياحهم ، وكثر لهمهم
ومزاحهم ، سباً وشتماً ، ولكزاً ولكها ، ثم يتأيل بعضهم على بعض ، ويضربون بعضهم
وأرجلهم ظهر الأرض ، رجالاً وغلماً ، شيباً وولداناً ، متظاهرين بملل الاصطبار ، ومطالبين
رفع الستار ، ثم حولنا النظر إلى أعالي الشرف ، وجوانب الغرف ، فرأينا من بينها
مقاصير عليها رقائق الستائر : تشف عن لوايح الآلى والجواهر ، في نحور الحور ، من
مكنونات القصور ، وبيضات الخدود ، ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور ، فهن
يزحزن من الوشى والخبر ، ويكشفن عن الطُّر ، تضى بالغرر ، ضوء الليل تحت القمر ،
ويترأين ترائى الكواكب والنجوم ، من خلل السحب والغيوم :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض هي فيه بين تخفّر وتبرج
كتنفّس الحسناء في مرآتها كملت محاسنها ولم تنزوّج

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون ، ويتشوقون ويتلهفون ، لا تنثنى أبصارهم عن
وجهتها ، ولا يحولون الوجوه عن قبلتها ، فهم قائمون على عبادتها عاكفون ، لا ينفكون
عنها ولا هم يستنكفون ، وهن يوالين الضحكات ، ويتألين الحركات ، ويتبادلن معهم

(١) الشعاع : المتفرق .

الغمر ، ويتبادلون معهن الرمز ، ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام ، ويشيرون بتناديل تفتى عن فصيح اللفظ والكلام ، وقد خرفت الأصابع نسيج الأستار ، لتنفذ منها رسل الأزهار ، وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير ، تدنى البعيد وتكبر الصغير ، وكل فتى يرى أنه المرمى دون سواء بالنظرات ، وأنه المعنى بتلك الإشارات ، فيتصنع التجميل والتطرف ، ويفكف التأنق والتلطف . وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام ، متزاحين أكواماً على أكوام ، كأنهم في سوق من أسواق الأنعام ، لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام ، وتفقدنا أصحابنا في أنحاء الملهى ، فوجدناهم في غرفة والماهرة في أخرى ، وقد تريت بزى الأجنيبات ، فنبذت الخمار والأزار ، وتبدت في القبة والزمار ، وهى تغامر العملة بعينيها ، وتشير إليه بيديها ، والخليع يكون نارة في الغرفة عندها ، وأخرى يظهر في غرفة بعدها ، إلى أن دق الجرس بالدخول ، وارتفع عن الماصب منته المسدول ، وظهر فيه أماسنا طائفة من الممثلات والممثلين ، ما بين ملحنيين وممثلين ، على طريقة يمتحنها السمع ، ويسافها الطبع ، وبكلام مبهم ، وألفاظ لا تفهم ، كأنهم حداة في مفازة^(١) ، أو سعاة في جنازة ، وهم في أزياء متماكسة ، وأشكال غير متجانسة ، وثياب تنافرت ألوانها ، على أشخاص تباينت أوطانها ، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين ، ثم انصرفوا عنا بعد حين ، ثم ظهر من بعدهم رجل مكتمل ، مزجج الحواجب مكتمحل ، مصبغ الخد والجبين ، بأحر كالورد وأبيض كالإسمين ، فأخذ يحطّر ويتفتى ، ويهتف ويتفتى ، وبجانبه امرأة تصف ، تتأبل وتنعطف ، لا تقل عنه شيئاً في باب التصبغ والتذهن ، والتصنع والتلون ، يقول لها في شكوى الغرام ، وشرح الوجد بها والهيام :

« يا حبيبة الفؤاد ، وغاية المراد ، ما أظف هذا الشكل ! فهيا بنا نغتم الوصل » .
فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخلل الوسيم ، إذا ساعدتنا أى نسيم ، فدير أنت ما عليك ، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »

ثم تنصرف الفتاة ، ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم ، فتدخل عليه ، وإذا هى عجوز شوهاء ، وجلبانة ورهاء^(٢) ، فيمتصل بينهما الكلام ، وينتهى بالقبول والاتفاق ،

(١) المفازة : القلاة لا ماء فيها . (٢) جلبانة : المهذرة السيئة الخلق . والورهاء : الحفاه

ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ، ثم ينفرد متجولاً يمشد ويغنى مدة من الزمن ، ثم يذهب لسبيله ، وتأتى الأم ومعهما زوجها ، وإذا هو رجل قد أقلت ظهره السنون ، ولم تفده التجارب شيئاً ، فتحتمل عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيته . فيمتنع ويتعلل بقوله : « حقاً إن ذلك الشاب ، هو ألح من الذباب ، وهو عندى أفسق من الشياطين ، وأخبث من البراذين ، لا يترك من النساء الدون ، ولا المعجوز الحيزون . »

فتجيبه بقولها : لا تخف أيها الزوج الأفضل ، فما كل الطيور تؤكل ، وابنتنا العاقلة الخلوة ، لا يخشى عليها منه في الاجتماع ولا في الخلوة . « ثم يطول الكلام بينهما ، وينتهى بقبول الوالد ما دبره له كيد الوالدة ؛ ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتمانقان ويتلائمان ، وتقول له في حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الأنيق ، على التيسير والتوفيق ، فقد سهلت أمى لنا الطريق ، ولم يبق أماننا إلا استرضاء الخادمة ، حتى نكون لأسرارنا كاملة . » ، فيجيبها : « نعم ، وإن لم تطاوعنا فإنها تصبح حزينة نادمة ، لأنى أقسم يا بنت الكرام ، بما بيننا من الحب والفرام ، أننى أذيقها كأس الحيام ، بهذا هذا الصمصام ، إن امتنعت عن تسهيل الأرب ، بقبول ما في هذا الكيس من الذهب . » فتقول له : « آه يا حبيبي ، ما أطرب الخلوة ، وما أطيب الخلوة ، حيث نصبح في بحر النشوة ، وهيا بما أيها الهام ، فإنى أسمع صوت أقدام ، وعندى الآن أن أحسن طريقة ، أن نقشق نسيم الصبا في زوايا الحديقة » ، فيقول لها : « حُفِظت يا سيدتى ومولاتى ، ومتبع حياتى ومساتى ، فالآن قد بزغت شمس سمودى ، وعَطَّرَ الأَكْوَانُ عَرَفُ نَدَى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدها غيرهما ، فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال ، وخيانة واغتتيال ، وأخرى عن اجترام واقتراف ، واختلاس واختطاف ، ثم يملو بينهم الضجيج ، ويصيحون بغناء كأنه نذب وعويل .

وعلى هذا ينتهى الفصل الأول ويرخى عليه الستار ، ويحشد الحاضرون حينئذ فى الصغير والتصفيق ، والتأوه والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة من الصرع أو المس ، ثم إنهم يتناثلون

إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين، ونقيم نحن جلوساً في مكاننا، فيلثفت إلى الباشا ويقول :
 (الباشا) — لقد سئمتُ — علم الله — وملاّت من منظر هذه المراقص والملاعب ، فما
 أشبه بعضها ببعض ، وما أجمعها لأشتات النقائص والذائل على اختلاف أوضاعها ؟
 (عمى ابن هشام) — ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص ولا ملعب ، هذا هو
 «التياترو» المعروف عند الغربيين بأنه أصل التعذيب والتأديب ، ومنبع الفضائل ومحاسن
 الأخلاق ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهو عندهم توأم الجرائد ، هذه تعظ بالخبر ،
 وهذا يعظ بالنظر ، فيغرس في النفوس صورة الفضيلة محسوسة للأبصار ، بما يعرضه على الناظرين
 والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان الغابرة أو الحاضرة ، ويفعل في النفوس ما لا
 تفعله الرواية والخبر ، وهي في بطون القصص والسير ، فيمثل لك محاسن الفعال ، ومحامد
 الخصال ، وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود ، وإن اعترضتك
 معها المصاعب ، ونالتك المتاعب ؛ ويشرح لك شناعة الرذيلة ، وبصور فظاعة البقيصة ، وما
 يكون في عاقبتها من السوء ؛ وفي أثرها من المكروه ، وإن خلبتك بمنظرها ساعة ،
 وخذعتك بمرحها لحظة ، فيجتمع لديك من اللوعة والعبرة ما عساه يردعك عن التفتيح
 إن همت به ، ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه ، ويهديك إلى الطريقة المثلى ، ويخرجها
 لك من القية إلى الشهود ، ومن القول إلى الفعل ، فتتجذب نفسك إلى أنواع الفضيلة ،
 من شجاعة وشهامة ، وكرم ومروءة ، وأمانة ووفاء ، وسماحة وسجاجة ، وصبر وحلم ، وينفر
 طبعك عما تجتمع الرذيلة ، من دناءة وجبن ، وخيانة وغدر ، وجهل وحقد ، وفحش وفسق .
 (الباشا) — إن كان الأمر كما تقول ، فكيف تسنى للمصريين أن يقلبوا وضعه ، ويشينوا
 شكله ، ويحملوا هذا المكان على مثل حال الحان ، فلا فرق عندي فيما أنظره هنا الآن ،
 وما رأيته في الحانات الأخرى ، من الرقص والعزف ، ومعاورة الخمر ، ومغازلة النساء ، وتمثيل
 أحوال العشق بأعظم شكل يفرى به ، ويهيج من شهوات النفوس إليه ؟ فإذا كان التشخيص
 على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من أبواب الآداب ، وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا
 الاعتقاد ، فإن شره عندي أعظم من شر للملاعب والمراقص الأخرى ، لأن الداخل إليه
 لا يرى على نفسه من لائمة يقيمها في دخوله ، ولا يتنكر على أدبه منكر فيه ، ولا يخشى

انتقاداً عنده ، فاسترسل النفس في غيها ، ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً ، بخلاف الحال في الداخل إلى تلك الخانات ، فإنه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما يلام عليه ويصاب ، فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً عن غيه وجهله ، والإقدام على الحرم الضراح ، فيه من تأنيب النفس ما يزرع وينهى ، لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهية ، والمصيبة العامة ، فلا وازع من الخجل والحياء ، ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب .

(عيسى بن هشام) — لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على أن هذا الفن غير مفيد للآداب ، فقد قدمت لك أنه فن غربي ، ووصفته لك بتقدير ما وصل إليه من الإتقان لدى الغربيين ، وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط ، لم يلتفت المصريون إلى إتقانه وحسن وضعه ، وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والتلاعبة على ما ترى ، وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ، ليتمكنوا من السعي في ارتقائه وإتقانه ، وهم يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ، ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل .

(الصديق) — قد سمعت مقالك ، وعندى أنه يجب على الباحث في الأمور المتسقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربية والإقليم ، وإلى تركيب القرائن والفطر ، وإلى العادة والعرف ، ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين ، لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوتهم بينهم ، والشواهد كثيرة جمة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً ، وأن ما يكون في لوندرة حميداً يكون في الخرطوم ذمياً ، وما يكون في رومية حقاً يكون في مكة باطلاً ، وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً ، ولست أرى أن هذا الفن ، لو تم لأصحابه ما يبغونه من وفرة المال ، ومعاونة الحكومة ، أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب ، ولا أن يكون له النفع المقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب ، لما فيه من المنافرة البينة لطباع أهل المشرق ، وأخص بالذكر منهم أهل

الإسلام ، لا بل ربما كان منه الضرر البحت ، ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل
يتم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار ، ولا تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن
ذكر العشق والغرام ، وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها ،
فإن كان مقبولا عند الغربيين ، مسموحا به لموافقة العادة عندهم ، ولكونه شيئا لا عيب
فيه ، يجهر به فتيانهم وفتياتهم ، بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم ، لكنه غير
مقبول عند الشرقيين ، ولا مسموح به في عاداتهم ، ولا يدخلونه في أبواب الفضيلة
بحسن الآداب ، ولذلك كان شأن الكتمان والتستر ، لا التجاهر به والتظاهر ، ولقد جرى
العشق في بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح ، وكان عند بعض قبائل
العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم ممنوعه عن التزوج بها لهذا السبب ، وربما
رفعوا أمره إلى السلطان ، إن شهر بها في شعره ، فيهدر دمه . فهذا العشق الذي هو الركن
الكبير والسبب الأعظم في حصول التزاوج عند الغربيين ، هو من أكبر الموانع في التزاوج
في الشرقيين ، ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتي إلا من الطريق المألوف والمسلوك
المعروف عند أهل كل بلد ، فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على
خلق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقا
لأحوالهم وظروفهم ، جاريا على مقتضى عرفهم وتاريخهم ، وليس من المقبول عندهم حصول هذا
الشهر والتمثيل في معيشة الأهل والولد ، وما تسدل عليه الحجب والستور ، في البيوت والدور ،
ليس في الدين الإسلامي ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال في تأدية هذا الفن ، لأنه ينهى
النساء عن التبرج بالزينة ، فضلا عن الاختلاط بالرجال ، ويأمرهن بغض البصر ، فضلا
عن طموحه ، ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصالحائه
على أسلوب يقتدى بالعشق والغناء ، وماذا ترى في أبي جعفر عاشقا ، وأبي مسلم مغنيا ،
في الفوارس راقصا ، كما يجترى عليه الآن أهل هذا الفن ، وذلك أكبر إهانة للأسلاف
عظم خرف في التاريخ ، وإن أردت أن أكشفك بكل ما يحول في خاطري قلت لك
هذا الفن الذي تغالى الغربيون في إتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة في باب الآداب ،

وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد ، لأن المعول عليه عندهم في هذا الفن أن يظهر الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ، ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التي يذهب إليها خيال الشاعر ، فتوضيح الرذائل ، وتبيين الشهوات ، وعرضها على أصحاب الرذائل في القوالب الخنيفة بما تنطوي عليه من وجوه الحيل والسكر والخداع والخلل ، مدبرة جة إلى تعمق صاحب الرذيلة في رذيلته ، واقتناعه فيها بذلك الوجوه الملوحة ، فلا يسبقه إليها سابق ، وكما تدرّب اللصوص ومهرة الأشقياء ، وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات ، فاكتمسبوا منها ما كان ينقصهم ، وأخذوا عنها ما كان يعجزهم ؛ ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب في خفايا الرذائل ، التي يندر حدوثها ويقل وقوعها ، كان من الأسباب في انتشارها ، ولذلك قالوا : إن توضيح الجرائم التي من هذا القبيل في القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ الجرم إليها ، وقد سئل الشارع الحكيم اليوناني عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعته ، فقال : ما كنت لأتصور أن يونانياً في الوجود يقدم على قتل أبيه ؛ فكان قوله هذا أنقى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها . واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها .

قال عيسى بن هشام : ودق الجرس ، وعاد الناس إلى مقاعدهم ، واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح ، وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظاً خطيباً ، فما زال يهذي في القول حتى سقط على الأرض ينخبط في قيئه ورجيمه ، لا في دمه ونجيته ؛ ثم ارتفع الستار عن منظر غابة ، يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناه يشبه أذان المؤذن ، ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتمتر ، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة ، وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالرجوع والتأنيب على جانبهم وصياحهم ، ويشكو من الشكوى من الانصراف عنه في غنائه ، ثم إنه يمود إلى ما كان فيه من الغناء ، ويأخذ بيد خليلته للهروب ، فيدخل والدها عليه في تلك الحال ، فيحول بينها وبين عشيقها ، فينبى له الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعاً ، ويدركه قومه ، فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله ، فيلجأون إلى الفرار ، وتقع المرأة مضطجاً عليها ، ويقع العاشق باكياً تحت قدميها ، وعلى هذا يسدل الستار ، وينتهي

الفصل ، و يعود الناس إلى مكان الشرب والتدخين ، فنتبع أثرهم ، ونجلس ناحية في بعض زوايا الحان ، وإذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسون جانباً أمام إحدى المفايد ، وأمامهم راج والسكّوس مترعة ، وإذا برجل عابس الوجه بين الغافلة قد وقف أمامهم يقول المرأة في كلامه : « أنظنين أن الهرب وخلف الميعاد يمنحك منى و يؤجل وفاء القسط المطلوب لى منك ، وأنا لا أزال أقننى أثرك منذ الصباح إلى الساعة ، وتحملت فى البحث عنك تعباً عظيماً ؟ والحمد لله إذ عثرت عليك فى هذا المكان ، ولست أبرح من هنا ، حتى تعطينى مبلغ القسط ، أو تردى إلى هذه الحلى التى يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلاتك » وبعد به ينتزع الحلى من صدرها ، فيمنعه الخليع متوسطاً بينهما ، ويقول له : ليس هذا وقته ، وليس هنا محل المطالبة ، وأمامك الحاكم ؛ فلا يرجع الرجل عن عزمه ، بل يقول : « أنا لا أطالب بحق أمام الحاكم ، وأماحى مالى فى صدرها » ، ثم يعد يده ثانية ، فتقبض العاهرة على حليها ، وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير ، فتأخذه الحمية والنخوة ، فيدفع عنها الصانع بيده ، فيقول له : « إن كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك ، فالشامة تقضى عليك بأن تدفع لى المبلغ من عندك لا أن تدفعنى عن حقى بيدك » ، فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له ، فنقول له المرأة : إنه لا يزيد عن عشرين جنيتها ، فينقد الصانع الدراهم فى الحال ، ويطلب منه ورقة الاستلام ، ثم يقدمها لى المرأة بيد والكأس بيد أخرى ، فتقبّل حافة الكأس شكراً له وحداً ، وينصرف الصانع ضاحك السن قرير العين ، و يعودون إلى شربهم وحديثهم ، فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان إلى سواه ، وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبتة ، ويطلب من الخليع أن ينظم له مجلساً هناك فوق سطح المنزل فى ضوء القمر ؛ وبينما هم فى أخذ ورد ، وإذا بصاحب الحان الذى تشغل ليه المرأة واقف على رأسها واضع يديه فى خاصرته ييكثها بقوله : « أهذا هو المرض الذى نعتدّين به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل ، وهذا هو المستشفى الذى تتعالجن فيه ؟ وأنظن أن حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر الحاضر » ، ثم يجرها بيده لئذهب معه إلى مباشرة الشغل فى الحان ، فيمسكها العمدة من أذيالها ، ويقول له : « ما هذه

الوقاحة ، وما هذا التهجم بمد أن أخذت منها عشرة جنهيات في نظير تأخرها عن الشغل في الحان ، ورضيت بهذا العوض لتكون على حررتها في هذه الليلة ؟ » ، فيقول له : « إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه إلى فقد كذبت في دعواها وادخرت الدراهم لنفسها ، فإما أن ترد إلى المبلغ وتتمهدي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي ، وإما أن تستند للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفيني فيه دخل أطيانك » ، ويشند بينهم اللجاج والخصام ، فتنبهى إحدى الممثلات الجالسات في الحان ، ممن انتهى دورهن ، فتستصرخ البوليس لإخراجهم ، فيأتى البوليس ويصم على أن يسوقهم إلى « القسم » جميعاً ، ويخرج وراءهم ، لاتباعهم ، فيأتى الباشا ذلك كل الإباء ، وينفر عنه كل النفور ، ويقول : أنا لا أتوجه إلى « القسم » ، لا شاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً ، فقد جربت ما يقع فيه ، وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه ، وقد شعرت بسأم في النفس ، وصداع في الرأس ، فلنذهب إلى البيت ، لنتمتع بشيء من الراحة ، ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة ، فأجيبه بالطاعة والانقياد ، ونترك الصديق على ميعاد .

المدينة الغريبة

قال عيسى بن هشام : وما وصلنا إلى البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه ، يحاول أن يشتفي بالرقاد من غمه وهمه ، فتركته في غرفته ، ورغبت في النوم كـرغبته ؛ وبينما أنا غريق في المنام ، أسمع في بحر الأحلام ، إذ سمعت الباشا يناديني نداء متتالياً ، فقممت إليه مسرعاً ومثبياً ، فأخبرني أن طول التفكير نفي عنه الرقاد ، وأورثه الأرق والسهاد ، وطلب مني أن نحكي الليلة بالسمر ، وأن أقتلها معه بالسهر ، فجلسنا نتعجبان أطراف الحديث ، من قديم في الزمن وحديث ، إلى أن صارت الليلة في أخريات الشيا ، فاستهانت بالإزار والنقاب ، ثم دب المشيب في فودها^(١) ، وبان أثر الوضع^(٢) في جلدها ، فصبئت بالعقود والقلائد ، من الجواهر والفرائد ، ونزعت من صدرها كل منشور ومنظوم ، من درر السكواكب والآلي النجوم ، وألقت بالرفقدين من أذنيها ، وخلعت خواتيم الثريا من يديها ، ثم إنها مزقت جلبابها ، وهتكت حججها ، وبرزت للتناظرين عجوزاً شمطاء ، ترنم متوكئة على عصا الجوزاء ، وتردد آخر أنفاس البقاء ، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء ، ودرجها الصبح في أردبته البيضاء ، ثم قبرها في جوف النضاء ، وقامت عليها بنات هديل^(٣) ، نأحة بالتسجيع والترنيل ، ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء ، وتغير النحيب بالغناء ، لإشراق عروس النهار ، وإسفار مليكة البدور والأقار ، وما نشمر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس ، الموعد الذي كان بيننا من أمس ، فسألتنا كيف أصبحنا ، وهل نعمنا واسترحنا ، فأخبرته بما كان ، من اتصال السهر إلى الآن ، وما كانت تجري عليه المسامرة ، وتدور به المذاكرة ، وجملتها أن الباشا لا يزال يدهش مما يراه في رحلته ، ولم يكن له أثر في أيام دولته ، ويستخبرني عن سرعة هذا الانتقال ، من حال إلى حال ، وما الأسباب والعلل ، في انتشار هذا الفساد واختلال ، فذكرت له بعض ما حضرني منها ، وما علمته عنها ، وإنك

(١) الفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن (٢) الوضع : يبايض الصبح

(٣) بنات هديل : الحائم

خلق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح ، ونخبرنا بما عندك من السبب الصحيح .

(الصديق) — السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية بغثة في البلاد الشرقية ، وتقاليدهم الشرقيين للفر بين في جميع أحوال معاشهم ، كالصبيان لا يستشيرون ببحث ، ولا يأخذون بقياس ، ولا يتبصرون بحسن نظر ، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع ، وتباين الأذواق ، واختلاف الأقاليم والمعادن ، ولم ينتفوا منها الصحيح من الزائف ، والحسن من القبيح ، بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة والهناء ، وتوهوا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والمعادن السليمة ، والآداب الطاهرة ، ونبدوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً ، فأنهدم الأساس ، ووهت الأركان ، وانقض البنيان ، وتقطعت بهم الأسباب ، فأصبحوا في الضلال يعمهون ، وفي البهتان يتسكعون^(١) واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً ، وقضاء مرضياً ، وخراباً بيوتنا بأيدينا وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب ، وإن بيننا وبينهم في المعاش لبعد المشرق من الغرب . (الباشا) — قد يكون ذلك ، ولكن لست أدري لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية ، وارقدوا بلباسها ، ولم يلتفتوا يوماً للرجوع إلى سابق مدينتهم الصحيحة وعمرانهم القويم ، فهم أهل السبق في ذلك كله ، وعندهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون في كل زمان ومكان .

(الصديق) — لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر ، وما يتولد عنها من طول التواني والتواكل ، وسوء التراخي والتخادل ، ففعلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرم ، ولم يكثرؤا للمستقبلهم ، وقعدت بهم همتهم عن مشقة التكليف التي كان ينهأ أسلافهم بإحتمالها ، ويتفاخرون بممارستها ، وراقهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جد ولاكد ، فعظم مقدار أهل الغرب في

(١) تسكع الرجل : تمادى في الباطل .

أنظارهم ، وتوهموا أنهم من طبقة عالية قوتهم ، فخصعوا وذلوا ، وقهر الغريبيون وغلبوا .
(الباشا) — ألا ليت شعري كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر في أصول
الدنية الغريبة ظاهرها وباطنها ، وأن أقف على خافيتها وباطنها في أرضها وديارها ، ولكن
بددت الشقة وعز المطلب .

(عيسى بن هشام) — لانسبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب في يوم من
الأيام ، فإنه لا يزال يدور في خاطري أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغريبة نجتني منها
نموات العلم والبحث ، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له أمرنا .
(الصديق) — وأنا إن شاء الله معكما .

قال عيسى بن هشام : ثم قمنا وعقدنا النية ، على تحقيق هذه الأمنية ، ونسأل الله أن
يسلك بنا سبيل الهداية ، في المبدأ والنهاية .



الرحلة الثانية



باريس

قال عيسى بن هشام : سبحان من لا تجري الأمور إلا بتقديره ، ولا تنفذ العزمات إلا بتيسيره ، فقد يسر الله لنا الرحلة إلى الديار الأوربية ، لنشهد مظاهر المدنية الغربية ، وباقنا من سفرنا المدى ، فأقمنا بباريس العوا ، وشرعنا نحبب منها الطرقات الجامعة ، والساحات الواسعة ، فلا القبانل تُدعى وتُهرع ، ولا الجيوش تحشد وتجمع ، ولا الموقى وهم يُنشرون ، ولا الخلق وهم يحشرون ، يُضامو ما القوم فيه من ازدحام واقتحام ، واصطدام والتحام ، متدققين في سيرهم تدفق السيل ، تحت أضواء تحت آية الليل فلا ليل ، يُخشى فيها على الأبصار ، أن تمشو من شدة الأنوار ، وربما اتخذت بها الديكة فأخذت في الصباح ، إذاناً بانبلاج الصباح .

فإذا نظرت إلى الشارع من الملو ، لم تبال بالملو ، إن قلت بحر مسجور^(١) ، قام عليه شاطئان من نور ، وإذا أبصرت من أسفله عند أوله ، قات أمراة الدو^(٢) ، تصعد إلى الجو . بين الكواكب الزهراء ، من كرات الكهر باء ، والبيوت عن حافته تشارف جو السحاب ، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب ، فارعة باسقة ، متلاصقة متناسقة ، كأنها ل انتساقها سطور الخط ، والأزهار على جذرائها شكل ونقط ، فأين منه ما بناء لفرعون فسان ، وشاده جن سليمان اسليمان ، ورفعه سماراً للنعمان ؛ وأين شماريخ ثبير^(٣) ، من سفام لغير ، ومعارج الجبال ، من مدارج النمال ؟ لا بل أين البحر العباب ، من لامع السراب ، وأجرام الكواكب ، من بيوت العناكب ؟

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف للتلاطم ، والمأزق المتراحم ، من كل شيخ وكل ، وصبي وطفل ، وفقى وفتاة ، بين ركبان ومشاة ، والألوف من صنوف المعجل تخرق صنوف الناس ، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس ، طائرة بقوة الكهر باء أو البصار أو الأفراس ،

(١) المسجور : الارتفاع الأمواج (٢) الدو : الفلاة . (٣) شماريخ : رؤوس الجبال ،

ثبير : جبل معروف

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

وكل سائر منهم في اضطراب العصفور ، وتلفت القطا المذخور ، إن خائته لفتته ،
أدر كته منيته ، وإن عثرت قدمه ، هريق دمه ، وإن شمخ شامخ بأنفه ، وقع في حنقه ،
فهم يتلمسون شاكلتي الطريق ^(١) ، كما يتلمس الشاطئ الفريق ، والحوانيت على الجانبين ،
متبرجة ببذائع البضائع ، ونفائس الصنائع ، تغوى الزاهد فيشتبهها ، وتغرى الشحيح فيشتريها ،
والحانات من بينها تملأ بالنفوس ، مشحونة بالجلوس ، في يد كل واحد منهم كأس الصمياء ،
وفي الأخرى جريدة المساء ، ونحن في هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول ، من هول
الدهش والذهول ، وتطير منا الأبواب ، من شدة الوجل والاضطراب .

في ساحة لو أن لقمانا بها وهو الحكيم لكان غير حكيم

ومال بنا طلب الراحة ، إلى حان في تلك الساحة ، فلم نجد به مكاناً خالياً من الزحام ،
فحكمتنا مدة واقفين على الأقدام ، وكدنا نذهب عنه آيسين ، لولا أن تحرك بعض الجالسين ،
فذهبوا لشأنهم ، وحلفناهم في مكانهم ، وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين ،
وأجناس المارين ، فإذا عدد ربات الحجال ، يربو على عدد الرجال ، من كل ذات حسن
وجال ، وتبه ودلال ، وقد متأود ، وخد مؤتورد .

تختال في موقوف الألوان من فاقع وناصع وقان

وهن يرفلن في الوشى ، ويسرعن في المشى ، ويبارين في رفع الفضول ، من الأطراف
والذيول ، ويضربن الأرض بأرجلهن ، ويحززن ما استطن من خلأهن .

وييسمن عن دُرّ تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمبسم

وينشرن من الأرج والطيب ، مثل نشر الزهر في الغصن الرطيب ، ويرسلن سهام
الميون ، فيحركن سواكن الشجون ، ويسلطن من الاحاظ القواتل ، ما يدمى حبات
القلوب الغوافل .

إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسير أجفان وكف تسلّم

وأصناف الباعة يكثر من العدو والرواح ، ويهيجون في النداء والصياح ، بمثل الغوا
والنباح ، دائبين في الإلحاف والإلحاح .

(١) الشاكلة : الناحية والجانب .

ولما أقمنا هُنيئة ، أخذ الباشا كعادته ^(١) في السؤال ، يَسْتَجْلِيْ مِنَّا واقعة الحال ، ويقول : ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد ، عند أهل هذا العالم الجديد ، أو هم في نظري سكان مهاجرون ، أو جند قافلون ، انتهوا من حومة المنايا ، بالغنائم والسبايا ؛ فأقول له : لا بل هي كما يصفها الواصفون ، ويعرفها العارفون ، تلك المدينة الفاضلة ، أم المدينة الكاملة ، مهيطة العمران والحضارة ، ومظهر الزينة والنضارة ، وموطن العز والمجد ، ومصدر النخس والسعد ، بل هي تلك عندهم إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، لو رآها صاحب الإيوان ، كسرى أنوشروان ، لم يفخر على الدهر ، بأوان ولا قصر ، ولحككم بأن «المدائن» ليسها سبب ^(٢) فقر ، ولو نظرها قبصر الرومان لأقسم أن رومية ، وهي عنده عاصمة الدنيا ، قرية ليسها من الطبقة الدنيا ، مثل التي ذكرها في كشفه عن طماعيته ، قبل ولايته ، إذ قال : أفضل أن أكون الأول في أدنى قرية ، ولا أكون الثاني في مدينة رومية ، ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان ، لم يقل فيما دبر من الزمان . أحمد الله على نعم ثلاث يمجز عن حمدها اللسان ، ولا يقوم بحققها شكران : أن خلقني من نوع الإنسان لا من نوع الحيوان ، ومن جنس الرجال ، لا من جنس النساء ، ثم جعل نسبتي إلى «أثينا» عاصمة اليونان ، دون سائر البلدان ، ولو أطلع عليها هاروت وماروت ، لم يُعَارِبَا في أن يابل عندها فلاة سبوت ^(٣) .

كجنة الخلد أسر من رأى قتر ذري «الخلد» و«سر من رأى» ^(٤)
 هذه هي اليوم بيت العلم والفضل ، ودار السلام والعدل ، ومعهد الحق والانصاف ، ومهد الاتحاد والائتلاف ؛ هذه هي المدرسة التي يشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان ، ويتلقى الإنسان عنها حقوق الإنسان ، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان ، ولكل إنسان وطن ، وهي لكل وطني وطن ثان ، لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من قدر ، ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر ، فقد كفت عن الناس عاديات المظالم ، وكفتمهم باثقات ^(٥)

(١) العاد : العادة (٢) السبب : الفاقة والأرض البعيدة للذي (٣) السبوت : الفجر

(٤) الخلد : قصر للنصور . وسر من رأى : بلدة بناها المعتصم العباسي شمال بغداد .

(٥) الباثقات : جمع باثقة . وهي الداهية

المفارم ، وعلمتهم كيف تؤتي المكارم ، وتجتنب الأوزار والمحارم ، وكيف يعيش البشر في دار الشقاء ، عيش السعادة والهناء ، تحت ظل « الحرية » و « المساواة » و « الاخاء » . إذا ناداهم الظلوم من أى جنس وأى قوم ، أجابته : لبيك مات الظلم فلا ظلم اليوم . وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرفاد ، ويواصلون السهاد ، ويصرفون الحياة في الجد والعمل ، ولا يفتنى بهم أمل إلا إلى أمل ، فليس على همهم شئ لا بمحال ، في كل حال ، يذيبون بمرأئتهم صلب الحديد ، وتلين لأشارتهم صم الجلاميد ، ويذيبون الهواد ، ويكتبون على الماء ، ويفتلون الجبال من الرمال ، ويزيلون راسيات الجبال ، برائشات النبال ، وينضبون الدأ ماء ^(١) يمتتح الدلاء ، ويبحون آية الليل فلا تبلغ فيهم أمداء ، ويعملون النهار دائماً عليهم سرمداء .

أولئك الناسُ إنْ عُدُّوا بأجمعهم ومن سواهم فلكم غير معدود
والفرق بين الورى جمعاً وبينهم كالفرق ما بين معدوم وموجود

أقول قولى هذا ، والباشا ينصت ويتأمل ، و « الصديق » يتبرم ويتملّل ، فالتفت إليه استخبره الخبر ، عن سبب هذا الضجر ، فما أتمت عليه أحرف السؤال ، حتى نهال علينا في المقال ، انهيال السيل من مشرف عال :

(الصديق) — تالله لقد سئمتنا وملنا من سماع مثل هذه المبالغات ، وتردادها على آذاننا في وصف هذه الديار ، ونحن في ديارنا الستين والأعوام ، وأولى ما يوصف هذا الوصف للفائب عنها لا للحاضر فيها ، وأنت رجل بحدث نبأ ^(٢) من ذابك استغباط الغوامض واستجلاء الدخائل ، والزم ما يكون لنا الآن أن نجمل فكرنا مجرداً عن مثل هذه الأوصاف والآخبار ، التى شحنت خيالنا زمناً طويلاً ، فنسأها ولا نذكرها ، ليكون حكماً على المشاهدة والعيان خالياً من مقدمات سبقت على القيب ، ورسخت في أذهانتنا بالخبر ، وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتحصيل ، ولا يباشرها في الغالب إلا مضطراً مقسوراً ، لما في التسليم المطلق والتصديق المعجل من

(٢) نبأ : مقب

(١) الدأ ماء : البحر

راحة الفكر وسكون البال ، وربما ارتسم في خياله أمر استحسنه بالخير ، فيركن إليه ويردُّ كل ما يردُّ عليه من قبيله إلى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه — والأذن تهشق نبل العين أحياناً — كما أنه إذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس ، ولذلك ترى العاشق يردُّ كل ما يصدر عن معشوقه إلى الحسن ، وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل ، الميل الأول والاستحسان السالف ، واستمداد لوح الرضا والقبول في نفسه ، لا نتقاشه فيه ، ومن هنا جاء قولهم :

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلَةٌ كما أن عين السخط تُبدي المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولم تسم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه ، فإذا سُمِّيت له أبا تمام مثلاً أو أبا الطيب ، ارتد إلى الاستحسان ، وأخذ يتحصل القاتل البيت عذراً ، إن كان في البيت ما يستهجن حقيقة ، وما كان ذلك إلا ليلاً اطمانت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر عن هذين الشاعرين .

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذي يناله الإنسان في دنياه ، إن صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس ، ومعنى النحس والنقص والإدبار ، إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح ، والشاعر يقول :

إذا أقبل الإنسان في الدهر صدقتْ أحاديثه عن نفسه وهو كاذبٌ

فبالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه ، وقد عهدنا الغربيين عموماً ، وهؤلاء الفرنسيين خصوصاً ، لا تصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا بتمجيد مدنياتهم ، بمباهاة الناس طرّاً بنظام معيشتهم ، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر ، وأن الهدى مداهم ، والضلال فيمن عداهم ، وأنه أوحى إليهم من سماء مدنياتهم أن يخرجوا الناس من ظلمات إلى النور ، فإما الإيمان بها وإما الحسام ، وقد ذاعت فينا دعوتهم ، وأعانتهم منا على نشرها من أعانهم ، فقبلنا مبايعاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر ،

وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب ، وبسطنا لهم تخيفة الاستحسان من النفس ، يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويجهلون به علينا .

فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا ، وننظر اليوم إلى الأمور في حقائقها ، ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوَّله الخيال في تقوسنا ، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجباً عن هذه الدنيا الدهر الطويل ، فبقى خالي الذهن مما شحن رؤوسنا من هذه المدنية ، فحكمه اليوم على ما يشاهده بالعيان ، دون النظر والرواية ، يكون أوضح حكم ونظرة أصدق نظر ، وما علينا إلا أن نشاركه في صحة النظر مجردين عن الهوى ، حتى نقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوقاً تاماً .

(عيسى بن هشام) — لك الله فيما تبدي ، وتفيد ! اكانك تريد أن نخالف الإجماع ونقابل الناس بغير ما ألفوه ، فننتقد لهم ما هو خال عندهم من انتقاد ، بعيد من الزام والعار ، فيرموننا بغلظة الطبع ، وجفاء الفهم ، وسخف الرأى ! ثم لا يفوتك أن كثيراً من ذوي الرأى يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يُروى .

أو ليس من صواب الرأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذه البلاد ، فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم ، وأن نصف ما القوم فيه من القوة والمنعة ومظاهر المز والاعظمة في النعيم المقيم ، وأننا لا نزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والجمول ، يقولون قسبح ، ويأمرؤن فنهدع ، ويقسمون أرواقنا فنشكر ، وينقصون من أرضنا فنحمد ، ويحتلون ديارنا فنقبل ، أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم إلى مرتبتهم في الوجود ، ونطنب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم ، لنحذو حذوهم ، ونعمل على شاكلتهم : أو ليس الأليق بنا أن نحض قومنا ، لينفضوا عنهم غبار الكسل ، ويخلصوا عنهم ليلس الجمول ، ويهيموا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكالات ؟ أو لست ترى ، من أفضل الأبواب في الحث والتحريض ، أن نقحم ما استطعنا في وصف هذه المدنية ، ونظمها

في أعينهم ، ونكبرها في صدورهم ، ونبكتهم بأحاديثها ، ونرفع من قدرها بقدر ما نحط من قدرنا ، ونعيرهم بالمقارنة ، ليكون الحث والتحريض على المبارزة أشد ، والإثارة إلى اللحاق بهم أبلغ ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ، ولم يعيره بسبق غيره عليه ، أكانت تراه يجحد في الأخذ ، ويجتهد في التحصيل ؟

(الصديق) — لا يعزب عن فطنتك يادى. الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكى عن طريقته ممن زار هذه البلاد من أقوامنا ، وعادوا إلى بلادهم فحدثوا عنها ، وكتبوا وقرروا وحكموا ، ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول منهم : الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم ، وهؤلاء لما هم فيه من غلواء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر ، ولا متسع ثمة عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة ، وداخل تحت حكم الرذيلة عند النظر في معيشة أهل هذه المدينة الغربية ، بل هي تتجلى لهم في صورة معظمة ، يأخذونها على الجلّة زاهية زاهرة ، حتى إذا انقلبوا إلى أهلهم ، رويوا لنا عنها مثل حديث المغرم عن مشوّته في أوقات نشوته ، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر من آثار تلك المدينة العظيمة مما تحف مؤنّته وتبهون تكاليفه ، ليملحّقوا بأنفسهم شيئاً من تلك العظمة التي بهرت خيالهم وبهزوا بها أعين الناس ، ولسنا من أهل هذه الطيقة .

والقسم الثانى : جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواها ، فهم لا ينظرون إلى هذه المدينة إلّا من وجه تطابق العيان على الخبر ومن بحث منهم فأنكشف فيها عيب ، كره تغيير الرأى ومخالفة المهود ، لما فيه من المشقة والكلفة ، ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعاييب ، والتبسط في الحسكاية عنه من فضل على السامعين والمستخبرين ، ولسنا من هذا الصنف .

والقسم الثالث : طائفة من أرباب الوظائف في الحكومة يقرون إلى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد ، ومنهم من تلقى دروسه فيها ، وحكمه حكم الذين ذكرناهم في القسم الأول ، وفيهم من لم يتعلم في أوروبا ،

فهم يسرون على نهج المبارقة للفتعلمين فيها ، صائرين على نملهم ، ليلتحقوا بهم ، ويحشروا في زميرتهم ، ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم ، وحكمهم حكم واحد أيضاً ، على أنهم ليس عندهم جميعاً من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يروونه ، فإن كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشغول الفكر ، مفسم النظر ، بين أمرين : عين تنظر إلى ما يفي في صحيفة إجازته من الأيام ، وعين ترمق ما بقي في كيسه من الدراهم ، واسنا من هذه الرتبة أيضاً .

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مواعون بالمبالغة في الوصف والغلو في القول ، ولا غرو فالتناس لا يزون لهم فضلاً في الرواية والنقل ما لم يضيفوا إليهما الكثير المقتري من عندهم ، والحكاية القريب وروايه العجيب لذة في نفس الراوي وحلاوة في أذن السامع . على هذا درج الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم ، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت والأغوال والسعالي إلى قصة « ألف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة » و « خريدة العجائب » .

وهناك قسم رابع ربما غص ودقق ووقف وعلم ، ولكن له هوى خالصاً به يمنعه من كشف الحقائق ، ويدفعه إلى المبالغة على القصد والغلو على العمد ، فلا يروي ما يرويه عن هذه المدنية إلا بالتشديد والتعجيد ، باطلاً كان أم حقاً ، لينصر مذهباً له معيناً وغرضاً مضمراً ، فيدأب بيننا كالأجير للأجنبي ، يرفع لنا من شأن مدنيته وقوة حضارته ، ليرتفع معه بارتفاعه ، ويتسلط علينا بسلطانه ، وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرته علينا ، وفي هذا القسم من يرى أن في استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لتقديم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه ، فهم في إشاراتهم بأمرها ونشيعهم لها ، وتبشيرهم بها ، كالمشيعين للمذهب والمبشرين بدين .

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين في قسم من هذه الأقسام ، وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا في سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب والاعتراض والانتقاد ، وأن نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضار ونافع ، ومموج ومستقيم ، على المشاهدة في منبت أرضها وترية نشأتها ، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يروى ، فدعنا حينئذ من

الفكر والافراق ، واتركنا من التخيل في النعت وتمثل الشعر في الوصف ، وخذنا بنا فيما عهدناه على أنفسنا ، وقد آن أن نسأل الباشا ، وهو ينظر إلى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى ، عما وقع عليه من التأثير في نظره الأولى عن هذا العالم الحديث عنده ، وعن جملة ما حصل منه في نفسه .

(الباشا) — ما أراني أُمير شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق الزدحم ، وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق في هذا الدَّوى المائل لدوى الخلايا ، وهذه الأضواء التي يتأذى منها البصر ، وجملة ما أنا فيه الدهشة والحيرة ، ولعل هذا هو الذي ينعنى من التمييز ، وكنت أود أن يقع اختياري على ناحية ما كنة من المدينة ، خالية من مثل هذا الزحام ، حتى نألف الديار وساكنيها .

(عيسى بن هشام) — ليس ما توده من هذا القبيل بميسور ، لأن الزحام منتشر في جميع أرجاء المدينة ، وهذه الحركة لا تنتهى الليل والنهار ، ولا أجزم أن عدد سكانها يُقدَّر ببضعة ملايين ، ولك أن تقول فيها إنها جملة بلاد متجمعة متشابهة يعمدونها مدينة واحدة .

(الصديق) — وفي هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد !!

(الباشا) — إن كان الأمر كذلك ، فلا بد لنا من مرشد يرشدنا وهادي يهديننا ، فنقف منه على ما يخفى علينا فيها ، وما يعمض من حقائق الأمور .

(الصديق) — ما إخالك واحداً لطلبتك ، قل أن تجد في أهلها من لا يسلك السبيل المعروف في تشييد مجده وشر مفاخرهم بما نحن في غنى عنه ، ولنا استفيد منه إلا كثرة اللغو وقلة المحصول .

قال عيسى بن هشام : وجاء وقت الطعام فقمنا إلى المطعم ، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة نبصرتنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم . فأنصتنا إليهم نتلف من أفواههم ما يخوضون فيه ، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشارة محلوق اللحية والشارب ظاهر التكلف في زيهِ ينمّ شكاه وحديثه على أنه أديب من كتّاب العصر ، وثانيهم رجل بدين منتفخ البطن أحمر اللون ينبئك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار ، وثالثهم شيخ جميل

النظر في وقار السن وريانة العلم ما يشك رائيه والسامع له في أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة ، ولَدَّ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمر المائدة ، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى باب ، ومن شأن إلى شأن ، حتى انتهى القول بهم في الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين ، فسمنا « الكاتب » يقول ، وهو يضرب المائدة بيديه والأرض برجليه :

(الكاتب) — لقد آن المدنية أن تزيل الحمجية وتمحو الوحشية من الوجود ، وأن تقوم بفشر الرسالة التي سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس ، فنصالح من شأن الإنسان في أي مكان كان ، ونفرض فيه أصول المدنية ، ونأخذ به تعاليمها ، لنفصل بالعالم الإنساني إلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة في هذه الحياة ؛ وإلا فامزية جهادنا في فنون الترقى والتقدم والتسابق في العلوم والفنون ؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع في أبواب الصناعات والآلات ؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية ، ونعد هذه القوى العسكرية ، ليقتل بها بعضنا بعضاً ، ونخرّب بيوتنا بأيدينا ، فبُست العلوم والفنون ، وبُست ما سخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا ، إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية إلى فظاعة الوحشية .

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممهم أن يتحد بعضها ببعض فتتصرف بكليتها ، وتندفع بجميع قواها ، التي شيدتها لها أفكار العلماء وذوى المعارف منا إلى تهذيب بقية أهل هذا العالم للقيمين على الجهالة إلى اليوم ، لتنتزعا من حضيض الحمجية إلى مقام الرفعة الإنسانية ، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسد نقصانها .

(التاجر) — نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا ، وإلا فكيف ينسني لنا تصريف بضاعتنا ، وترويج صناعتنا التي تقوم عليها معاشنا وتضيّق بها أرضنا إذا اجتراً أهل الصين على أن يقوموا في وجوهنا ويطلوا مصالحنا ؟ وكيف نُجهد أفهامنا في العلوم ، ونشقى ونتمعب ، وفي العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعون بها ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارها ورفع أستارها ؟

(الحكيم) — إن كان الكلام بينكما عن المدينة الصحيحة التي تقوم على الحرية
والمساواة والإخاء حقيقة ، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والاحسان ، وتوفر لهم أسباب
السلم والأمن في السعة والرخاء ، فلسنا منها في شيء . إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات
وحشد الجنود ، والتفنن في تشييد قُوى الحرب ، وإتقان ثروة الأمة في سبيل ذلك ، حتى
تضيق بنا الأرزاق في أرضنا ، فنعمل على طلبها في أنحاء السكونة ، ونسلط على أهلها هذه
القوى الحربية ؛ ولسنا من المدينة في شيء أيضاً ، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة
الأرض ، وصفوة البشر ، وأرباب الخلق ، فنحتقر بقية العالم ، ولا نرضى منهم إلا
بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم ، وأن يفوضوا إلينا أمورهم ، ويسلموا إلينا مقاليدهم ، ونكون
فوقهم كالأوصياء نصرفهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى ، وليست المدينة أن
نذهب إلى الصين في أقصى الأرض ، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه
ونظام يألفه ، فنقول له : قم فقد جئناك بالهدى والحق ، فهلم فكسر أصنامك ،
واهدم مناسكك ، واحرق كتابك ، وغير ثيابك ، وبذل طعامك ، وارفع حجابك ،
وكن أوروبياً في الصين القديم ، وغريباً في الشرق الأقصى ، فإذا قال لنا : لست أفقه شيئاً
نما تدعوني إليه ، ولا أدري ما هذا الدين الذي تبلغونني رسالته ، قلنا له : ليس هذا بدين
ولا بمذهب ، وإنما هي دعوة المدينة الغربية ندعوك إليها لتقرها وتتلبس بها ، فيقول لنا إن
كانت لكم مدينة غربية فلنا مدينة شرقية أسستها فينا تجارب القرون للتراكة ، وبقيت
فينا نقيّة خالصة هذبها الدهور وأخلصتها يد الزمان ، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق
والمعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقي ، وأنتم إن كنتم تؤرخون وجودكم في العالم
بسمة آلاف من السنين ، فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف ، وإن كانت مدينتكم بنت
قرن أو اثنين ، فإن مدينتنا بنت عشرات القرون ، اصطلحنا عليها وألفناها ، وطاب لنا
العيش بها طول هاتيك الدهور ، ومن دلائل المدينة الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام
لا يطمع أحد فيها ليس له ، ولا يغير على حق لغيره ، وقد علمت أننا عشنا دهرنا الطويل
لم نطمع في أرضكم ولم نثرحرباً لفتح ، ومن دلائلها أنها لا تنتهي بأصحابها إلى مفاسد الترف

والنعم فتضعف الأجسام ويقل النسل ، وقد علمتم أن بلادنا هي أكثر البقاع سكاناً وأعظمها عمراناً ؛ فنقول له : ما أضلّ أحلامكم يا معشر الصينيين ! ألم تعلموا بأن مدنيّتنا هي مدينة العالم كله لا سواها ، قامت على العلوم والمعارف ، واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم ، فما زالوا يتخبطون دون الوصول إليها ، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها ، فأخرجناها للناس هدى ورحمة ، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة ؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوة منا .

إن كانت هذه هي المدنية التي نفاخر بها ونساجل ، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب .

قال عيسى بن هشام : وتأتى عادة هيفاء ، تتثنى بقوامها ، وتتكسر في مشيتها ، فتخطب « الكاتب » بالعتاب ، لأنه أهملها في الانتظار ، وجلس للكلام والجدال ، وتسوقه أمامها بعضا المظلة ، ويتبعهما التاجر ، ويتبع الحكيم يرمى ثلاثهم بالنظر الشرر ، وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم .

ويلتفت إلى « الصديق » فيقول لى : ما أغرب ما ترى من هذا الشيخ الفرنسي ، فما أصلبه في قول الحق ، وما أجرأه على الجهر بالصدق ، وما أولانا بماشرة مثله نستبصر به ونسترشد ؟ فأرفع ببصرى إلى الشيخ ، فإذا هو يرمى بنظره إلينا ، ويستمع لحدِيثنا بالعربية ويظهر نحونا البشرى ، فقابله بابتسامة أخطب بها وده ، فبادرنا بالحديث ، واتصل بيننا حبل الكلام ، فسألنا عن أمرنا ، وسألناه عن أمره ، فتبين لنا أنه رجل من أساتذة الفلسفة والحكمة ، ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله ، وكشفنا له حقيقة أمرنا ، والغرض الذي رمينا إليه ، فاتفق معنا على المحادثة والمصاحبة نحكى له عن الشرق ونحكى لنا عن الغرب ، ودعانا لزيارة الممرض العام معه في القند ، فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد .

المعرض

قال عيسى بن هشام : وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم ، وسوق الأقدار والمهم ، ومشهد النفاس والمطامير ، ومظهر القوى والعزائم ، وحلبة الابتكار والابتداع ، وميدان الإنشاء والاختراع ، ومعرض التبصر والاهتداء ، في حسن التقليد والافتداء ، ولهذا المعرض خمسون باباً ، تختلف ابتعاداً واقتراباً ، قبلتناه من ناحية الباب المعظم ، والمدخل المقدم ، فإذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم ، تلامس بملوها الغمام ، كأنها اليفاع ^(١) ، في الاتساع والارتفاع ، ينحدر من تحتها الجيش المتراكب ، فلا تناس فيه المناكب ، وعلى كلا الجانبين ^(٢) سارية ، تقارن السحب غادية وسارية ، يدور في رأس كل واحدة منها نيراس وأنى نيراس ، إذا اشتمل جمل فحة الليل قبساً من الاقباس ، فكلتها علم في رأسه نار ، يستوى عندهما الليل والنهار ، ومن لصخر الخلساء أن يأتهم بهما في ظلة البيداء وهو المؤتم به في أبيات الرثاء :

وإن صخراً لتأتهم الهدأة به كأنه عجم في رأسه نار

فهما عمودا فجر ، لاعمودا صخر ، يكتنفان تمثال غانية غيداء ، قائمة على رأس تلك القبة الشماء ، رشيقة القد ، بارزة النهد ، محكورة أعناء ^(٣) ، مجدولة عجباء ، قد خامت الأزار والوشاح ، وتبدت في « قبص الصباح » ، وهي تضمة يديها إلى صدرها ، خشية أن يحاول التسميم هتكت سترها ، إذا عارض وجهها القمر ، علا وجهه الكدر ، ثم بان فيه السكاف والمش ، فاحتجب بالغمام وانكش ، وغارت منها الزهرة ، غيرة الضرة من الضرة ، ففارت في الدجون ، وغابت عن الميون ، لو قام نابغة بني ذبيان من قبره ، لشهد أنها الدمية التي وصف بها المتجردة في شعره :

(١) اليفاع : التل المرتفع (٢) البارية : الأسطوانة والعمود

(٣) المحكورة : المدججة الخلق . والفاء : المنثلة السابقين

أَوْ دُمِيَّةٌ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٌ بُنِيَتْ بِأَجْرِ إِشَادٍ وَقَرْمَدٍ^(١)
 أَوْ دُرَّةٌ صَدَقِيَّةٌ غَوَاصُهَا بَهِيَجٌ مَتَى يَرَاهَا يُسْهِلُ وَيَسْجِدُ
 لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ^(٢) رَاهِبٍ عَبْدَ الْإِلَهِ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدٍ^(٣)
 أَرْنَا لِرُؤُوسِهَا وَحُسْنِ قَوَامِهَا وَنَخْلَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرشِدْ

فقد أقامها الصنّاع آية الفن في التصوير والتشكيل ، وشاردة الشوارد في الرسم والتمثيل ، يُحَيِّلُونُ بِهَا « فرنسا » في ترحيبها بالزائرين والقاصدين ، تحيتها للواردين على المعرض والوافدين ، والباب كله مرصع بمخفاق من البلور^(٤) ، إذا تلالاً فيها شعاع النور ، خلتها أنوار الأزهار في أغصانها ، أو أذيال الطواويس في اختلاف ألوانها ، بل قلائد منظومة من در وجوهر ، وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر ، لا بل فصوصاً مُنْقِصَةً من اللامس ، يترامى فيها طيف الشمس بالانعكاس .

ولما تجاوزنا الباب ، انتهينا إلى سهل رحيب ، ووادٍ عريض ، نبئت أرضه بالقصور المنيفة ، كما نبئت الروض بالأغصان الوردية ، نضل فيه الحداة ، وتحار الهداة ، ولا بدع فالمدينة في اتساعها قطر من الأقطار ، وهذا المعرض في سرتها مصر من الأمصار ، وما زلنا سائرين على أرض تزهو فيها أغراس الجنان والبساتين ، وأزهار الأغصان والرياحين ، يتخذها من الدثمي والثاميل ، ما يهرب عن الدقيق من المعاني والجليل ، فتكاد تبادرك بالخطاب ، أو تردّ رجع الجواب ؛ ولما امتلأت العين من هذه المحاسن الشامة ، وجنّ اللب من هاتيك المناظر الرائعة ، التفّت إلى أصحابي أتلفس ما يجري في خواطرهم ، وأنحسّس ما يدور في ضمائرهم ، فرأيت الباشا يتأمل ويحدق ، ويمن ثم يطرق ، وإذا هو يقول في همسه ، وحديثه لنفسه : لله أبوه ، ما أبعد شأوهم في التشديد ، وأجل شأنهم في الإنشاء والتجديد ، وما أسبقهم في الجد والاجتهاد ، إلى التوسع وحب الازدياد ، وما أشغلهم بما يكنى الإنسان أقله وأدونه ، ويكمل راحته أصغره وأهونه ، ولو تيقن ابن آدم أن القبر غايته ،

(١) القرمذ : كل ما يطلى به (٢) الأشمط : الذي خالط سواد شعره بياض

(٣) الصرورة : الذي لم يتزوج (٤) البلور : نوع من الزجاج

لم تخفق على القصور رايته ، ولكن هه يحفر القبر ، أعظم من هه بنشيد القصر ، فمقامه هناك طويل ، وبقاؤه هنا قليل ، ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة في الشرفات العالية ، لا تلبث أن تنتقل صفائح في القبور البالية ، لم يعمل عمل الخلدن ، وهو بين أظفار المنايا رهين .

تبني المنازل أعماراً مهدمةً من الزمان بأنفاس وساعات

ووجدت « الصديق » في هذا الموقف على حال لا تتغير ، وهيئة لا تتأثر ، ينظر إلى ما استمطه نظرة الفلاح إلى قريته ، والبدوي إلى ديمته ، لا يحبه شيء ولا يزدنيه ، مما تحار أحلام الوري فيه .

لا معنى بكل شيء ولا كل عجب عنده بعجب

إلا أنه مع ذلك غير هادي البال ، ولا ساكن البلبال ، كأنما هو يفرص على معنى يدق في القهم ، ويبحث في أمر يجل عن الوهم ، ويستجمع لديه حواشي التفكير ، ويلم أشات التذكير ؛ فاستخبرته عما يشغله ، وسأله عما يذهله ، فلم يسعف بالجواب ولم يسعد ، غير أني سمعته يترنم وينشد :

ما أقل اعتبارنا بالزمان	وأشد اغترارنا بالأمان
وقفات على غرور ، وإقدا	م على مزلت من الحدائق
التفاسنا إلى القرون الخوال	هل ترى اليوم غير قرن فان ؟
أين رب السدير فالحيرة المي	ضاء ، أم أين صاحب الأيوان ؟ ^(١)
والسيوف الحداد من آل بذر	والقنا الصم من بني الزيان
يكرعون المقار في فلق الإ	ربز كرع الظماء في الغدران ^(٢)
من أباء اللعن الذين يحيمو	ن بها في معاهد التيجان ^(٣)
تترأههم الوفود بعيداً	ضاربين الصدور للأذقان

(٢) الفلق : جمع فلق بالكسر ، وهي القطعة .

(١) قصران معروفان

(٢) أباء اللعن : الملوك الذين يخاطبون بأبيات اللعن .

في رياض من السماح حَوَالِ وجبال من العلوم رِزَانِ
وَهُمُ الْمَسَاءُ لَدَى لَمَطِشَا نِ بَرْدَا والنارُ لِلخَيْرَانِ
مَا ثَلَّتْ عَنْهُمْ الْمَنُونُ يَدُ شَوْ كَاهُ أَطْرَافُهَا مِنَ الْمُرَانِ^(١)
عَطَفَ الدَّهْرُ فِرْعَاهُ فَرَاهُ بَعْدَ بَعْدِ الذُّرَا قَرِيبَ الْمَجَانِ
وَتَتَّهَمُ بَعْدَ الْجَاحِ الْمُنَايَا فِي عِفَانِ التَّسْلِيمِ وَالْإِذْعَانِ
لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرَى فِي إِبَاءِ أَوْ عَاجِزٍ فِي هَوَانِ

ورأيت الشيخ « الحكيم » يهز كتفيه ، وينظر في عطفه ، ويقول في التفاته إليها ، وانعطافه علينا : ما أشبه الأواخر بالأوائل ، في التفاخر بالباطل الزائل ! لا يظن ظان أن كل ما يراه من هذا المشهد الفخيم ، ويستعظمه من البناء الضخم ، بما أتفق عليه من الأموال الطائلة ، وما اقتضاه من المشاق الهائلة ، حيدوم السنين والأعوام على الدهر . وإنما بعد بقاؤه باليوم والشهر ، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران ، إلا هذان القصران ، وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما في ارتفاعهما ذروتا جبلين ، وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم ، وأنا أنقل له وأترجم :

(الباشا) — وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا المعرض ؟

(الحكيم) — اشتركت الحكومة في الإنفاق عليه بمشرين مليوناً من الفرنكات ، وبلدية باريس بمشرين مليوناً ، وتألفت جمعية اشتركت فيه بستين مليوناً أصدرت بها خمسة وستين مليوناً من التذاكر لأيدي الناس تحت ضمانات البنك العقاري .

(الباشا) — وما الغرض منه ؟

(الحكيم) — الأصل فيه الكسب والربح ، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجابة والابتقان ، ليتضاعف الجهد والاجتهاد ، وتتسابق الهمم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية .

(الباشا) — وهل تظنه يأتي بربح عظيم ؟

(الحكيم) — كان أمل الربح منه عظيماً ، ولكن خاب الظن فيه ، فإن الشركة قدّرت عدد الزائرين والمترددین عليه بخمسة وستين مليوناً في مدة وجوده وهي مائتان وأربعة أيام ، ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها ، وقد بلغ عدد الشركات التي اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة إلى اليوم ، وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة « شارع القاهرة » ، ورأيتهم بليمون « معروضاتها » وأثابها بحكم المحكمة في ناحيه من نواحي المرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحاً جمعت فيه ما يكون في شوارع مدينتكم من لعب القرد ، والتواء الثمايين ، ورقص الزوج ، وتسريح الجبال ، وسوق الخمر ، فرأيت الجبال وهي ثلاثة تنباع بمائتين وخمسين فرنكاً ، وبيع الحمار من الأربعين حماراً بثمانية عشر فرنكاً ، وكان من ينظر إلى هذه الدواب ، وهي تعرض للبيع بهذه الأثمان في غير بلادها ، يتخيل من أعينها كأنها تنذب نحس طالعها ونحس قيمتها في غربتها ، ولا تسأل عن سوء الحال التي كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات وقد تداركهم « مأمور التفليسة » فخصص لهم مقداراً من الدراهم يُنفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم ، وعلى الجملّة فالتسارعة في هذا المرض عظيمة ، وأرى أنهم أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة الواحدة فيه إلا بقطع مسافة لا تقل عن عشرة كيلو مترات ، فوزعوه وشتتوه مع قلة الزائرين والواردين ، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيراً لهم .

(الصدیق) — أهذه الشركة التي تذكرها في كلامك هي « شركة المرض المصري »

التي سمعنا به ؟

(الحكيم) — لا ولكنها شركة أخرى فرنسية ، وليس من الضروري أن يكون أصحاب

الشركة من أبناء مصر .

(الباشا) — ولما لم تقدروا في هذا المرض حسابكم بما لكم في مختلف الأمور من

الدقة وصحة النظر ؟

(الحكيم) — كانوا يحسبون أن أمم العالم سترع إليه من كل فج ، وكانوا يستقدون أن أكثر ملوكها يقدون على المعرض فينتقون فيه خزائن أموالهم ودقائق كنوزهم ، فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك العرب ، ولم يزره إلا شاه المعجم من ملوك الشرق ، وكانوا قد دعوا إليه ستاً وخمسين مملكة الاشتراك فيه فلم يجبههم سوى ثلاثين منها .

قال عيسى بن هشام : وكنا وصلنا في هذه الأثناء إلى باب أحد القصرين المشار إليهما بالبنان ، المدودتين لمرض ما يسمونه بالفنون الجميلة ، وهو المعروف بالقصر الصغير ، فمولنا على البدء بزيارته ، فدخلناه فإذا هو ببنيانه وتشبيده وزينتِه وزخرفته ونقشه ورسمه يفوق كثيراً من قصور الملوك والقيصرة ، وناهيك أنهم أنفقوا في إقامته اثني عشر مليوناً من الفرنكات ، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظ عن الأوائل منذ العصر الروماني إلى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة إلى نقوش أبواب الكنائس ، ومن أواني الفخار إلى الحلي والجواهر ، ومن النعل المطرزة إلى التاج المرصع ، وهنا يعجز القلم عن الوصف والنعته ، والإحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتي من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان ، ولا يمكن أن يتجلى أثرها في نفس القارئ مثل أثرها في نفس الرائي . ولما فرغنا من دورتنا الأولى في القصر ، استوقف الصديقُ الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورأى من الطراف : (الباشا) — ما أرى إلا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه في الأسواق القديمة وبعضه في البيوت العظيمة .

(الحكيم) — اعلوا أن ماترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة في العالم لا تتداول كنهها الظنون . مثال ذلك أن هذه الساعة التي بجانبنا ، ولم تلتفتوا إليها في وقوفكم عندها ، قد رغب في شرائها بعض الأغنياء ، فساوموا بثلاثة ملايين فرنك ، فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلّة الثمن ، وما هي إلا كرة محمولة على أيدي ثلاثة هياكل من الرخام ، ولكن دقة الصنعة وقدم المهد أورتاها هذه القيمة العجيبة في الثمن .

(الصديق) — حقاً إن التحفظ على التحف القديمة والآثار المتينة حسنة من حسنات

أهل الغرب يُعْبِطُونَ عليها ، فإن النظر إليها يورث إحساساً جليلاً في النفس ، وذكر أجيالاً
عجدة الأمم العابرة ، ودرساً مفيداً في التاريخ ، كما أن في ذلك من حفظ السلسلة في الصناعات
ما يفيد الفكر ويساعد على الترقى في العمل ، وقد أهل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً
لا يفتقر لهم ، حتى اندثرت الآثار واندرست ، ولم نعد نعلم من كفايات المعاش عند المتقدمين
إلا الأسماء التي غابت عنا مسمياتها ، وقل لي بالله : أي شيء يكون اليوم أجهل في العين
نظراً وأجل في القلب وقعاً لو حفظنا ما ضيعه التفريط مثلاً من « درة عمر » و « حصصامة
معدى كرب » و « قميص عثمان » و « درع علي » و « تاج الرشيد » و « راية المعز » ؟
ولكنني أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا في هذا الباب غلوّاً كبيراً ، وذهب
بهم حب التنافس في اقتناء العتيق مذهباً يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان
هذه المقتنيات التي لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد ، وكم في هذا العالم المتمدين
من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكاً واحداً لقوت يومه ، بينما نرى أحد المولمين بالمقتنيات
يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام .

(الحكيم) — نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالات لجرد التباهي والتفاخر ،
مع حرمان الناس من أرزاقهم ، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفيننا لبسط القول
في نصرة المذهب الاشتراكي .

قال عيسى بن هشام : وأدركنا التعب والكلال ، وإن لم يكن يدركنا السأم والملال ،
واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون ، فغادرنا القصر وفي النفس منه بلايلٌ وشجون .

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام : وزرنا القصر الكبير ، بعد القصر الصغير ، أعنى الآية الكبرى ، بعد المعجزة الصغرى ، ناطقةً بما لا يُتصور من جمال الوضع ، وحسن الصنع ، فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز التي لم تجتمع لأحد من قبل ، ولم يظفر بمثها ملك في الدهر ولا قيل ، ما كنوز قارون عندها إلا من القرب والحصى ، ولا قُطِرَ « مارية » إلا من الخرز أو النوى ، وما طُوقُ « عمرو » ، إلا طوق أسر ، وما أسلابُ الاسكندر لسيها إلا من أطيار « المجاذيب » و « الأولياء » ، ولا وَثِي « دَار » إلا من فراء « العرفاء » والفقهاء ، وما أقلام البلغاء ، إلا منازل النساء ، إذا هي حاولت في وصفها تسليهاً ، ورامت لنصتها تحبيراً ، وماذا تقول في خزائن المسكونة تسكن في دَارَيْنِ ، وأفلاذ البسيطة مبسوطة بين جدارَيْنِ ، لو توزع بعض ما اختزنناه على الخلق ، لم يكف أحد بعدها في طاب الرزق ، ولم يشك شاك من عيش الحرمان ، ولم يبك باك من يؤس الزمان ، ولأصبح المحروم بين الورى غنياً ، وغدا اسم الفقر في الدنيا خيراً مطوياً ، وتسكوى الناس في الرتبة والقدر ، ولم يسلكوا فيما بينهم سُبلَ الحتل والقدر ، نعم ولم يُغَرَّ سالب على مسلوب ، ولم يفتك غالب بمغلوب ، ولم تُتقَرَف في العيش المآثم والذنوب ، ولم يبق للنفوس في الدنيا من مُشتهى ولا مطلوب ، فالقصران قائمان بفخران على الدهر ، بما ليس له به عهد من الثراء والوفر ، ومرتناً في أنحاء العُرف ، تتأمل التحف والطرف ، ومن أبدع ما اجتلاه النظر ، بين تلك الدرر والفرر ، معرضُ التأميل والصور ، فكذلك من صور براها الإتيان والأحكام ، تمثّل للحقول والأفهام ، ما لا يمثله تأليف الكلام ، وتشخص لك حوادث التسامح ومناظره ، كأنك كنت حاضرته وناظره ، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير ، ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير ، من مكنون الأهواء والأشجان ، بلفظ مبين من النقوش والألوان :

أراك المنى فتممتكنها وصاغ لك الطيف حتى انبرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس ، ويرقق حواشي النفس ، فتتولاك هزة الطرب
لرويتها ، وتمتريك نفحة السحر من هيبتها ، فتكاد تنق للغارس المقتول ، وتطف على الواله
المبول ، فتترحم على قتيل الرمح والحسام ، كما تستغفر لشهيد الهوى والقرام ، وتستبيك
الفتاة الحسنة ، والكاعب العذراء ، فتصبو إلى محبتها ، وتطمع في مودتها ، لولا عيون
الرقباء من أهلها . وهم ضاربون من حولها .

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق ، عريقة الحسن والعتق ^(١) ، يتألق على وجهها
نور العفاف والصيانة ، ويبدو على محياها خصال الرزانة والركانة ^(٢) ، مع قوة الشكيمة ،
وثبات العزيمة ، قد وطئت تحت أقدامها غولاً من الأغوال ، لها مائة قم للنش والاعتقال ،
وطمنتها بالرمح في أحشائها ، فأوردتها مورد فنائها ، وعلى رأس الغادة قوَج من ملائكة
النصر ، يتوجونها تاج العز والفخر ، وتلك هي صورة « الفضيلة » في مصارعها « للزبدلة » ،
وعن يمينها حُرَّةٌ بارعة الجمال ، بادية المهابة والجلال ، ترمقها يمين المستبشر بغفر حزبه ،
والغضب بنبيل سؤله وإربه ، وتلك هي « الحكمة » التي لا تُفان الفضيلة إلا بها ، ولا تدرك
إلا بخالصها ولبابها ، وعن شمالها حُرَّةٌ أخرى ، يتلألأ في غرتها نور المعرفة واليقين ، وقوة
الإدراك والتسكين ، تحمل على كتفها طفلاً في سن الرضاع ، وتمسكه في يده شبه القلم أو
البراع ، وهي تنظر إلى « الفضيلة » نظر التوقير والتعظيم ، في موقف التمجيد والتكريم ،
وتلك صورة « العلم » وفضله ، وذلك الطفل صورة الإنسان في جهله .

وترى امرأة نَصْعاً وضعت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتضمه ، وكأنها تقبله وتشمه ،
ومن حولها أطفال عراة تجذبهم إلى حجرها ، وتستترهم بفضل إزارها ، وعلى يمينها سمات
النبطة والارتياح ، وعلامات الرضا والانشراح ، فيكاد يلوح فيها ما حوته يد الزمان ، من
براعة الحسن والافتتان — وتلك صورة « الخير والإحسان » .

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد ، وخريدة من أبهى الخرائد ، كأنها المهابة في
المخائل ، والظلمية في الشمائل ، يطول شعرها فضل الأزار ، ويريك الليل في وضوح النهار .

(١) الركانة : الوفاة

(٢) العتق : خلوس الأصل والجمال

بفرع يُعيد الليل ، والصبح يُنيرُ وجهه يُعيد الصبح ، والليل مظلم
تبدت في ملتف غابة أغصانها من العود والند ، وأغراسها من البنفسج والورد ،
فالأرض مفروشة بمتشور الأزهار ، والسقف معروشة من أغصان الأشجار :
فهي تحتال في زبرجدة خضراء تُفدى بلؤلؤ منشور
وغدت كل رهوة تشتهي الرق من ثوب من النبات قصير

وقد نثرت الشمس عليها مثل ثمار العرائس ، بدنانير تضي أیدی اللوامس ، كما عي
المتني بمثلها من قبلها ، وهو يجتاز شيب بوان ، ويصف فيه التفاف الأغصان :
فسرت وقد حجبته الحر عنى وجن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تقرأ من النبات

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التفريد ، وترديد التشيد ، كأنها تجابوب الفتاة في
سؤالها ، عن أوبة خيالها ، بأن لكل حمامة منا شوقاً ينازعها ، إلى ألف يضيعة ، فيشتد
بالفتاة الواع والهيام ، وتشترك في الهديل مع الحمام ، وتلك هي « الطبيعة » في جمال الفطرة ،
وجلال القدرة .

وترى « هوميروس » آدم الشعر اليوناني وهو أعمى البصر ، متلفعاً بالشوى والخبر ،
تضي لحيته بنور المشيب ، ويملا العين بالمنظر المهيب ، متربماً على سرير الملك ، ملك
الأشعار ، لا ملك الأقطار ، وسلطان الأوزان ، لا سلطان البلدان ، وشعراء الجن يكلونه
بأكاليل الانتصار ، وشعراء الأنس بين يديه في موقف الإعظام والإكبار ، من « هيرنون »
و « إسكيل » و « هوارم » و « فيرجيل » ، وعن يمينه أبطال الشجعان ، وفرسان الزمان ،
من روى الشعر أنباءهم وخلد النظم أسماءهم ، وهم على سمة الخضوع ، وهيئة الخشوع ،
من « أشيل » و « اسكندر » و « إينيه » و « قيصر » ، وعند رأسه كاعبان ، كأنهما
اللؤلؤ والمرجان ، متفتقان في جمال الوجه والجسم ، وإن اختلفتا في الشكل والرسم ، هما الفنان
الذان ابتكرهما في الشعر ، منذ شبيبة الدهر ، والشعراء في وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما ،

وَيَنعمون بقرعها ، والقيانُ من حوها صفوف ، يضر بن بالمزاهر والدقوف ، ويوقن النغم والحنن ، على ذلك النظم والوزن .

ومن لنا بهذا الشاعر وأمثلة من الأولين الأقدمين ، والسافين المتقدمين ، يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الألواح والمهارق ، فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق .

ولما أقفنا قليلا من نشوة الاحجاب والازدهاء ، واقتربت زيارتنا من الانتهاء ، إذا نحن برجل أمامنا رث الثياب ، خلق الجلباب ، كأنه المعنى بقول القائل ، من شعراء الأوائل

أخو سفر جواب أرض تقاذفت به فلوأت فهو أشعث أغبر

وقد اختلط شعر جبهته بشعر لحيته ، فاختفت بينهما مقاطعه وملاحه ، وغضت أساريه ولوائحه ، ونحل جسمه نحول الشاة بالأجاذب^(١) ، وطالت أظافره فتقوست كالخنايب ، واختزن فيها الوسخ فصارت كالمكاحل علفت بها المراد ، أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد ، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدري المحتقر ، ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر ، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام ، ويواجهونه بالأكرام ، فالتفت الباشا إلى صاحبنا « الحكيم » يستخبره عن هذه الكتلة من الدمامة ، والكومة من القمامة ، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان ، وبين منظر هذا الشيطان ، فاشتبك بينهما الخطاب ، وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب .

(الباشا) — أفأكان ينبغي منع هذا الرجل وأمثلة عن هذه الأماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها ، وثلا يضيعوا بهجتها في نفوس الزائرين ، ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال .

(الحكيم) — هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين نفتخر على العالم بصنع أيديهم ، مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذي أقيم لتفخيم هذه الصناعة ، وأنفق على تشييده أربعة

(١) الأجداب : الأرض التي لا تبت فيها

وعشرون مليوناً من الفرنكات ، ولا تمجيب من تفاوت المنظرين ، فالذهب من الثراب والناس من الفحم .

(الباشا) — وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من الفاقة وشظف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم ، وينقذهم من هذه الرثالة التي يرقى لها الناظر ؟ وإن كانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على أربابها ، فلم هذا التشديد لها وشدة العناية بها ؟

(الحكيم) — إن هؤلاء الذين تعطف عليهم ، هم بيننا أوسع الناس رزقاً ، وأكثرهم بضاعة رابحة ، واللوح الواحد من صنعتهم يقدّر بالثلاث من الألوف والملايين ، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أوفاقة ، وإنما هي ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم ، وعذرهم فيها أن أرباب الأعمال الدقيقة التي يغوص فيها الفكر ، وتجهد القريحة ، ويتوزع لها الدهن في عالم الخيال ، قل أن تتوازن فيهم قوَى الدماغ ، فما تنمو قوة إلا تضعف أخرى ، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في نظام اللبس والمطعم ، ولا يميزون في المعيشة الطيب من الخبيث ، فتخل أجسامهم ، وتسوء أخلاقهم إلى أن ينتهوا إلى حال من الطيش والحقاقة لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب . ومنهم من يتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد ، وقد ألف الناس ذلك منهم ، فإذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المتفنن ، غفرت له ما ساءك من منظره ، لما يسرك من مخبره ، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورثالة المراءى .

(الصادق) — إني لأعجب لقوم يمتدنون في أعمالهم على رؤوسهم ، ثم يذهلون عن أبدانهم ، وقد علموا أن القريحة السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم ، وكيف يصح البدن إذا لم تتعمده بالنظافة وطيب الغذاء وحسن الرياضة وقضاء القروض الطبيعية له ، ولقد يعرض للرجل المتفكر ، وهو في تحلي قريحته ، أن يشم رائحة كريهة ، أو يبصر منظرًا رثيلاً فيضيق في الحال صدره ، وينقبض فكره ، فكيف بمن يجد ذلك في نفسه ويحس به في جسمه ، وآخر بمن ينقطع في عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيساً في ذاته ، فلا يعرف بحرفة الطبع ، ولا شراسة الخلق ، بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور ،

و بما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع ، وعلى الوجه الأعم ، لست أدري ما فائدة المعلوم والمعارف والفنون إذا لم تكسب صاحبها بادي ، الأمر بحسن الأخلاق ومكارم الصفات ، فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه ، وإلا فكيف تنبت الزهرة من السبخة ، ويسطع النور من مهجور القبور ؟

(الحكيم) — صدقت وأجدت ومن قصر في تربية نفسه فكيف يطعم في تربية غيره ؟
(الباشا) — وماذا يصنع هؤلاء الصنائع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر ، وحالهم في سوء المعيشة على ما أسمع وأرى ؟

(الحكيم) — يصنعون به ما يصنمه أهل الطيش والتزق من أبواب الموارث في الإسراف والتبذير ، وهم أشفعهم بالجمال ، الذي تستمد صناعاتهم منه جسماً وروثها ، لا يفكرون عن المولع بالنساء والافتتان بمحاسنها ، فتري ثمن اللوح الثمين يخرج من خزنة النفي المتباهي ، إلى يد الصانع المقتون ، إلى كيس الفاجرة المملوك ، إلى صندوق التاجر والصانع ، وعندهم أيضاً باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التي يطلقون عليها اسم « المثال » .
(الباشا) — وما « المثال » ؟

(الحكيم) — « المثال » هو المرأة التي يتخيرها المصور ، ليأخذ في التصوير على مثاها ، لجمال وجهها ، أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها ، فهذه لئنها ، وهذه لئنها ، وذلك اقوامها ، والأخرى لشكل ابتسامها ، وهلم جرا ؛ فتري غرف المصورين ممتلئة بهباته « الأمثلة » ، التي تختلف أجورها باختلاف أقدارها ، وكلما تدخل على مصور في مصنعه إلا تری أمامه امرأة مكشوفة البدن ، عارية الجسم ، يقلبها كيف شاء ذات العين وذات الشمال ، حتى تصير على الشكل الذي يريد أن يملأ عينه منه ويحصره في ذهنه ، ليخرج الصورة على مثاله .

(الباشا) — ما هذا الذي تحكيه من التبذل والتفضح ؟

(الحكيم) — ليس هذا عندنا بعريب ولا نقص ، ولا غضاضة على النساء منه ، فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة ، لا عار في مزاولتها ، ولا بأس على السمعة

منها، وعندنا اليوم خلاف قائم : هل يجوز المصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل في طريق الناس ، وفي مسالك السابلة ، كما يفعل ذلك في داخل مصنعه ؟ فإن أحد المصورين عن له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور ، فقصده إحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للثال ، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد ، وكان يقيم هناك في كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال ، يمين بنظره في الفتاتين ، ثم يخطط ويصور ، وكان بجانب المقبرة دار تبني قام على حائطها البنائون ، فاشمأزوا من هذا المنظر ودفعهم دافع الخياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه ، فلم يعبا بهم ، ولم يبال بتأنيبهم ، واستمر على ذلك أياماً ، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثم إلى قضاة المحاكم ، لمنع الرجل عن هذا الفعل السيئ ، ولا تزال الجرائد تتجادل في المسألة ، ويجوز المنع أم لا يجوز ، فبعضها يذهب إلى وجوبه ، ارتكناً على نص القانون الذي يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة في الطرق ، وبعضها يرى الإباحة ، لأن كل إنسان حر في صناعته ، ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه .

(الباشا) — نعوذ بالله من هذه البدع .

قال عيسى بن هشام : وانتبهنا بالخروج من القصر ، بعد أن كدنا نضل فيه ، لاتساع أطرافه ونواحيه ، وتعدد غرفاته وحجراته ، وهي كلها غاصة بالصور والتماثيل ، ثم وقفنا في الخارج وقفة الإجلال والاعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض وإكليلا الصناعة ، وعاد الباشا إلى « الحكيم » يسأله :

(الباشا) — وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض ؟

(الحكيم) — يبقيان على حالهما دون ابنية المعرض لمعرض أعمال أهل الصناعة والتصوير في كل عام .

(الصديق) — إنني كلما نظرت إلى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والنقش فيه إلى هذا الحد ، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا ، حرت في معرفة السبب ، فإن كان ذلك ناشئاً عن الترقى في المدنية ، فإني أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية

مسفرة بينكم ، وربما كان القديم أبدع من الحديث ، مع أن أهل الشرق ، على ما تعلمون ، أوسع مجالاً في الخيال ، وأبعد شأواً في التصور ؛ فكيف لنا هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا؟ (الحكيم) — إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحي أهل عبادة للأوثان والأصنام ، ففضى الاعتقاد الديني باتقان الرسم والتصوير ، واتسع نطاقه على الأخص في الدولة اليونانية والدولة الرومانية ، حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق ، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال ، ووصل الخلق في ذلك أيام الدولة اليونانية أنهم أحصوا ثلثمائة تماثيل لشخص واحد في شوارع « أثينا » في حال حياته ، فلم تمكث بعد وفاته ثلثمائة يوم ، لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل ، وعلو الصيت على غير استحقاق ؛ ومن ملح ما يروى في هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر : إني لأعجب لأهل « أثينا » يقيمون لثل هذا الرجل ثلثمائة تماثيل بغير حق ، ولا يقيمون لك تماثلاً واحداً ، وأنت المقدم المفضل فيهم ، فقال له : لأن يتمجب الناس مثلك من أنهم لم يقيموا لي تماثلاً واحداً أفضل عندي من أن يتمجبوا لماذا أقيمت لي التماثيل ؛ ولما دخل الدين المسيحي على هذه الحال ، لم يحظرها ولم يحرمها ، فاستمر الناس على ما ألفوه ، وتناولوا الدين المسيحي نفسه بقرن النقش والتصوير ، وصوروا المسيح وأمه في كثير من أطوار حياتهما ، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ للقدس ، فبقيت العناية بذلك متصلة قائمة إلى اليوم ، بخلاف الدين الإسلامي عندكم ، فإنه حظر التصوير ، فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية ، وإلا فهو منتشر في الشرق انتشاره في الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند .

قال عيسى بن هشام : وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواها من المعاهد ، ونقف على ما اشتهر في العرض من الرأى والمشاهد .

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام : ودخلنا معرض الأشجار ، وبستان الأزهار ، في قصر لم يكن
 بناء القصور والديار ، ولم تُشَدْ أركانه بالشيد^(١) فوق الأحجار ، ولم ترتفع بالآجر حجاره
 وغرفه ، ولم تُتخذ من الخشب أبوابه وسقفه ، عُقدت له القباب والأبراج ، من صقيل
 البلور وسبيك الزجاج ، فهو صرح ممرّد^(٢) من قوارير ، كأنه لجة يَمْرُ أو صفحة غدير ،
 لو دخلته « بلقيس » صاحبة العرش في الأيام الخالية ، لكشفت عن ساقبها مرة ثانية ،
 جفوا فيه أشمات النباتات الغض ، من كل بقعة وناحية في الأرض ، مما يثبت بين ثنيات
 الجليلد وتنشق عنه صمّ الجلاميد ، وما اخضر في رُبا الصحراء ، وأوراق في وهاد البيداء ،
 وأزهر في الجند ، وأبغ في الومد^(٣) ، ومن حيث تجري الأنهار والجداول ، إلى حيث
 تقتصم الأراوى والأجادل^(٤) ، ومن حيث تشدوا الحمامة الورقاء ، تحت الظلال والأفناء ،
 إلى حيث تدور الحرباء ، حول الغزالة في كبد السماء^(٥) ، ومن أدنى الشرق إلى أقصى
 الغرب ، ومن طرف القطب إلى طرف القطب ، فما أردت هناك من جميع الأنواع ، في
 متفرق البقاع ، ما بين مُلتفٍ ومنشِب^(٦) ، ومتساق منه ومتشعب ، يفتّر بكل مخمر
 ومُبيض ، ومذهب ومفضّض ، ومشرق ومومض ، وأين ابن الرومي يتأملها فيخامع عنه رداء
 الفخر والتميه ، ويُقر بعجزه في الوصف والتشبيه ، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور ، في
 أشبيهه المشهور :

ولا زَوْرْدِيَّةَ تزهو بزُرْقَتِها بين الرياض على حمر البواقيت^(٧)
 كأنها ، وضفافُ القصبِ تحملها أوائلُ النارِ في أطرافِ كبريت

(١) الشيد : ما طلى به من الجص وغيره (٢) ممرّد : أملس مصقول

(٣) الجند : الثلج . والومد : الحر (٤) الأراوى : جمع أروى وهو الوعل . والأجادل : جمع

أجدل وهو الصقر (٥) الكبد : وسط الفئ . والغزالة : الشمس

(٦) منشِب : ملتف (٧) البلازورد : معدن شفاف أزرق يقرب إلى الحمرة

هنالك تسنيك ألوان الأزهار ، بما يزرى بلمعان الجواهر ، فما الياقوت عندها
والزبرجد ، وما الفيروز والزمرد ، وما العقيق والجمان ، وما الدر والمرجان ! وكيف يقاس
الحجر ، بالشجر ، وتسمى الحصى اليابسة ، بأكمام الأغصان المائسة ، وكيف يقدم الجامد
الثابت ، على المائى القاب ، وأين الحركة من السكون ، والمنشور من المدفون ، وأين المنشور
على ظهر الروضة الزهراء ، من اللحدود في بطن القبراء . وأئن انتظمت القلائد ، بجواهر تلك
الفرائد ، في لبآت الخرائد ، وكان مكانها من الحور ، في المعاصم والنحور ، لسكانت هذه الزهور ،
بين الرئات والصدور ، وكل أنفست حامد النفوس والأرواح ، بطيب الأنفاس وشذى
الأرواح ، فوقنا نستنشق الأريج والنشير ، من أصناف ذلك الطيب والعطر . لو كان معنا
ضرب المبرة رهن الحبسين ، لانقلب مشرح الصدر قرير العين ، ولأنس من وحشته ،
وذهل عن فاقته وخلفه ^(١) ، وعلم أن من المسكر ما هو طلق حلال ، ولم يتلهف على شرب
المتعقة حيث قال :

تمنيت أن الحجر حلت نشوة تجهلني كيف اطمانت في الحال
فأجهل أنى بالعراق على شفا رزى الأمانى لا أنيس ولا مال

وما زلنا في هذه الروضة الغناء ، والجنة الفيحاء ، تردد قول العبد الصالح الأواه :

« ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله . »

ونكرر النشيد ، لبیت التوحيد :

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

حتى إذا آن أوان الإنصراف ، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف ^(٢) ، خروج أبينا
من دار الخلود والبقاء ، إلى دار الهموم والشقاء ، ولما تركناها إلى نواحي المعروض ضؤل
في أعيننا ، ما كان يروقنا ويذهينا ، وصغر في أنفسنا ، ما كان يخلبنا ويُسجينا ، وذبل
أمامنا ما كان من المناظر ناصراً ، وذال ^(٣) ما كان قضمًا نادرًا ، وغلب ذلك المنظر على

(٣) ذال : هان

(٢) الألفاف : البستان المخصب العجير

(١) الخلة : الفاقة

كل بديع رائع ، من مختلف الفنون والصنائع ، وأين قدرة الحيوان الناطق ، من قدرة المبدع الخلاق ، وما تسوية آلات المصانع ، مما تصوره يد البارئ الصانع ؛ وكاد الباشا يهيم بالرجوع من حيث أتينا ، ويقتصر في يومه على ما رأيناه ، لولا أن استوقفنا قول «الحكيم» للصديق في عرض كلامه ، عن ترتيب المعرض ونظامه :

(الحكيم) — نعم تنقسم أما كن المعرض إلى قسمين : هذا القسم الذي شاهدناه من نفائس الصناعة والطبيعة ، وهو مباح للزائرين بغير أجر ؛ وقسم آخر أقاموه لترويح النفس ، واستجلاب الأنس ، بالمشاهدات الغريبة ، والمناظر البديعة ، يدخله الداخلون بأجر معين .

(الصديق) — لقد قرأت في الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدهش ، وأشد ما تشاق نفسي لزيارته تلك « النظارة المعظمة » الهائلة التي اخترعوها لمشاهدة القمر على بعد متر واحد ، فتحيط به العين في زرعهم كما يحيط الجالس في الغرفة بأجزاء جدرانها ، فأين ذلك المكان منا الآن ؟

(الحكيم) — ليس هو بميد ، وهم يسمونه « قصر الأضواء والترايا » ولعلنا أمهيت الجرائد كما قلت في وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته ، ولم أزره بعد ، فهل بنا نقصد قصده . (الباشا) — البدار البدار إلى زيارته ، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحاً لكان إحدى المعجزات .

قال عيسى بن هشام : وسرنا جميعاً نلتقمس هذا المكان ، حتى وصلنا إلى قصر مشيد ، قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك في فخامته و ضخامته ، ووجدنا مكتوباً على بابه ، بين صور الكواكب والنجوم ، هذه العبارة باللغة اللاتينية : « من هنا يصمد الإنسان إلى أجرام الكواكب ويتصل بالانتهائية » ؛ ولما دخلناه رأيناه مزدحماً بالجوع ، فبدأنا معهم بالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر متراً في الطول وعشرة في العرض ، وهي مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحد منها مترين ونصفاً في عرض متر ونصف ، وقد تخللتها مصابيح الكهرباء ، فاذا نظر الانسان بين تلك الأضلاع والمثلثات رأى

صورته تعدد بالمئين ، وإذ امشى بضع خطوات ضل الطريق ، ولم يهتد السبيل ، وكذا ظن أنه وجد منفذاً للخروج منه ، اندفع إليه ، فيصطدم وجهه بزجاج المرايا ، فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم ، ولا يزال على هذه الحالة مدة من الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الاتفاق ؛ وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء في وصف أشكال الزائرات ، وانطباع صورة الواحدة منهن على صفحات المرايا ألف مرة ، كما تنطبع محبتها وهي واحدة على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف .

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التي يضل الداخل فيها ، كما يضل الراكب في الغياي والقفار ، سرنا نقصد غيرها ، « والحكيم » يقول « للصديق » في حديثه :

(الحكيم) — إن الفكرة في إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال ، يضل الداخل فيها ، ولا يهتدى للخروج سبيلاً ، شيء قديم في الوجود ، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتهيه ، منها الهيكل الذي رآه « هيرودس » في زمانه ووصفه في تاريخه ، وكان يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل في بعض ، فمن دخل هذا المعبد ، ولم يكن معه دليله ، ضل فيه حتى يهلك جوعاً ، ولا يزال أثره باقياً عندكم إلى اليوم بقرب بحيرة « مورييس » أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة « التماسح » ؛ وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين ، فأقاموا في مدينة « كريد » معبداً يماثل ، ومما يذكر عنه في أساطيرهم أن غولاً من الغيلان كانت تفسد في الأرض وتعيث ، ثم تلجأ إليه ، فلا يدر كمها أحد ، وصم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها ، والفتك بها ، فلم يتوصل إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلت عليه عشيقته ، فربط به في رجوعه ، والفرق بين ما صنع القدماء في السالف ، وما صنعه المحدثون في الحاضر ، كما نرى ، أن بناء المتقدمين من الحجر ، وبناء المتأخرين من الزجاج .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا بعد ذلك غرفة في إثر أخرى ، وكلها على هذا النمط من

انعكاس الأضواء في المرآيا وتمدد الصور ، ففتخيل هنا بئراً ، وهناك ببحراً ، إلى غير ذلك من وجوه التخيل ، ثم انتهينا إلى تلك الغرفة المنشودة التي يُرصد فيها القمر على بُعد متر واحد ، فما جاوزنا بابها حتى اطفئت في وجوهنا المصابيح ، وتخبطنا في الظلام الدامس ، ثم سلطوا أشعة الكهرباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعة بكيفية تميز فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتقراءى لك الأولى بمقدار قلامة الظفر ، والأخرى بمقدار خروج الفربال ، ووقف هناك رجل كالمُرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم ، ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بُعد سبعين كيلومتراً كما تُرى في « النظارة » التي انتشر الاعلان عنها بأنها تُريكهُ على بُعد متر واحد ، وأمهت فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض ، ثم خرجنا و« الصديق » يقلب كفاً على كف من شدة الدهش والعجب ويسأل صاحِباً « الحكيم » على كُنته هذا الغش والكذب .

(الحكيم) — خَفِضْ عليك ، فإن أكثر ما تقرأ من التفخيم والتهويل لمثل هذه المسائل في الجرائد لا يُعَوِّل عليه ، فانها تعتمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناوله عليها من الأجور ، ولمصلحة أبناء البلاد في ترغيب الناس إلى زيارة المعرض ، وهي تستحل الغش والكذب في سبيلهما ، ولا تعجب إن قلت لك إن الذي يشرح هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا ، فقد قام في المجلس خطيباً ، وطلب منه الموافقة عندنا على إقامة المعرض العام ، وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآلة الكبرى في ارتقاء الصناعة بإنشاء « نظارة معظمة » يرى الناظر فيها القمر عن بُعد متر ، وما زال يحكي ، والجرائد تكتب ، حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه « النظارة » التي يقولون عنها إنها ترى القمر على بُعد سبعين كيلومتراً ، وأقاموا هذا القصر بمناظره لاجتماع الرمح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى ، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس في العالم من التهويل الباطل في أقوالهم والعلو الفاضح في وصف أعمالهم بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلومتراً ، والرايح فيهم من كان ماهراً في الغش والخداع ، والفائز فيهم من كان سباقاً في المكر والاحتيال .

قال عيسى بن هشام : وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذي لم يكنهُ الغش من طريق السياسة والاستعمار ، حتى ترقى فيه إلى طريق السكواكب والأفكار .

المراىى والمشاهد

قال عيسى بن هشام : وسرنا فى قسم المراىى والمشاهد ، ندخل واحداً منها فى إثر واحد ، فلا نجد فيه ، عند ما نوافيه ، مصداق ما سمعنا من وصف واصفيه ، بل ربما وجدنا ما يخالفه وشافيه ، إلى أن وصلنا إلى قصر مشرف منيف ، يزهو على القصور بحسن الترتيب والتصنيف ، أعدوه هناك لأنواع الرقص والعزف ، وفنون القفز والقصف ، منذ الغابرة ، إلى عهد الحضارة الحاضرة ، ومن عيش الخشونة والشظف ، إلى عصر النعومة والترف ، فما شئت من رقص الحماة والشجاعة ، إلى رقص الخلابة والخلاعة ، فترى رجال البداوة يرتصون بالسيف ، فى مواقف الخوف وترى العذارى من ورائهم يصرون بالدخوف ، ويصفقن بالكفوف ، تخرجن أيضاً على الحرب وإلهايا ، وإثارة لهم على العدو وإغضاباً ، فتحلوهن مضاضة الإقدام ، كما تحلوشن بها غضاضة المدام ، ويرتشقون كؤوس المنايا ، كما يرتشف سواهم رُصاب الثنايا ، ثم ترى رقص الآيين من السفر ، والقافلين بالنصر والظفر ، بين عذارى الحى وجواريه ، وسبايا العدو ومأسوريه ، بإشارات تبين أيماناً بيان ، عن مكنون الهوى والأشجان ، فى صدور ملوؤها الغيرة والشمم ، وقلوب حشوها الشهامة والكرم ، ونفوس تزع لصولتها الوحوش الكوامر ، وتفرق من هيتها الأسود الكواشر ، لكنها تخضع لربات القدود والنهود ، خضوع العابد للعبود ، فتتفرق لديها أوزاعا ، وتظير أمامها شعاعاً^(١) ، إن خشيت منها بادرة صدٍ وجفاء ، أو حركة نفور وإباء ، وهن يقابلن حركات التذلل والتزلزل ، بحركات التذلل والتعفف ، ويحجزن على التولع ، بالترفع والمنع ، ويبدعن لطيف النجى ، ببديع التثنى ، ويغضضن من أبصارهن ، فى جلاهن وإسغارهن ، ثم يسرعن إلى الالتفاف ، ويسرن ما انحسر من الأطراف ، فيرتد طرف الواله حسيماً ، وقلب الهاثم كسيراً ، وما أبدع الحياء فى الوجه الجميل ، كما فى القرن فى السيف الصقيل ، إذا عارض

(١) ملان قلبه شعاعاً : تفرق من الخوف .

حياء الشجاعة في الفارس المغوار ، فلَّ غَرَبَهُ عن ربة الحجل والسَّوار ، وكأَنما الشجاع منهم في يد الغادة ، لا يفتأ ينشد قول أبي عبادَة :

نحن قومٌ نذِينا الأعين المُجَلُّ على أننا نذيب الحديد
طَوْعُ أَيْدِي الغرامِ تَقْتَادُنَا البِيضُ وَتَقْتَادُ بالطمان الأسود

ثم رأينا أشكالا متفرعة من الرقص والحُجَلان ، وأنواعا متعددة من الدَّورانِ والخطَّرانِ مما هو شائع عند عبدة الأوثان ، وسائغٌ مباح في بعض الأديان ، حتى يجد المشاهدُ لحركة تلك الأبدان ، ما يجده راكب السفينة من الهَيْضَة والغثيان ، وكأنَّ الأصل في ذلك إنْهاك القوى الجثمانية ، لإضعاف الجواذب الشهوانية .

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدينية والحضارة ، من الفضاحة والدعارة ، فترى أفواج النساء ، كأَسراب الظباء ، لا يستر أجسامهن إلَّا زِلْزَالَة كالكشرة ، في لون البشرة ، تنطبق على أعضائهن انطباق الغرِّ في ، على تراثك الرثال ^(١) ، وتلتصق التصاق القميص بأجساد الصَّالِ ^(٢) . فهنَّ عاريات للنظر ، كاسيات في الخاطر ، فيأين في رقصهن أشكالا تشرح في ساطع الظباء ، مذاهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء ، فتارة يَنْثْنين ، وطورا يَنْحَنين ، وآونة يَدْرْنَ على أطراف أصابعهن ، غير متقلبات من مواضعهن ، وفيهنَّ من ترفع ساقيها حتى تلطم في الخد سواء الخال ، بذهب الخللخال ، وتلفس الجبين الوضاء ، بطرف الخذاء ، والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون ، ويصفقون ويستعيدون ، ثم ما لبثن أن غدْنَ بنوع آخر من أحدث الأنواع ، في ضروب التقن والإبداع ، فتوشحت كل واحدة منهنَّ بِمِلَامَة بيضاء ، متسعة الأطراف والأَنحاء ، إذا استدارت فيها خلتها قطعة غمام ، أَطَنَّ منها بذرُ الغمام ، أو زُفَّة حاتم بيضاء ^(٣) ، ترفرف ظمًا حول الماء ، وفي قِيا آتِهَن مصباح الكهر باء يرسل أشعته من أعلى المكان ، بمختلف الأضواء والألوان ، فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنَّها طاقة أزاهر ، أو قلائد جواهر ، وكأنَّها في سرعة تلونها واهتزازها ، زَبْدُ اللج هاجئةُ السفينة في اجتيازها ، فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة .

(١) الفرق : القشرة الملتقفة بياض البيض . والتريكة : بيضة النعامة . والرأل : النعامة .

(٢) الصل : الحية .

(٣) زفة : جماعة الحام .

بالوانها السبعة المتفرقة ، وفي يد كل راقصة منهم عصا جرداء ، إذا هزتها في الهواء ، وقابلت بها شعاع الكهرباء ، أزهرت بأزهار من نور ، وأنبعت بأثمار من البلور ، يخالها كل من يرى « كمنقود الملاحية حين تورأ^(١) » لورأها سحرة فرعون وهامان ، لأقروا بفضل العصا في كل زمان ومكان .

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار ، وانسدل عليها الستار ، خرجنا ونحن في دهش وذهول ، والتفت الباشا إلى « الحكيم » يخاطبه ويقول .

(الباشا) — أرى أن للرقص عندكم ، معشر الغربيين ، شأنًا مهمًا ، كأنه من فنانى الفنون وطرائف الآداب ، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال ، التى يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة .

(الحكيم) — إن شأنه عندكم أعظم ، وشكله فيكم أفضح ، ولا يزال كتابنا وأهل النقد منا يعيرونكم به ، ويستفظمون ذلك الشكل الذى يسمونه « رقص البطن » ، وهذا المعرض المصرى هنا ، كل من دخل فيه ، وشاهد النساء المصريات ، حاسرات النهود ، عاريات البطون ، يحركن طياتها ، يخرج يقطر وجهه خجلًا ، وتكاد تجيش نفسه غشيانًا من شناعة هذا المنظر فى عينه ، فيحكم عليكم بحجة الآداب وقلة الاحتشام ، ومن شاهد مواضع اللهو فى بلادكم ، لم يجدوها خافلة بسواه ، فإذا عرضتم علينا آثاركم فى ديارنا كانت هذه الراقصات فى أوائل ما تعرضونه ، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم .

(الصديق) — إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم ، فإن هذا الرقص ليس ينتشر فى عاداتنا ، ولا معروف فى بيوتنا ، وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة ، يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإثم والفجور فى بيوتهن ، ولم يظهروا به على الملأ فى الملاهى العامة إلا فضل أصحاب الخانات من الأجانب الذين يرون وجوه الرمح متساوية لا حطة فيها ولا قيصه ، والجمهور عندنا على استقباحه ، والنفور منه كما تنفرون ، ولا يشهدنا عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة ، ولا يأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر ، وكلما حاولت

الحكومة ، في محافظتها على الآداب ، حظرة ومنعه ، اعترضتها امتيازات الأجانب وحريةهم المطلقة فيما يأتون ويذرون . أما الرقص عندكم ، فهو متأصل في عاداتكم ، وسنة متبعة بينكم ، لا يقتصر على الملاحى والأماكن العامة ، ولا يتفرد به النساء دون الرجال ، ولا يخلو منه بيت من بيوت السوق ، ولا قصر من قصور الملوك ، ولا تقام عندكم وليمة من الولائم ، ولا يتم لكم احتفال في المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه ، ومظهر من أخصر مظاهره ، والرقص عندكم من الفنون النفيسة ، يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم ، ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز .

(الحكيم) — ليس الرقص في أصله من المذكرات ، ولا مما يعاب شأنه ، كما تذهب إليه ، وهو حركة طبيعية في الإنسان يقتضيها تركيب الجسد لرد الأعصاب إلى ميزانها ونظامها عند ما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر ، وهو قديم في الفطرة ، وربما تجاوز نوع الإنسان إلى بعض الحيوانات والطيور ، ولما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم ؛ وهو ينقسم إلى أربعة أنواع : نوع يستعمل في الحرب ، ونوع يستعمل في الصيد ، ونوع يستعمل في حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء ، والنوع الرابع في الشعائر الدينية ؛ وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة . وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية ، وكان كبارهم وأمرؤهم يمتازون بإتقانه ، ويتباهون بالتبريز فيه ، وفيهم من انقطع له واشتهر به ؛ ولقد كان السفير بين أهل « أثينا » وبين الملك « فيلبس » والد الإسكندر المقدوني رجلاً اسمه « توسيديموس » من أكبر الأساتذة في هذا الفن ، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها « لاريسا » ، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره ، وكان « إبيامينونداس » ، وهو من أشهر الفلاسفة ، راقصاً مبرزاً في الفن ، والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الدينى في الدولة الرومانية عند نشأتها ، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً إلى أن دخل الدين المسيحي على الوثنية الرومانية ، فلم يستنكره في بادئ الأمر بأشكاله التي تفنن فيها الرومانيون على ما هو معهود فيهم من التناهى في الملاذ الفاضحة في أواخر دولتهم ، ثم دخل في عادات الأمم الغربية ، فتمسكت به ،

ولم يصدّها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى ، إذ كانت النفوس
ألفته واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيئاً ، وإنما الذى شأنه فى نظركم اجتماع الرجال
والنساء عليه فى حفلاتهم ، وذلك ناشئ عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم .
قال عيسى بن هشام : وقطع الحديث بيننا أن رأينا فى طريقنا مكاناً يتراحم عليه
الناس ، وعلمنا أنه أحد المرائى الشهيرة الذى قرأنا عنه فصلاً متعددة فى الجرائد العالية
مثل « الديبا » و « الفيجارو » ، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به
فى مياه البحر المتوسط فتمرّ به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان ،
فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة ، وصعدنا السلم حيث انتهينا إلى هيئة سفينة كبيرة فركبناها ،
فإذا هى تميل بجنايبها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فى حركة مثل حركة السفينة
عند اضطراب الأمواج ، ويحف بها من الجانبين حائط من قماش نُقِشت فيه أمواج البحر
وأشكال الثغور الكبيرة مثل « نابولى » و « فينسيا » وغيرهما ، فيتخيّل للراكب عند ذلك
أن السفينة تسير به فى عرض الأمواج المرسومة ، والرسم متصل بألة السفينة تديره بسرعة
كبيرة ، والسفينة فى تمايلها كالأرجوحة لا تتحول عن مكانها ، فلم ترفى الأمر ما يستغرب له .
ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى ، فرأيناها كلها على هذا النسق من
التحويه ، وما برح « الصديق » يظهر التذمر لشدة الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة ،
وبين ما انتشر عنها فى أنحاء العالم من المبالغة فى الوصف والغلو فى البيان ، ولم يخالفه
« الحسكيم » فى ذلك ، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم
المرائى كله ، وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض ، يمثّلون بها جبالهم
وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة ؛ ولما دخلناها تملّكنا الطرب وتولانا
الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة ، وشاهدنا الجبال شامخة تسيل من قممها السيول إلى
قرار الوادى ، فتشعب منها الجداول والأنهار ، وتتخلل البيوت والجدران ، وشاهدنا هناك
الأبقار المشهورة فى تلك البلاد واقفة على مذاودها ، ومن حولها الولائد والجوارى تتألق فيهن
نضرة الشباب وتبرق أسرمتهم بحسن البداوة .

حُسْن الحضارةِ محبوب بتطرية وفي البداوة حُسْنٌ غير محبوب

وهن يحتلن ألبانها في قُبوب من اليلور ، ويُقدّمها برغوتها لمن يرغب في استقامتها من الزائرين ، ورأينا الرجال في حوائشهم يملأون العين حسناً وبهاءً واقفين وقفة التأذب يعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم ، ولقد علمنا أنهم أقاموا في تشييدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات ؛ فأعجبنا المقام ، وقضينا هناك زمناً نقناقل ونتذاكر في حديثنا فضل المعيشة الطبيعية في سداجتها ، على المعيشة المدنية في تصنعها وكلفتها .

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام : وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول ، إذ سمعنا صوت مزمار وطبول ، فهاج منا الذكرى والشجن ، وأذكي فينا الحنين إلى الوطن ، حين أنضاء النوى^(١) ، بالامعات البروق ، تنبعث من أفق بلادها ، وتمازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها ، فتخصت إليه الأحداق ، ومالت نحوه الأعناق ، فقصدنا منبعه ، وأمننا مطلعته ، عسانا نجد عنده من آثار مصر فضلا ، ومن أشكال بلادنا شكلا ، يملأ العين جمالا ، والصدر جلالا ، ويؤنسنا في وحشة الفراق ، بما يخفف من لواعج الأشواق ، ويكون لنا في المعرض موضعا للفخر والمباهاة ، في باب المسابقة والمباراة ، فوجدنا أخلاطا من الزمر والجاهير ، حول الطبول والمزامير ، ورأينا في وسطهم رجلا يعلمهم فظا في هيئته ، كظا في طامته^(٢) ، لو امتزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد ، كأنه جامود صخر أو قطعة جليد ، وجه شور منه السجاجة ، ثوران العجاجة ، « وطر بوش » عليه طوق مثل الدهن من العرق والوضر ، لو ليج فيه شعاع الشمس لا حترق واستعر ، وهو يعرج مثل عجيج الإبل في القلوات ، ويصيح بصوت من أنكر الأصوات ، دونه صوت الحمر الناقعة ، أو الرعد بالصاعقة ، وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس ، خشية الاختناق من التهييج والتحمس ، وهو يتمايل غجبا واختيالا ، ويذهب في الحلقة يمينا وشمالا ، مناديا في الجمع ، بألفاظ مكروهة في السمع ، ترغيبا للرائح والغادي ، في دخول ذلك النادى ، ليروا من أسباب الأنس ، ومستمع الخواص الخس ، ما ينفي بلابل الصدور ، ويحلب بواعث السرور ، من كل منظر ليس له نظير ، لا يحيط به التخمين والتقدير ، مما بدت به مصر سائر الأمم ، وحلت به في الفخر محل الدرا والقمم ، ولا غرو فهي لا تزال في مضارها منذ القدم ، عالية الكعب راسخة القدم ، وأن هذه فرصة سانحة لا بد أن نلتصم ، ونخلص من الدهر يعقبها الندم إن لم نختلس ، فمن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار ،

(٢) رجل كظ : عمر متشدد

(١) أنضاء : جمع نضو ، وهو التعب للهوى

وأوقع نفسه في الخسار ، ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله ، بعد أن يفقد
التفيسين من وقته وماله ، ومن لم يشاهد صنعة « زهرة » و « معشوقة » ، لم يشاهد في
الدهر معشوقة ولا مومونة ، ولم يحصل إلا على الخيبة ، في السفر والأوبة ، فدخلنا
نستكشف الأثر ، ونستشف الخبر ، فقلقنا بالباب رجل حسن الثوب والعمامة ، في ربي
أهل الشيخ والإمامة ، مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح ، كأنه إمام مصلّي
أو سادن ضريح ، لولا أن تأملته فعرفته رجلاً من ذوى الرب بين التجار ، مشهوراً
بتجارة الطيب والأعطار .

ذُبُّ تَرَاهُ مُصَلِّياً فَإِذَا مَرَرْتَ بِهِ رُكْعٌ

يَدْعُو وَجُلُّ دَعَائِهِ مَا لِلْفَرِيسَةِ لَا تَقْعُ

فهمنا بالسلامة ، وبالغ في الحفاوة والكرامة ، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو
واللعب ، و « مرشح » من مراسح الرقص والطرب ، وانكشف لأعيننا السر عن بنات
الفجور والعهر ، فأخذن في « رقص البطن » بتلك الحركات الشنيعة ، والأشكال الفظيعة
حتى تخيلنا أننا عدنا إلى أدوار تلك المدة ، في مصاحبة « الخليل » و « العمدة » ، فلوينا
أعناقنا نحو الباب ، ونحن في حزن واكتئاب ، وخرجنا نستر وجوهنا بأيدينا خجلاً ،
ونحنينا أن لا تنسب إلى بلادنا أصلاً ، لنخلص من وصمة هذا العار ، وما يحجر علينا من
الأزدراء والاحتقار ؛ ورجعنا مهزولين ابتعاداً عن هذا « المعرض المصري » وما يحويه ،
من مثل هذا المشهد المعيب والمنظر الكريه ، وأقسمنا على أن لا نمر من هذه الناحية ،
مرة ثانية ، فأخذ « الحكيم » يهون علينا من وقع المصائب ، ويخاطبنا في معرض العتاب :
(الحكيم) — لم هذا التسرع والتعجل ؟ أمّا علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين :
قسم الصناعات والآثار ، وقسم المشاهد والمرآى ؛ وقد رأيتم من « المعرض المصري »
القسم الثاني ، فدعوه إلى سوء أدبه وقبح أثره ، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه
الذي هو قسم الجدد والعمل ، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم
هذا الذي اعتراكم من الهم والكدر .

(الباشا) — ما أظن هذا القسم إلا عنواناً للقسم الآخر ، ومن أساء الاختيار في قسم المشاهدات ، فغدير به أن لا يحسن الاختيار في قسم الصناعات ، ومن بلغ به الانحطاط في انتخاب مشاهد بلاده ومراثيها إلى عرض بطون النساء وخش الماهرات للرائح والغادي من أطراف المسكونة في هذا المعرض ، فلا يرجي منه حسن الاختيار في آثار البلاد وأعمال صناعاتها .

(الصدق) — لقد أغنى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد ، وغرم ولع السفهاء بها في مصر ، ففسدوا عليها أصحاب الحانات ، ولم يكن من اللاقي بهم أن يراهم فيها ببلادهم ، فأنهزوا هذه الفرصة للتفرد بها في بلاد الغربية ، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان في بلادهم ، فيفوزون بالربح ، وليس من يصير بقبيح وجهه في بلاد لا يعرفهم بها أحد ، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذي الرتبة الثانية الذي لو دعوته لرؤية الرقص في مصر لفضى وجهه بحبته وكوى عنقه يستعذ ويستغفر من هذا الإثم الذي ينهيه عنه دينه وأدبه ، ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدروه ، فلم ينالوا ربحاً ، ولم يستروا قبحاً ، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينههم عن مشاهدة هذه الفضائح ، فلم يقبل عليها أحد ، ولم يبق لأصحابها إلا سخط المصريين عليهم جزاء تعيير الأمم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم .

قال عيسى بن هشام : ولما جاوزنا باب الملهي قليلاً ، اتفينا إلى القسم الأول من هذا المعرض المصري مطاوعة لرأي صاحبنا ، فوجدنا بناء مشيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد ، يفاجئك مدخله بحانة للتمر ذات اليمين تتخطر فيها شطماء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها ، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربهاً ، عريق في القبح والدماثة ، تنطبق عليه القبة دون العمامة ، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس ، وقد التف عليه جماعة من أجناس الناس ، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينفقه بعض الدراهم ، فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية في ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات ، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون في انكبابهم عليه : هلم إلى شيخ

المسلمين ليكتب لنا شيئاً من « قرآن محمد » ؛ فحز بنا الأمر ، وانتظرنا قليلاً حتى انقضى الجمع عنه ، وأقبلنا عليه نساله ، فانقضح لنا أمره عن لهجة سورية ، فزجرناه قليلاً بواجب الدين الإسلامي الذي يتكرر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه ، فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من « شركة المعرض المصري » للارتراق بهذه الوسيلة التي دفعته إليها ضرورة العيش ، فتركناه وتوغلنا في داخل المكان ، وإذا برجل آخر معهم ومن حوله صبيان في أزياء المصريين التقوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه ، وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروّضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة ، وفي يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤذّبهم ، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس في مصر وتعليم الدين بين المسلمين . ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثلوا به هذا المنظر ، ولم يستنكروه ، وفيهم بضعة من صالحاء المسلمين ، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف ، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد ، أعظم من إنكارنا الحال ذلك المسيحي المتصيد .

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقاً تشبه أسواق الموالد وحوانيتها ، فعن اليمين بائع « لب وحمص » و « فول وتمرّس » ، وعن الشمال بائع « عرقسوس وسحلب » ، وفي هذا الجانب بائع « حراير شامية » ، وفي الجانب الآخر بائع « حلوى استامبولية » ، ومن دونهم بائع « أحذية صفراء وطرايش حمراء » ؛ ولما استخبرنا : أهذه كلها آثار مصر والمصريين ؟ قالوا : نعم ويزيد عليها « معروضات المصنوعات والمزروعات » في داخل هذا المكان ، وأشاروا إليه ، فدخلناه ، فإذا هو مكان متسع على شكل معابد القدماء من المصريين ، ووجدنا حوانيته أشبه شئ بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها ، وتركوا في انحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم ، فهنا صرة فيها بذرة قطن ، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة ، وفي صدر المكان صوان^(١) من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب بما

(١) صوان : هو المعروف في الغاية بالدولاب

يلبسه العداءون « القمشجية » أمام الخيول بمصر ، فانقلبنا خارجين من « قسم المزروعات والصنوعات » على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التي خرجنا عليها من ملابح اللغنيات والراقصات .

وفزعنا إلى الحرب من هذا المعرض المصريّ وسيئاته ، فعارضنا أحد المروجين له ، واستحلقنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه ، فطاوعناه ، فدخل بنا غرفة محجبة ، وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الذراعين تغزل رجليها وتستعملهما استعمال اليدين في كثير من الشؤون ، فخرجنا لا نلتفت وراءنا ، وقد حان وقت الغروب ، حتى مررنا في الشارع ، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع ، وفي وسطهن امرأة عليها زينة العرائس ، وهن ينشدن حولها أناشيد الأعراس في زفاف المصريات ، فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص إلى خارجه في وسط الشارع ، وبيننا نحن كذلك إذ بصر « الصديق » بأحد المصريين من أصحابه ، فاستوقفه بطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع ، وينمى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا « المعرض المصري » :

(الصديق) - ألا تخبرني عن سر هذا التفضيح ، فإنهم لم يكنهم ما يدور في داخل المعرض من كل مخجل معيب ، حتى انتشروا به في الشوارع على نحو ما تراه ، لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم ، ليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأمم ، فانهزوا هذه الغرضة لتنفيذ مكيدتهم ، لما أخطأنا الصواب .

(المصري) - ليس الأمر كما ذهبت إليه ، وإنما دفع أهل الشركة الشرمة والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل ، كما تراه في تسيير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع للإعلان والترغيب في زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً ، ولكن الذي يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية ، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة

التي أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها ولم تشترك فيه رسمياً ، كما أعلنته في الجرائد ، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية ، لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم من المصريين .

(الصديق) — وهل تظن أنهم يربحون الشيء الكثير من هذا المعرض ، وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار ؟

(المصري) — ما أظن الربح على هذه الحال بميسور ، ولكن الشركة لا تخسر شيئاً ، وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها ، وهم يقدرون الخسارة إلى اليوم بثمانين ألف فرنك ، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبرة لهم وتأديباً ، حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التي لا يسلمون فيها من الخسارة ، ولا يسلم المصري فيها من وصمة العار .
قال عيسى بن هشام : وزودتنا الرجل بالتحية والسلام ، بعد أن خفف علينا بعض ما بنا من الآلام .

خـ بـز المدنية

قال عيسى بن هشام : وانتهى بنا التجوال في المعرض إلى « أقسام الدول » ، فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول ، ما يشهد لمن بالعلم والارتقاء ، في أبواب الإبداع والإنشاء ، وقد تبارين في ميدان المناضلة ، وتسامين في مضمار المفاضلة ، بما لا يشق لمن فيه غبار ، وتقصر دونه الأنباء والأخبار ، وكانت الدولة الألمانية من بين أسبقين قديماً ، وأرفعين علماً ، وأعز مكاناً ، وأعظم شأنًا ، كأنها لم تقنع بالسبق عليهم في ميادين الحرب والطماع ، فأرادت أن تسبقهم أيضاً في حلقة العلوم والعرفان ، وأن تهذهن في حلقى الحرب والسلم ، بشدة البأس وقوة العلم .

وبينا نحن نتمتع النظر بحسن الصنع ، وجمال الوضع ، إذ شعرنا بضجة ، والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجج^(١) ، في الليل الدجوجي^(٢) ، قد ركبوا رؤسهم من شدة الفزع ، وطارت عقولهم من الملح والجزع ، وانتشر بينهم الصراخ والصياح ، واشتد فيهم العويل والنواح .

فسألنا عن الخبر ، فقيل لنا إن القنطرة القائمة على رأس المعرض ، هَوَتْ رَمَحَ فوقها على من تحتها ، فتوجهنا ناحيتها ، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون ، فمن جثت هامة وأجساد دامية ، ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل ، من زوار المعرض ، يزيدون على المائة ، والدماء تجري كالسيل ، والناس يترامون على الأرض لينصرفوا بمن عسى أن يكون بين المصابين من أقربائهم وأصدقائهم ، وما فيهم إلا كل متوقع للعصية ومترقب للمكره ، فالبكاء شامل والأنين عام ، والأطباء يضمدون ، ورجال الصحة يحملون ، وأشد علينا الحال بأشداد الهول ، وتكاثر الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع ، فجذبني « الباشا » إليه لنخرج من هذا المأزق ، فأسرعنا إلى مظلوعته ، وسار بنا . وهو يقول :

(١) الدجوجي : المظلم

(الباشا) — تالله ما بقى كل ما رأيناه فى هذا المعرض من بهجة وسناء فى ترويح النفس، بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل ، حتى لقد تخيلت أننى أشاهد يوماً من أيام الحرب تنعزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء .

(الصادق) — صدقت ، وزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل فى النفس وقعاً ، لأن للجروب رجالاً استعدوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم ، واست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال ، وهاته النسوة اللواتى رقى النعيم أدبهن ، ورقّة الرغد أجسادهن ، يفزعن من مس الإبرة ويذعرن من لمس الوبرة ، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت الردم ، والأعضاء مذكوكة فى الألقاض ، وهكذا صارت وقائع المدنية فى سلبها أشد من الوقائع فى حربها .

(الباشا) — لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود إليه مرة أخرى ، فقد قطعناه طولا وعرضاً ، واستوفيناه بحثاً وتدقيقاً ، وبدأ فينا الملل من طول التردد عليه .

(الحكيم) — إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم ، فلا يفوتكم أن تختتموها فيه برؤية العجيبة التى هى فى الحقيقة أم العجائب ، ومصدر هذه الطرائف والغرائب ، والأصل الذى تنفرع عنه الفنون والصنائع . والمنبع الذى تسيل منه مظاهر المدنية ، والمطلع الذى تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة .

قال عيسى بن هشام : فسوقنا بكلامه إلى متابعته ، وسرنا وراءه إلى حيث يريد ، فانتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا إليه من قبل ، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب البصر عند رؤيتها ، وتختلج النفس من هيئتها ، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود ، كأعظم ما يكون من المذلل ، فبهوت بنا إلى قرار بئر عميق ، وجب سحيق ، فتولانى من الهلع والذهول ما أنسانى كل شئ فى ذاكرتى مما يحفظه أهل الدنيا إلا ثلاثة آيات لم يبق لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار ، والهوى فى ظلمات بعضها فوق بعض ، قالها الفرزدق لما تعلق بحبال الغوانى من أعلى الجدران . فراراً من صولة الثائر والغديران :

فلما استوت رجالى فى الأرض نادتا أحنى يرجى أم قتيلى نحاذرة
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا ووليت فى أعجاز كيل أبادرة
هما دلتانى من ثمانين قامة كما انقض باز اقم الریش كاسره

ولولا أن حسن العشرة وطول الخلطة مكن الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسى ، قلنا إنه
كاد لنا وأراد أن يجدد فى عصرنا الحاضر ما فعله أبناء يعقوب بأخيه فى عصرهم الغابر ؛
ولما أفقنا من الإغماء فى بطن الأرض ، سألناه أين نحن من الآخرة ، أو فى أية طبقة من
الطباق السبع ، فقلنا أننا فى مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجري تحت
الأرض ، وكيف يستخرجه العمال فى غياهب الجب ، فأخذنا نحدق العيون فى حنادس
الظلام عسانا نبصر شيئاً ، فتمثل أمامنا العمال يدأبون فى عملهم على ضوء سراج معقود
بناحية كل عامل كأنه نار الجبابب تنفدح بين الأشجار فى ظلمات الليل البهيم ، وأنى
لأضواء الشرج الكهر بائية أن تشق عباب هذا الظلام الدامس ، وهو يكاد من تكافئه
يمسك باليد ويقبض بالراحة ، وحسبك أنها لا تفيد فى كشف الظلام وإضاءته ، وإنما
تزيد فى بيانه وإراءته ، ثم خطونا قليلاً وعثرنا كثيراً ، فرأينا من السرادب والكهوف
ومن الأخاديد^(١) ما تضل فيه الصلال بالثوائها ، وتنكش دون اسبابها ، ونفطنا فى كل
نفوة أشباحاً يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصراع الذى يتفنن فيها المصارعون
للتمكن من العمل فى ثنايا الفجوات والمنعطفات ، وفى أيديهم ما ثقل ودق من أدوات
القطع والحفر وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر والكهوف
فمنهم الواقف فى عمله على أصابعه ، والمضطجع على جنبه ، والجاثى على ركبته ، والمنكب على
وجهه ، والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق ، هذا بعض ما تقاسمه الأجسام من المتاعب
والمشاق والله العليم بما يدور فى القلوب والرؤوس من توقع الخطر وحرص الهلاك بما شئت
من أنواعه المتعدده انهيلاً واندفاعاً ، وانفجاراً وانثاقاً ، وغرقاً واحترقاً ، وارتدماً واختناقاً ،

(١) الأخاديد : جمع الأخود وهو الحفرة العميقة

وههم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصبيهم من الشرج ، خشية أن تصاب برضة تنظم فيها ثلثة ، فتتصل بغاز الفحم المتسرب في المعدن تسرب الهواء ، فتמיד الجدران ، وتندك الأحجار ، وتخسف بهم الأرض ، واهتدينا آخر الأمر إلى منفذ فخرجنا منه ، وتركناهم يعملون في ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض :

فالفحم ظلام جامد ، والظلام فحم سائل ، وعيشهم أسود حالك ، وكفانا الله شر المهالك . ثم درنا قليلا في « معدن الذهب » ، بعد أن انتهينا إليه من « معدن الفحم » ، فلم نجد آرباب العمل فيه أعمد حالا ، ولا متاعبه أهون احتمالا ، لا نصيب لهم من الأصغر الرنان ، مما يجلو عنهم صدا الكروب والأحزان . سوى أنهم صفر الأيدي من الفضة والذهب ، صفر الوجوه من النصب والتعب .

واليس أقتل ما يكون لها الصدى والسماء فوق ظهورها محمول

وكادت الرطوبة في المعدن تعقد دماءنا في مجاريها ، فأسرعنا إلى مكان الصعود ، فانشرنا من بطن الأرض إلى ظهرها ، وأقنا هنيئة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار ، عند مفاجأة ضوء النهار ، وسرنا نتمتع بفضاء الأرض لا نقطى حرفاً ولا نحس خطاباً . وإذا بصاحبنا « الحكيم » يستوقف أنظارنا إلى « مسبك المدافع » الذي يمثل أعظم المسبك في فرنسا تطل منه أعظم أسطوانة للمدفع في العالم ، ويخاطبنا بقوله .

(الحكيم) — وهذا هو الثالث من أميات المدنية وأقانيم الحضارة ، فقد رأيت الأقسام^(١) الأول وهو الفحم ، والأقسام الثاني وهو الذهب ، وهذا الأقسام الثالث وهو الحديد .

(الصديق) — « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع الناس » .

(الحكيم) — نعم إنهم يستخرجون الذهب ، يشتروا به الفحم ، ليصهروا به الحديد ، فيصنعوا منه ما شاءوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة ، فيخرجوا للناس ما تشاهدونه من عجائب الصنع ، وإن كل ما تزونه مما يهر الأنظار ، ويستهوى القلوب ، راجع في

(١) الأقسام : الأصل

الأصل إلى ذلك الفحم الأسود ، الذى هو اليوم الخبز الثانى للانسان فى عالم المدنية ، منه نعيمها ورفاهتها ، وبه بأسها وقوتها ، تبتغى للانسان ! فما أعقَّ عمله وأقبح صنعه ! يهوى بالملايين من العمال إلى أسفل طبقات الأرض ، فيخرجون باطنها ، ليستخرجوا منه ما يخرجه به ظاهرها ، وتعمسا له ! يزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش ، وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه ، فيخرج من الدنيا باكياً كما دخلها باكياً ، بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تَمُصُّهَا حالة الحيوانات والحشرات ، وهو يزعمه أفضل المخلوقات ! (الباشا) — كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم فى فرنسا ، وما مقدار أجرة العامل فى اليوم ؟

(الحكيم) — يشتغل فى معادن الفحم مائة ألف عامل ، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرون مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات ، ويعمل العامل منهم فى جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار ، وفى وسط الأخطار التى لا تقل حوادثها فى العام عن ألف وخمسمائة حادثة ، فتذهب بالعدد الجم من القتلى والجرحى ، هذا غير ما يصيب العمال من الأدوية الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق « الكربون » وفاسد الهواء ، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار ، ومعهم أولادهم ونساؤهم ، كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات فى اليوم ! (الباشا) — وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التى هى ثمرة كدهم ونتيجة تعبهم ؟

(الحكيم) — تذهب إلى فئة معينة من أرباب الشركات والامتيازات ، فينفقونها على شهواتهم ، أو يدخرونها فى صناديقهم . ولا تظن أن هذه الفرنكات التى يأخذها العامل أجراً له فى اليوم تصل إلى يده ، فإن أكثر الشركات تبثى بيوت السكنى للعمال فى أحياء بحوار المعدن ، وتقيم بجانبها الأسواق ، فيشتغل العامل فى معدن الشركة ، ويسكن فى بيت الشركة ، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة ، والشركة تخصم عليه من أجرته ، فإذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له ، كان رضى الحال ، رضى البال !

(الصديق) — من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها ، فانه كيف يصير الإنسان على هذه الحال ، يعمل عمل الحشرات في باطن الغراء ، لينقى المقعدين في قصور العز والهناء . قال عيسى بن هشام : ووصلنا في مسيرنا إلى البرج الشهير ، برج « إيقل » المهندس القدير ، فأسندنا إليه ظهورنا ، تفكر في أعمال الانسان ، وما يأتيه من فنون الجنون في كل زمان ، وهو يدعى أنه المخلوق الكامل ، والحكيم العاقل .

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام : ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع ، والعماد الرفيع ، فهالتنا رفعتة ، وأدهشنا صنعته ، فهو في باب المشاهد الفريدة العشاء ، والقرة الشهباء ، والهضبة العليا ، والقلة الشماء ، أعجوبة الصنائع وضعا وإتقاناً ، وبكر هذا المعرض وإن كان فيه عوانا ^(١) ، تنحى أمامه الآطام ^(٢) والآكام ، وتخز له الرُّيا والأعلام ، فأين من ارتفاعه الهرمان ، ومن علوه صرح هامان ، لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده ، وجحوده وإلخاده : « يا هامانُ ابنِ لى صرحاً لعلَّيْ أبلغ الأسبابِ أسبابَ السمواتِ فأطلع إلى إلهِ موسى وإني لأظنه كاذباً » لورآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى ، ولم يقل أنا ربكم الأعلى ، ولا نحى على هامانِه فجَلَدَهُ ألفاً ، وعلقه في الجذع شَقّاً ^(٣) ، وأين « برج بابل » من برج يشافه بروج السماء ، ويشارف الشعري الغميضاء ، إذا حوِّم عليه نسر الجوصار ثالث التَّسْرِيْن ، واتخذ وَكْرَهُ في منازل الفرقدين ، وأنى لخيال الشاعر أن يعلى في وصفه علوه ، ويسمو سموه ، لا جرم أنه يضيق عليه نطاق الوصف ، فيلجأ إلى تشبيه الأكبر بالأصغر ، والأعظم بالأحقر ، كما شبهوا شمس النهار ، بكأْسِ العقار ، والثرى بمنقود ، والجوزاء بعود ، ودَّرَارَى النجوم ، بالودَّع المنظوم ، والليل الدجوجي ، بالعبد الزنجي ، والاشفاق ، بالدم المهرق ، فلعله يقول إذاً : إنه ألف الهجاء ، في كتاب التقدم والارتقاء ، هَرَّتُهُ رايته التي تحفُّق في صفحة الأفق ، أو أول العدد المرقوم في جدول الفنون والعلوم ، أو الأبرة التي تُفَرِّزُ في خريطة الكرة الأرضية ، لتعين مواضع المدينة ، أو هو القلم الذي يخط في أديم البدر ، ما بلغته أم القرب من علو الشأن والقدر ، أو هو قرن الثور في زعم البعض ، نفذ إلى ظهر الأرض . ولما فرغنا من الطواف حوله مراراً ، وامتلات له نفوسنا إعظاماً وإكباراً ، سمعنا « الصديق » يتنهَّد ويضعُد ، ويعيد في قوله ويردد :

(١) العوان : بعد البكر (٢) الآطام : الحصون (٣) الشنف : القرط

(الصديق) — هذه سنة الدهر منذ القدم ، وعادة الزمن في أبنائه ، كلما ترقى أمة من الأمم في معارج المدنية ، شيدت لها أنثراً يفوق سواه من بديع الصنعة ، يقوم لها شاهداً بين الورى على ما بلقته من السمو والقدرة في زمنها ، ثم لا يلبث أن يمحوه الدهر من صحيفته ، ليقوم مقامه آخر ينتهى إلى مثل نهايته ، لا يزال الدهر هكذا في محو وإثبات ، ولا يزال ابن آدم عن العبر في غفلة وسبات ، اللهم إنه عمل باطل ، وظل زائل .

(الحكيم) — لا تملُ بنا في أفكارك علو البرج قبل أن نصعد فيه ، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته ، وهلم بنا إلى الارتقاء .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا من أحد جوانبه في غرفة للصعود ، فارتفعت بنا من سطح الأرض إلى عنان السماء في لحظة كالجح بالبصر ، فرست بنا في الدور الثاني منه ، وإذا هو سوق من أكبر الأسواق ، اصطفت فيه حوانيتُ التجار بأنواع البضائع ، والحاناتُ بأصناف الخمر ، وفي وسطه مطعم فخم يزرى بمطاعم الأرض ، فأخذنا مجلسنا في بعض حافاته ، وجعل «الباشا» يسأل «الحكيم» إجمالاً وتفصيلاً :

(الحكيم) — يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلاثمائة متر ، وهو من الحديد والصل ، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام ، وعددُ قطعه التي يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة ، والخطاطيف فيه مليونان ونصف وله من العمر عدة سنوات ، وبلغ دخله من الصاعدين فيه في أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك ، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع .

(الباشا) — وما الآيات السبع ؟

(الحكيم) — إن ذكرها ليطول .

(الصديق) — نحن في مجلسنا هذا ، وفي علونا عن الأرض ، وتفرغنا عن العالم ما يبعثنا على جولان الفكر في تاريخ البشر ، للمطابقة بين أعمال الإنسان في ماضيه وحاضره ، وأن اختلاف العصور ، ومرور الدهور ، لم يُغيّر شيئاً من حيلته ، فهو هو على عهده في غرامه بالمعجب المدهش ، يبيع نعيم الدنيا بشقاءها في سبيل ذلك ، ويشغل بما لا تقضى به الحاجة ، لجرد الزهو والعجب ، والتباهى والتفاخر .

(الحكيم) — نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة في تعليل أعمال البشر وطباع الخلق ، وأنت تنظر إلى أهل العالم السفلي من هذا العالم العلوي ، كأنهم جموع النمل تغدو وتروح في سُبُل أرزاقها ، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل في تآزر وتماكن ، والناس في تضارب وتقاتل ، والمصير واحد ، والفناء شامل ، ومعمل النمل حق ومعمل الإنسان باطل .

وإن أتيتكم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر ، فهي : الأهرام ، والحدائق المعلقة ، وسور بابل ، وتمثال جوبيتر ، وصنم رودس ، وهيكل إيفيز ، ومدفن الملك موزول .

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم .

وأما « الحدائق المعلقة » في أرض العراق ، فقد أقامها « بختنصر » فوق البروة التي تعرف الآن بـ « بروة » عمران بن علي ، وهي في اتساع أربعين فداناً شُيدت بالبناء على أشكال الجبال ، وعقدت فيها القباب على عمد وأسطين أفرغوها وملاؤها بالطين ؛ وغرسوا فيها الأشجار تنساق جزورها في أصولها ؛ وتورق في رؤسها ؛ ووضعوا فيها الدَّرَج يصعد منها الصاعد إلى مثل رؤس الجبال ، حيث تشر الأثمار ؛ وتزهر الأزهار ، وتعشب الأعشاب ؛ وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب ؛ ويقال إن السبب في إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحب دائماً إلى مناظر بلادها التي نشأت فيها ، فأنشأها لها الملك بالصناعة ما يعرضها به عن الطبيعة .

وأما « سور بابل » فهو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض ، يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً ، وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومن حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مائة باب من حديد .

وأما « تمثال جوبيتر » ، الآله الأكبر عند اليونانيين ، فقد صنعه لهم « فيدياس » النحات الشهير ، وطول قامته أربعة عشر متراً ، وهو جالس على العرش ، مكال بوزق النار ، وفي يمينه تمثال « إله النصر » ، مصنوع من الذهب الخالص وسن القيل ، وفي

يسراه الصولجان ، منضد بكرائم الأحجار ، وفي طرفه نسر من الذهب ، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً ، أما العرش فكان من الرخام وسن القيل والأبنوس ، وكان موطى قديمه من العرش أسدين من الذهب ، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيم ، حتى عدّه القدماء أنفس ما في الوجود من الصنع ، وكان كل يوناني بعد نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه .

وأما « صنم رودس » فهو تمثال « أبولون » ، إله الفنون مند اليونانيين أيضاً ، أقاموه تجاه المرفأ ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً ، وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء ، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته ، ونقلت العرب كثيراً من بقاياها في القرن السابع .

وأما « هيكل إيفيز » (وهي مدينة من مدن اليونان) ، فهو معبد « زيوس » ، إله الصيد والقتل ، ولم يكن له مثل في البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الإطلاق ، ومما يذكّر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة ، على كل حال ، واسمه « إبروسطراط » بحث عن أكبر عمل يمتاز به في الوجود ، ويخلد ذكره على مدى الدهور ، فاحتال لإحراق المعبد ، فأكلته النار ، وأعلن الجاني عن نفسه أنه هو القاعل لتلك الفعلة الشنعاء ، فحكم عليه القضاء بالتعذيب حتى يموت ، وأدركوا غرضه من إحراقه ، فأمرُوا أن يلحق به كل من ذكر اسمه ، فكان ذلك داعية انتشاره ، لأن الناس أخذوا يهيمسون به بينهم ، حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته إلى اليوم . وكان حرقه في الليلة التي وُلد فيها الاسكندر ، فلما بلغ من الملك ما بلغه ، عرض على أهل « إيفيز » أن يعيد لهم بناء من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه ، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبي عنهم فضل عليهم في معبدهم ، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته ، حتى تم لهم في مائتين وعشرين عاماً ، وما زال قائماً حتى جاء « نيرون » القيصر الروماني فهدم ما فيه من الدخائر والكنوز ونقل السيوف من أرضه فوضعها في قصوره بمدينة « رومية » ، ثم انتهى الأمر بأن خربته « الجرمانيون » في حروبهم .

وأما مدفن الملك « موزول » ، فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته ، جمعت له مهرة الصنائع من سائر البقاع ، وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل ، وكان

ارتفاعه اثنين وأربعين متراً ، وأساسه من المرمر النقي نُقِشت عليها صور الحوادث التاريخية ، وكان غطاؤه صخرة من المرمر صُوِّرت فيه وقائعته الحربية ، وبقي هذا المدفن سليماً إلى القرن الرابع عشر ، ثم اندثر أثره في القرون الوسطى ، ونُقل جانب من أجزائه قريباً منه لبناء قلعة « يودرون » بالأناضول في القرن السادس عشر ، وبقي منه قِطْع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه إلى أواسط هذا القرن ، فاشترتها انكليترا ووضعتها في متحف لوندرة .

(الصديق) — ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة ! ! تراكت القرون ، وشاب قود الدهر ، وتغيرت الأرض ، واندثرت للعالم ، في كل زمان ومكان ، والإنسان هو هو لا يزال على غيه ، يعتقد لأعماله البقاء ، ولآثاره الخلود ، لا فرق في هذا الاعتقاد بين الآشوري عند برج بابل ، والفرنسي اليوم تحت « برج إيفل » ، كلاهما يتشب ويشقى ، وكلا العاملين لا يدوم ولا يبقى ، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر .

كلُّ بيتٍ إلى الهدم ما تَبَتَّنِي أَلْوَرقاه والسيدُ الرفيعُ العبادِ
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السُّدِّ رِضْبُ الأَططابِ والأوتادِ

(الحكيم) — نعم صدقت ، ويحضرني في هذا الباب محاوره ابتكرها أحد قدماء العلماء وأجراها في عالم الأموات على لسان « ديوجين » الفيلسوف الزاهد القديم ، والملك « موزول » صاحب ذلك المدفن الشهير ، وأذكر منها :

(ديوجين) — مالي أراك أيها الرجل الأسوي مختالاً نبيهاً في أكتفائك ! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضاً بين الأموات منزلةً أشرف من منزلتهم ، وتحمل تحت طبقات الأرض فوقهم مكاناً علياً .

(الملك) — وهل من شك في ذلك أو ارتياب ! ومتى تساوت الملوك بالسوقة ! وأنا أكبر الملوك ملكاً وسلطاناً ، وأحسن الخلق بهاءً وجلالاً ، وأعظم الفاتحين نصرةً وجلالاً ، وقد كنت في الحياة أرفع ذوى التيجان عرشاً وقدرأ ، وأنا اليوم في الممات أعظمهم مدفنأ وقبرأ ، وإن افترى مُفترٍ منهم أنه كان يساويني في فخامة الملك ، فقد انقطعت ألسنتهم أن

يكون لم مثل هذا القبر ، فهو معجزة البشر في النقش والحفر ، وآية الدهر في المجد والفخر ، فهل ترى بعد ذلك أيها المتكشف في الدنيا والمنذر في الآخرة أن ليس من حق التخيل والترفع ! (ديوجين) — ولكني أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالك أكثر مما بقي لي ، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتي بشيء ، فكلماتها مثقوبتا العينين ، مفحورتا الأنف ، بارزة الأسنان ؛ وأما ذلك المدفن القمقم والصخور المزخرفة فوق رأسك ، فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساريت فيه بمن دُفِنَ في بلقع من الأرض ، وإنما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يقباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حيناً من الدهر ، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره ، وتزول آثاره .

(الملك) — ما هذا الذي أسمع ، يارب الصواعق والرواعد ! ! أذهب كل ما أُوتيتُه من أسباب العز والمجد متاعاً باطلاً ، وأصبح مساوياً لديوجين ، فيومعني تأنيباً وتبكيثاً ؟ (ديوجين) — لا تقل أيها الخلق إنك أصبحت مساوياً لي ، فشتان ما بيني وبينك ، فإنك لا تنفك تتجسس على ما كان لك في الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة ، وأما أنا فلا يحرزني شيء ، ولا يكدرني الآن مكدر ولم أترك في الحياة شيئاً آسف عليه ، ويوجعني فراقه ، ولئن خطر الزنبيل الذي كنت أسكنه في الدنيا على بالي يوماً لكان للاغتباط بأن مسكني الآن في بطن الأرض أوسع لي مجالاً وأحسن منزلاً ، ولكن لي في قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً ، وأثراً من الفضائل خالداً ، لا تمحوه الأيام ، ولا يبلى ببلاء الزمن ، فأين مكانك أيها المروء من مكاني ، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى ؟ (الباشا) — ما أحكم الموعظة وأجل العبرة ! !

(الحكيم) — ولو علمتم أن « المسير إيفيل » صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسُجن في قضية « بناما » الشهيرة ، لاشتدَّ بكم العجب في نتيجة هذه الآثار ، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار .

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها في صنائعها وآلاتها وأدواتها ، من بطن الأرض إلا سطح البرج متجلية لكم في هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسنى مراتبها ، فإن

كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم ، فقد كفاكم ما شاهدتموه ، مما يتلأ الصدر
هابة والعيون حسناً ، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم ، فقد رأيت فيكم من حسن
المشورة ، ولطف الخلطة ، وذكاء القريحة ، ودقة الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل في
كثير من أهل الشرق وإن كان في نيتكم الإقامة زمناً بيننا ، وكان الميل فيكم شديداً
لاستطلاع العالم الأدبي ، بعد العالم المادي ، في هذه الحضارة الغربية ، واحببتم الوقوف
على ما تجرى عليه أحوال الجمعيه البشرية ، وما تدور به المعاملات في المعاش والمراق ،
وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات ، ويتسلط عليها من الطباع والعادات ، فأنا
حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم ، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأنس
بكم ، ولذة النفس في مباحثكم ومناقشتكم .

قال عيسى بن هشام : فحبب إلينا البقاء بكلامه ، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه ،
وصادف رأيه لدينا حسن القبول ، ففضلنا الإقامة على القبول ، وبهذا انتبهنا من زيارة
معرض النفائس والأعلاق ، لنبدأ بالنظر في معرض الأطوار والأخلاق .

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام : وأقنا مع صاحبنا « الحكيم » نهتدى في سيرنا بهديه ، ونستضيء بنور فكره ورأيه ، وتبعه اتباع الإبل لحاديها ، والرقعة لحاديها ، ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا ، وأنزله على موافقتنا ، وقضينا معه الليالى والأيام ، منذ انتهينا من المعرض العام ، وكأنا حلم من الأحلام ، يتقل بنا فى الأندية الحافلة ، والمجالس الآهلة ، ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات ، بين مختلف أهل الطبقات ، فيعلو بنا تارة إلى مراتب الخاصة والحامة^(١) ونسفل معه أخرى إلى أدنى منازل السوق والعامية ، فالיום مع كبار الرجال والأمراء ، وغداً بين شرادم الصناعات والأجراء ، ثم نتحول من محادثة أرباب القصور العالية ، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية ، ومن منابر الوعظ والخطابة ، إلى مجامع ذوي الدعارة والدعابة ، ومن أروقة العلماء والفضلاء ، إلى أزقة الأوباش والسفهاء ، ومن جمعيات العلوم والمعارف ، إلى حانات المراقص والمعارف ، حتى لم يبق مجتمع تختبر فيه الفضائل والرياء ، وتُسبر فيه الطبائع بين الأعلى والأسافل ، إلا لدينا طرف من خبره ، وعلم من أثره ، باحثين فى العلل والأسباب ، مُستشفين لما وراء الحجاب ، إلى أن أدركنا الشتاء بحيله ورجله ، وجليده ووجهه ، ورعوده وبوارقه ، وعواصفه وصواعقه ، وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام ، وانسدل على العالم ستر الظلام ، وأصبحنا نستضيء بمصابيح الكهرباء ، من الصباح إلى المساء ، وانطلقت فى الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطعلاء ، فعمدت سحباً أخرى تحت سحب السماء ، وتدفقت السيول والأمطار ، طول كل ليل وكل نهار ، حتى أغرقت القسدران والأنهار ، فطغى الماء بمثل الطوفان ، وسال فى الأودية والبلدان ، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرض المنازل والمساكن ، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن ، فانزونا فى الغرف والحجرات ، نقضى بها جميع الأوقات ، وكأنا نحن فى العذاب ، نُعَذَّب تارة بنار الاستدفاء ، وتارة بزمهرير الشتاء ، وأقنا عاكفين على الحديث والسرور ، بما وعيناه عن هذه المدينة من كل خير وأثر ، وكان « الصديق » يلبسنا كعنه ،

(١) الحامة : مرادف الخاصة

يرسل علينا القول إرسالا ، ويذهب في حدة اعتقاده يمينا وشمالا .
ويذكر من أسوء المدنية الغربية ما يهول السمع ، ويذرف الدمع ، حتى استفز
« الحكيم » لرد عليه ، وتهوين ما ذهب إليه :

(الحكيم) للصديق - لقد أسرفت أيها « الصديق » في القول ، وغاليت في
الوصف ، وإن كان في بعضه الجانب الصحيح ، والحق الصريح ، ولكن هذه المدنية
الكثير من الخاسن ، كما أن لها الكثير من المساوي ، فلا تغطوها حقها ، ولا تبخسوها
قدرها ، وخذوا منها عشر الشرقيين ما ينفعكم ، وبلغتم بكم ، واتركوا ما يضركم ، ويتنافى
طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها ، وعظيم آلائها ، واتخذوا منها قوة
تصد عنكم أذى الطامعين ، وشركة المستعمرين ، وانتقلوا محاسن الغرب إلى الشرق ،
وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم ، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ،
وتتمتعوا في رخاء بلادكم ، وسعة أرزاقكم ، وأحمدوا الله على ما آتاكم .

قال عيسى بن هشام : ولم يبق لنا بد في هذه الحال . من السفر والانتقال ، فاستخرنا
الله في العودة إلى ديارنا ، والأوبة إلى أوطاننا . والحمد لله باطنا وظاهرا ، أولا وآخرا .

(وإلى هنا انتهى الحديث)



بدأت هذه الكتاب بخير ما يبدأ به كتاب بعد اسم الله ، وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين .

لم أرم في ذلك — علم الله — إلى التنبيه من ذكرى ، والتنويه بقدرى ، وأستغفره ثم أتوب إليه أن يكون الدافع إلى نشرها هذا الغرض دون سواه ، وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء إلى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والإغراء بالعمق فيه ، كما طعل توضع في يده قطعة العاج المنقشه علالة يتعلل بها لتبنت أسنانه ، بل كان نشرها لأنها أثر من الآثار يجب عرضه على النظر ، ونفاضة بما يخطه ذلك القلم الجليل في أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطويًا في أدراج الأوراق ، وحقه أن ينشر على سائر الآفاق .

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يختم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين: هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الأستاذ الشيخ سالم بن حاجب شيخ العلماء وصاحب الإفتاء بالملكة التونسية، بعد أن قرأ هذا الكتاب في طبعته الأولى، وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمناً وشرفاً وجلالاً، ممن يمثل لك بالفعل ، ما يروى عن السلف الصالح بالقول ، ويشهد لك بسيرته في هذه الأيام ، كيف كان العالم العامل في صدر الإسلام، ويعيد لنا ذكرى البصرى في الزهد والتقى، والكوفي في الرأي والحجى ، والمكي في الفقه والدين، والمدنى في العلم علم اليقين، هذا إلى سعة في الإطلاع، وتصرف في الأفكار، ودقة في البحث ، واستنباط للأمور ، يؤلف الغابر بالحاضر ، ويهابق بين أحكام ما قصت به الحكمة في سالف الأوان ، وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكاً يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد

فهو المثال التام، الذي ينشده الإسلام، منذ السنين والأعوام ، من بين العلماء الأعلام، ليعود إليه مجدده ، ويرتد إليه حقه ، ويعرف بهم قدره ، ولو من الله بمن يأخذ بقدرته في

سائر الأقطار ، ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الأمصار ، لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين ، ولعاد الإسلام إلى ذلك العز القديم والنصر المبين .

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أيها الجليل النحرير ، المتصرف في أحرار الأبواب ، ورقيق الآداب ، بالاسترفاق والتحرير ، البالغ من رتب التهذيب أفاصيها ، المالك من بدائع التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية اللطيفة بعزة تلك الحضرة المحمدية المويجية ، فقد وصل إلى — واصل الله — في مدارج الإجابة ارتقاءكم ، وأدام لحسن الإفادة إتقانكم وانتقاءكم — كتابكم الجليل ، الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان ، وبراعة البيان ، وكمال تربية الإنسان ، أوضح دليل ، فوالذي علم بالقلم ، ومنح خير خلقه جوامع الكلم ، إن لقلكم من السحر المبين ، ما تحرق له سحرة البيان ساجدين ، وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهللكم لها كتاب الأستاذ جمال الدين كما يتحقق ما يُتفاد به عن إسناد مروياتكم لاسم عيسى ، وإحياء موتى الأفكار المؤسسة على حياة مَنْ كان في الاعد رميسا ، فيأله من معلم قد علم منه كل أناس مشربهم ، وتوجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم ، فرجال الحكم مثلا سواء كانوا من الأمة الإسلامية أم غيرها ، يتعرفون منه ممالك عز الأمة ونمو خيرها ، بأسناد الوظائف إلى أهل المعرفة والفضل ، والضن بها عن غير أهل ، وإقامة منار العلم والعدل ، لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل ، والعلماء يدركون به طرق النصح في التعليم ، وعدم النفرة من الحديث لجرد كونه لم يُعهد في القديم ، ومع ما يلزم لهم في اقتياد ذوى الجهالة والعناد من الملاحظات ، والتحذير مما يندس الشريعة المصونة من مخلفات الخرافات ، والحارم القاسم ينتهي بمطالعته بالكف والإعراض ، عن كل ما يمس المروءة ويندس الأعراض ، والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهينة لفظه ، ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه ، وكيف ينتحل الأديب مهارة الطيب ، فيشرح النصائح بأسلوب عجيب ، لا يتطرقه إنكار

أو تكذيب ، وقد يجد المريض من حلق الطيب عذوبة التعذيب ، ثم يسترشد به الوالد في تربية أبنائه ، ويدعوهم إلى حفظ مجد البيت والثروة بعد فئاته ، ويعينهم على استقرار دوحه البذور ، وينقذهم مما يُفضي إليه سوء السيرة من الأسواء والشرور .

ملا الله أوقات الجميع بالسرور ، ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر مشكور ، وإذا كان لا يتيسر لغيركم ، وعاكم الله ، أن يصل بقلبه إلى منتهى آماله ، فحسبنا أن نفع في أداء الواجب بإجماله .

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب ، من مقيم ودمكم وأدبكم

سالم بوحاجب

فهرست الكتاب

ترجمة حياة السيد محمد النويلي بك
إهداء الكتاب
القدمة

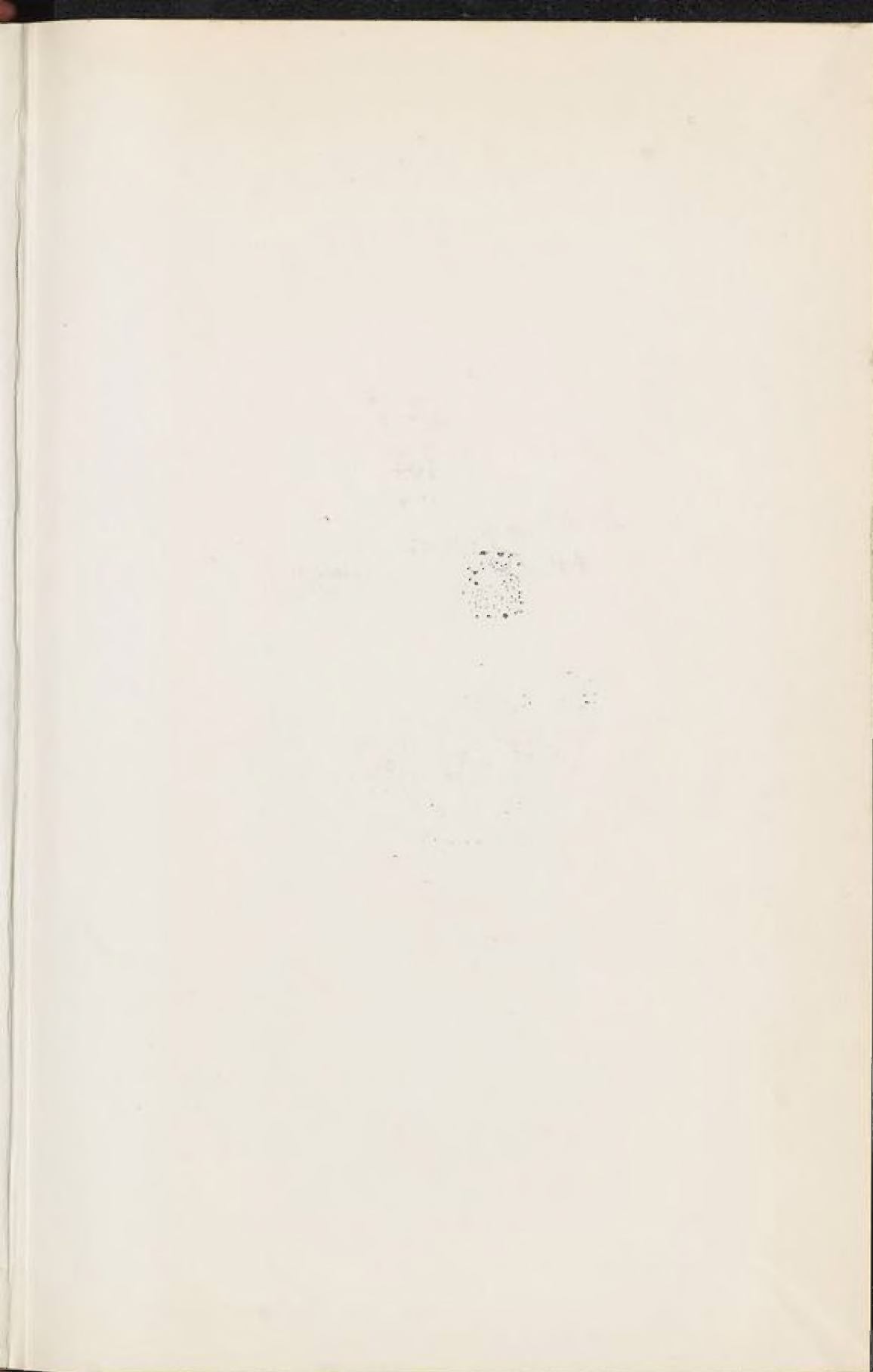
صفحة	صفحة	
١٠٩	١	العبرة
١١٥	٦	السرقة أو البواص
١٢٤	١٢	النسابة
١٣٣	٢٠	الحامي الأهلي
١٤٣	٢٣	الحكمة الأهلية
١٦٤	٣٥	خنة المرافة
١٧٣	٤١	حكمة الاستئناف
١٨٠	٥١	الوقف
١٨٨	٥٥	أبناء الكبراء
١٩٧	٥٩	كبراء العصر الماضي
٢١٨	٦٨	الحامي الشرعي
٢٢٨	٧٥	الدخلة الشرعية
٢٣٥	٨١	الحكمة الشرعية
٢٤٢	٨٧	فصل حفيد الباشا
٢٥١	٩٥	الفن والأطباء
	١٠٣	الطاعون

الرمز الثانية

٣٠١	٢٥٧	باريس
٣٠٧	٢٦٩	العرض
٣١٤	٢٧٦	القصر الكبير
٣١٦	٢٨٤	الأشجار والأزهار
٣١٧	٢٨٩	المرايا والمشاهد
	٢٩٥	الاعتناء على الوطن

8169







**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

Univer

